مختارات من القصة العربيـة

• محمد تيمور

فى القطار

أول قصة قصيرة فى الأدب العربى

صباح ناصع الجبين يجلى عن القلب الحزين ظلماته، ويرد للشيخ شبابه، ونسيم عليل ينعش الأفئدة، ويسرى عن النفس همومها، وفى الحديقة تتمايل الأشجار يمنة ويسرة كأنها ترقص لقدوم الصباح، والناس تسير فى الطريق وقد دبت فى نفوسهم حرارة العمل، وأنا مكتئب النفس أنظر من النافذة لجمال الطبيعة، وأسائل نفسى عن سر اكتئابها فلا أهتدى لشىء.

تناولت ديوان «موسيه» وحاولت القراءة، فلم أنجح. فألقيت به على الخوان وجلست على مقعد، واستسلمت للتفكير كأنى فريسة بين مخالب الدهر.

مكثت حيناً أفكر ثم نهضت واقفاً، وتناولت عصاى وغادرت منزلى وسرت وأنا لا أعلم إلى أى مكان تقودنى قدماى إلى أن وصلت إلى محطة باب الحديد وهناك وقفت مفكراً ثم اهتديت للسفر ترويحاً للنفس، وابتعت تذكرة، وركبت القطار للضيعة لأقضى فيها نهارى بأكمله.

وجلست فى إحدى غرف القطار بجوار النافذة، ولم يكن بها أحد سواى وما لبثت فى مكانى حتى سمعت صوت بائع الجرائد يطن فى أذنى (وادى النيل، الأهرام، المقطم) فابتعت إحداها

وهممت بالقراءة وإذا بباب الغرفة قد انفتح ودخل شيخ من المعممين، أسمر اللون طويل القامة، نحيف القوام كث اللحية، له عينان أقفل أجفانهما الكسل، فكأنه لم يستيقظ من نومه بعد. وجلس الأستاذ غير بعيد عنى، وخلع مركوبه الأحمر قبل أن يتربع على المقعد، ثم بصق على الأرض ثلاثا ماسحا شفتيه بمنديل أحمر يصلح أن يكون غطاء لطفل صغير. ثم أخرج من جيبه مسبحة ذات مائة حبة وحبة وجعل يردد اسم الله والنبى والصحابة والأولياء الصالحين، فحولت نظرى عنه فإذا بى أرى فى الغرفة شاباً لا أدرى من أين دخل علينا ولعل انشغالى برؤية الأستاذ منعنى أن أرى الشاب ساعة دخوله.

نظرت إلى الفتى وتبادر إلى ذهنى أنه طالب ريفى انتهى من تأدية امتحانه، وهو يعود إلى ضيعته ليقضى إجازته بين أهله وقومه. ونظرت إلى الشاب كما نظر ثم أخرج من حافظته رواية من روايات مسامرات الشعب وهمّ بالقراءة بعد أن حوّل نظره عنى وعن الأستاذ. ونظرت إلى الساعة راجياً أن يتحرك القطار قبل أن يوافينا مسافر رابع، فإذا بأفندى وضاح الطلعة، حسن الهندام، دخل غرفتنا وهو يتبختر فى مشيته ويردد أنشودة طالما سمعتها من باعة الفجل والترمس. جلس الأفندى وهو يبتسم واضعاً رجلا على رجل بعد أن قرأنا السلام، فرددناه رد الغريب على الغريب.

وساد السكون فى الغرفة والتلميذ يقرأ روايته، والأستاذ يسبح وهو غائب عن الوجود، والأفندى ينظر لملابسه طوراً وللمسافرين

تارة أخرى، وأنا أقرأ وادى النيل منتظراً أن يتحرك القطار قبل أن يوافينا مسافر خامس.

مكثنا هنيهة لا نتكلم كأنا ننتظر قدوم أحد، فانفتح باب الغرفة ودخل شيخ يبلغ الستين، أحمر الوجه براق العينين، يدل لون بشرته على أنه شركسى الأصل، كان ممسكاً مظلة أكل عليها الدهر وشرب. أما حافة طربوشه فكانت تصل إلى أطراف أذنيه. وجلس أمامى وهو يتفرس فى وجوه رفقائه المسافرين كأنه يسألهم من أين هم قادمون وإلى أين ذاهبون. ثم سمعنا صفير القطار ينبىء الناس بالمسير، وتحرك القطار بعد قليل يقل من فيه إلى حيث هم قاصدون.

سافر القطار ونحن جلوس لا ننبس ببنت شفة، كأنما على رءوسنا الطير، حتى اقترب من محطة شبرا، فإذا بالشركسى يحملق فى ثم قال موجها كلامه إلىّ :

– هل من أخبار جديدة يا أفندى ؟

فقلت وأنا ممسك الجريدة بيدى: ليس فى أخبار اليوم ما يستلفت النظر اللهم إلا خبر وزارة المعارف بتعميم التعليم ومحاربة الأمية.

ولم يمهلنى الرجل أن أتم كلامى لأنه اختطف الجريدة من يدى دون أن يستأذننى وابتدأ بقراءة ما يقع تحت عينيه، ولم يدهشنى ما فعل لأنى أعلم الناس بحدة الشراكسة. وبعد قليل وصل القطار محطة شبرا فصعد منها أحد عمد القليوبية، وهو رجل ضخم الجثة، كبير الشارب، أفطس الأنف، له وجه به آثار الجدرى،

تظهر عليه مظاهر القوة والجهل. جلس العمدة بجوارى بعد أن قرأ سورة الفاتحة وصلى على النبى ثم سار القطار قاصداً قليوب.

مكث الشركسى قليلا يقرأ الجريدة، ثم طواها وألقى بها على الأرض وهو يحترق من الألم وقال:

– يريدون تعميم التعليم ومحاربة الأمية حتى يرتقى الفلاح إلى مصاف أسياده وقد جهلوا أنهم يجنون جناية كبرى.

فالتقطت الجريدة من الأرض وقلت:

– أية جناية؟

– إنك ما زلت شاباً لا تعرف العلاج الناجع لتربية الفلاح.

– وأى علاج تقصد ؟ وهل من علاج أنجع من التعليم؟

فقطب الشركسى حاجبيه وقال بلهجة الغاضب:

– هناك علاج آخر ..

– وما هو؟

فصاح بملء فيه صيحة أفاق لها الأستاذ من نومه وقال:

– السوط. إن السوط لا يكلف الحكومة شيئاً، أما التعليم فيتطلب أموالا طائلة، ولا تنس أن الفلاح لا يذعن إلا للضرب لأنه اعتاده من المهد إلى اللحد .

وأردت أن أجيب الشركسى، ولكن العمدة حفظه الله كفانى مئونة الرد فقال للشركسى وهو يبتسم ابتسامه صفراء:

– صدقت يابيه صدقت. ولو كنت تسكن الضياع قلت أكثر من ذلك، إننا نعاني من الفلاح ما نعاني لنكبح جماحه، ونمنعه من ارتكاب الجرائم.

فنظر إليه الشركسي نظرة ارتياب وقال:

– حضرتكم تسكنون الأرياف؟

– أنا مولود بها يابيه.

– ما شاء الله.

جرى هذا الحديث والأستاذ يغط في نومه، والأفندي ذو الهندام الحسن ينظر لملابسه ثم ينظر لنا ويضحك، أما التلميذ فكانت على وجهه سيماء الاشمئزاز، ولقد هم بالكلام مراراً فلم يمنعه إلا حياؤه وصغر سنه، ولم أطق سكوتاً على ما فاه به الشركسي، فقلت له:

– الفلاح يابيه إنسان مثلنا وحرام ألا يحسن الإنسان معاملة أخيه الإنسان، فالتفت إلى العمدة كأني وجهت الكلام إليه وقال:

– أنا أعلم الناس بالفلاح، ولي الشرف أن أكون عمدة في بلد به ألف رجل وإن شئت أن تقف على شئون الفلاح أجيبك. إن الفلاح يا حضرة الأفندي لا يفلح معه إلا الضرب، ولقد صدق البك فيما قال. وأشار بيده إلى الشركسي:

– ولا ينبئك مثل خبير.

فاستشاط التلميذ غضباً، ولم يطق السكوت، فقال وهو يرتجف:

– الفلاح يا حضرة العمدة.

فقاطعه العمدة قائلا:

– قل يا سعادة البك لأنى حزت الرتبة الثانية منذ عشرين سنة.

قال التلميذ:

– الفلاح يا حضرة العمدة لا يذعن لأوامركم إلا بالضرب لأنكم لم تعودوه غير ذلك، فلو كنتم أحسنتم صنيعكم معه لكنتم وجدتم فيه أخا يتكاتف معكم ويعاونكم، ولكنكم مع الأسف أسأتم إليه فعمد إلى الإضرار بكم تخلصاً من إساءتكم. وإنه ليدهشنى أن تكون فلاحاً وتنحى باللائمة على إخوانك الفلاحين.

فهز العمدة رأسه ونظر إلى الشركسى وقال:

– هذه هى نتائج التعليم.

فقال الشركسى:

– نام وقام فوجد نفسه قائم مقام.

أما الأفندى ذو الهندام الحسن فإنه قهقه ضاحكاً وصفق بيده وقال للتلميذ:

– برافوا يا أفندى، برافوا، برافو..

ونظر إليه الشركسى وقد انتفخت أوداجه وتعسر عليه التنفس وقال:

– ومن تكون أنت ؟

– ابن الحظ والأنس يا أنس.

وقهقه عدة ضحكات متوالية.

ولم يبق فى قوس الشركسى منزع فصاح وهو يبصق على الأرض طورا وعلى الأستاذ وعلى حذاء العمدة تارة:

– أدبسيس فلاح.

ثم سكت وسكت الحاضرون، وأوشكت أن تهدأ العاصفة لولا أن التفت العمدة إلى الأستاذ وقال:

– أنت خير الحاكمين يا سيدنا فاحكم لنا فى هذه القضية.

فهز الأستاذ رأسه وتنحنح وبصق على الأرض وقال:

– وما هى القضية لأحكم فيها بإذن الله جل وعلا ؟

– هل التعليم أفيد أم الضرب؟

فقال الأستاذ:

– بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً. قال النبى عليه الصلاة والسلام لا تعلموا أولاد السفلة العلم.

وعاد الأستاذ إلى خموله وإطباق أجفانه مستسلماً للذهول، فضحك التلميذ وهو يقول:

– حرام عليك يا أستاذ. إن بين الغنى والفقير من هو على خلق عظيم كما أن بينهم من هو فى الدرك الأسفل.

فأفاق الأستاذ من غشيته وقال:

– واحسرتاه، إنكم من يوم ما تعلمتم الرطان فسدت عليكم أخلاقكم ونسيتم أوامر دينكم ومنكم من تبجح وبغى واستكبر وأنكر وجود الخالق.

فصاح الشركسى والعمدة (لك الله يا أستاذ) وقال الشركسى:

– كان الولد يخاف أن يأكل مع أبيه، واليوم يشتمه ويهم بصفعه.

وقال العمدة:

– كان الولد لا يرى وجه عمته، والآن يجالس امرأة أخيه.

ووقف القطار فى قليوب، فقرأت الجميع السلام، وغادرتهم وسرت فى طريقى إلى الضيعة وأنا أكاد لا أسمع دوى القطار وصفيره وهو يعدو بين المروج الخضراء لكثرة ما يصيح فى أذنى من صدى الحديث.

[١٩١٧م]

• محمود تيمور

مولانا أبو البركات

عاش الشيخ «أبو البركات» حتى الخمسين من عمره، رقيق الحال، ليس له إلا دخل قليل، إذ كان إماماً في مسجد صغير تداعت أركانه، وسط حي فقير. كان بحاله راضياً كل الرضا، قنوعاً أشد القناعة، لا يضيق بما فيه من عسرة وإملاق. وهو إلى ذلك سخي الكف، أريحي النفس، يرفق بمن يلقى من الفقراء وأبناء السبيل، فيقتسم معهم اللقمة، تحدوه الحكمة الطيبة: الحسنة في الدنيا بعشرة أمثالها في الآخرة. وما كان للرجل أن يطلب نعيم الدنيا أو يتهافت على ما تحفل به من أطايب، وهو إنما يعمل لآخرته ما وسعه أن يعمل، إذ الدنيا في عينه دار فناء والآخرة هي دار البقاء.

وكان الشيخ يؤذيه ما يشهده من شقاء الإنسانية وبأسائها، فهو في ختام كل صلاة يعاهد ربه عهداً لاحنث فيه أنه لو وصله بعطية سخية من المال لعجَّل بها إلى اخوانه من عُفاة الحَّى ينثرها، ليخفف من بلواهم، ويفرِّج عنهم كربتهم. ويبعث في نفوسهم طمأنينة وراحة.

ويبدو أن الله قد استجاب له، فهبطت عليه يوماً من السماء، دون ترقب، ثروة طيبة، جاءته من ورقة نصيب، اشتراها على كره

منه، لا رغبة فى كسب، أو غنم، ولكن عوناً لبائعها بما أعطاه من ثمن.

تلقى «أبو البركات» هذه الثروة المفاجئة فى دهشة وتحير، ولم يلبث أن احتوته غاشية من ذهول ووجوم، وما هى إلا أن هجس فى خاطره صوت يردّد: أن هذا المال ليس لك، فإياك أن تمتد إليه يدك لتنفق منه على نفسك، إنما هو مال الفقراء، أولاهم الله إياه، واختارك قيِّماً عليه، لتتولى إنفاقه فى وجوه البر والاحسان.

وانتفض الرجل انتفاضة هزت كيانه، وقد أفاق من غشيته، فسما ببصره إلى السماء يحمد الله على عطيته، وأقسم والدموع تترقرق على وجنتيه أن يكون أميناً على عهده، وفيًّا بوعده.

ونهض من ساعته ينفذ خطته، وانطلق يصل طلاب الحاجات بالمنح والعطايا، فما أسرع أن تسامع به القريب والبعيد، فسعوا إليه، وسايروه فى تطوافه، يتلقفون منه نفحات المال كأنما هى الغيث المنهمر، وهم يجأرون له بالدعاء الحار، فكان يجيبهم، وابتسامته الوضيئة تشيع على محيَّاه، بأن ما يجود عليهم به من مال، ليس هو بماله، إن هو إلا عطية المولى خصهم بها، ووكل أمر توزيعها إليه، كل امرىء وحاجته.

وعاد إلى بيته قرير العين بما قال وما فعل. فتناول مع زوجته وعياله عشاء غثا تافها لا يسمن ولا يغنى من جوع.. ولم يلبث أن فر إلى سجادة الصلاة يلوذ بها، ويتهجد ويتعبد، ضارعاً إلى الله أن يسيغ عليه عفوه ورضاه، ويغفر له خطاياه.

وتواردت الأيام، والشيخ يواصل العطايا يمنحها جزافاً كلَّ من يمدُّ إليه يده بالسؤال. وكانت الساحة أمام الدار، منذ الضحوة العالية، تحتشد بجموع الناس من كل صوب. فإذا ما هل عليهم هرعوا إليه، متدافعين بالمناكب، يتصايحون ويتصاخبون، هذا يطالب بثمن كساء، وذاك فى حاجة إلى الحصول على دواء، والثالث يطمع فى أداء قسط المدرسة لبنيه. والشيخ يهش لهم جميعاً، يلاطفهم ويواسيهم ويطلب لهم من الله العون والتوفيق.

وتواترت أيام أخر، وأحس «أبو البركات» وطأة الزحمة وتكالب الجماهير، وتشتد بهم اللجاجة، ويعلو لهم ضجيج، فكانوا تارة يضرعون فى مذلة وصغار، وطورا يتوعدون فى توقح واجتراء، فازداد الرجل من حيرة وحرج وأحاطت به الهواجس، فلم يدر ما يفعل.

وأقبل عليه صديق يمحضه النصح، فقال له: «دع عنك هذه الوسيلة غير المجدية فى بذل المعونات. فقد ينال منك من ليس أهلا للاحسان، على حين يظل صاحب الحاجة بمنأى عنك، لا ينال من خيرك شيئاً.. يلزم أن ترسم لك خطة فى العمل، وأن تضع برنامجاً محكماً للتوزيع، فيصيب صاحب الحاجة حاجته عن حق وعدل، دون ما غبن ولا جور».

ووقعت هذه الكلمات الحكيمة من نفس الشيخ موقع رضا وقبول، فأولاها على الفور كبير عنايته، وأمسك عن بذل العون إلا لنفر قليلين، هو بحقيقة حالهم أعرف، وانسرح يقلبُ الفكر، لعل الرأى يُسفر له عن تدبير قويم.

وازدحمت الخطط فى رأسه، فعكف عليها يوازن بينها ويتدارسها، وتشعبت المسائل وتداخلت، فاختلط عليه الأمر، لا يدرى من أين يبدأ، وأية سبيل يسلك، وإلى أى وجهة يهدف، فما أسرع أن تسرب إلى نفسه الملل، واشتد به الضيق. أليس من الحكمة إذن أن يهب «المال» مؤسسة خيرية، أو مصلحة حكومية، تتولى إنفاقه على ذوى الحاجات، فيريح ويستريح؟.. ولكن أليس هذا برهان عجز يصمه بالنكوص عن أداء الواجب، والتخلى عما كلفه الله من رعاية البائسين؟ وهل يأتمن على مال الله – وديعته إليه – نفراً من الغرباء لا يقيمون للأمر وزناً، ولا يولونه أى اهتمام؟ ومن يدرى فقد تمتد أيديهم إليه بالعبث فلا يبقون عليه من شىء. إن الجشع والطمع خلّتان أصيلتان فى طبع البشر.. لا.. لن يدع غيره يتولى شئون الفقراء، ولن يتخلى عما أمره به الله. سينهض بالأمر ناشطا غير وان.

وبارح الدار يستروح، ولما عاد جاءته زوجته على استحياء، وأطفالها من حولها يحومون، وقالت له:

«ألم يحن الوقت لتعطينا مما أفاء الله عليك، حتى نشترى كسوة للصغار؟.. أنت تعطى الغريب، وتنسى أطفالك، وهم أحوج إلى العون وأولى به»!

فرماها بنظرة حادة، وقال: ليس المال مالى وليس لى حق التصرف فيه لنفسى أو لأهلى، إنه مال المعوزين البائسين

– ألسنا من المعوزين البائسين؟!

– إن ما لدينا يكفينا.. وغيرنا أحق منا.

– أليس فى قلبك ذرة من الرحمة بأولادك؟

لقد قلت كلمتى، فاغربى عن وجهى يا امرأة.

وزايلت المرأة الحجرة، وهى تجهش بالبكاء، وأطفالها ينوحون، ونظر الشيخ إليهم يرقبهم فى منصرفهم عنه، فراعه ما يحملون على أجسادهم النحيلة من أسمال، ولاذ على الفور بسجادة الصلاة يضرع إلى الله أن يعصمه من المزالق والعثرات.

وفى بكرة غده، أقبل عليه شخص من معارفه يشكو سوء حاله، ويرغب إليه أن يمنحه مبلغا من المال، يستعين به على شراء كسوة لأطفاله، فطفق الشيخ يقلب فيه النظر لحظات، وقد استشعر بوادر سخط تعتلج فى نفسه، على أنه مد يده إلى السائل بمبلغ ضئيل. فقال الرجل فى دهشة وامتعاض:

إنه مبلغ لا يفى بكسوة رضيع، فكيف وأطفالى قد شبوا عن الطوق، وعددهم ليس بالقليل؟

فأجابه الشيخ فى نبرة عليها مسحة من غضب:

– هذا ما أستطيع أن أقدمه لك.

– يا سيدى إن الأمر جد، أرجو أن ترحم.

فقاطعه الشيخ فى لهجة صارمة :

– على عاتقى إنفاذ خطة خيرية هامة، تقتضينى الحكمة فى الإنفاق، وحسبك منى ما أعطيتك!

وقدم عليه سائل ممن ألفوا نيل عطائه من قبل، وكان الرجل بادى السقم والهزال، فشكا إليه الجوع، وأقسم أمامه أنه لم يذق

طعاما منذ أيام، وما لبث أن تهاوى على الأرض ضعفاً وإعياء، فخف إليه الشيخ يعينه على النهوض، وتأثر لحاله أبلغ التأثر، وعجل يدس فى يده منحة سخية، أشرق لها وجه السائل، وأطلق لسانه بالدعاء الموصول.

وبعد حين شهد «أبو البركات» صديقه السائل الجائع فى مطعم من مطاعم الحى، جالسا إلى مائدة عليها صحن حافل بالثريد يُتوّجه كومة من لحم، وقد فاح قتاره شهيا. وتابع خطاه، وهو يغالب هيجة ضارية فى معدته.

وعند أوبته إلى داره، جلس يصيب طعامه مع زوجته وأولاده. فإذا هو صحن هزيل من خثارة الجبن، وكسر من خبز يابس، ولم يكد الصحن يستقر أمامهم حتى امتدت إليه الأيدى فى غدو ورواح، حتى أتت عليه فى لحظات. وكان «أبو البركات» يرقب عياله فى مأكلهم متجهم الوجه، وانصرف عن الطعام ولم يذق منه إلا النزر، وسرعان ما لاذ بسجادة الصلاة.

وتلاحقت أيام، وعاد السائل الجائع يطرق باب الشيخ، ويطالب بمنحته، فألقى عليه الشيخ بمبلغ تافه أخذه السائل على مضض، وانصرف.

وفيما كان الشيخ يجوز بالسوق، إذ وقعت عينه على صديقه السائل الجائع، منتبذاً ركناً فى الطريق، وقد بسط فى حجره بعض كسر من خبز يابس، وقطعة من جبن قريش، وانهمك يأكل، فحث الشيخ خطاه، وقد تخايل على فمه طيف ابتسامة!.

ويوماً هبط دار «أبى البركات» تاجر من السوق، ورغب فى رجاء أن يؤدى له ثمن ما أخذته زوجه من متجره، وقدم له على الأثر رقعة الحساب، وكانت مشحونة بالأرقام، فنظر الشيخ فى الرقعة، وقد أخذ منه الدهش كل مأخذ، واستمهله إلى الغد، وقصد زوجته على الأثر، وقد استبد به الغضب، وسألها قائلا:

– ما شأن هذه الثياب التى يطالبنى التاجر بدفع ثمنها؟.

فأجابت : إنها لى ولأطفالى.. نحن فى حاجة ماسة إلى الثياب.

– ولكنك تعلمين أنى فقير لا أملك أداء هذا المبلغ.

– دعك من هذه الدعاية، لديك ما يكفى لدفع ثمن الثياب وغير الثياب، أضعافاً مضاعفة.. انتظرنى قليلا.

وانصرفت مهرولة، وما هى إلا أن عادت حاملة صرة كبيرة، وبادرت تبسطها أمامه مرددة:

– ما أبهاها من ثياب تكسو أطفالك وتكسونى، سوف تدخل البهجة على قلبك حين نبدو بها أمامك!.

وامتدت أصابع الشيخ إلى النسيج تتحسسه، فأدرك على الفور أنه من الصنف الجيد الفاخر، وهبطت يده دون وعى منه، على جبته الرثة البالية، فأحس خشونتها، وكثرة الرقاع فيها، وألفى نفسه يزمجر زمجرة حبيسة، وهو منساق يقول:

– كيف تسمحين لنفسك بشراء شىء دون إذن منى ؟ من أكون فى نظرك ؟!

– سألتك مرة، فرفضت..

– لذلك تريدين أن تضعيني أمام الأمر الواقع. ترغبين في فرض إرادتك علي.. لن أدفع ثمن ما جئت به. وعليك برد ما أخذت.

– لن أرد شيئاً..

– إنك لمتوقحة يا امرأة.

– كف عن إهانتي. لم أعد أحتمل ما تفعل، حسبي من سوء تصرفك!.

– اخرسي يا امرأة..

– لن أخرس، بل سأقول ما يحلو لي.

– إلزمي أدبك يا امرأة، وعليك رد الثياب إلى التاجر في الحال.

– لن أرد شيئاً.

وعجلت إلى الصرة تحملها، وقصدت إلى الباب، فسارع خلفها، واجتذبها منها، فأمسكت بالصرة متشبثة تحاول إبقاءها معها ولبثا يتجاذبان. وما أن أدرك الشيخ أن الأمر سيفلت منه، حتى ترامى على صرة الثياب وأخذ يمزقها بيديه وهو يردد:

لن تكون لك. لن تأخذيها.

وطفق في هيجة يواصل تمزيق الثياب.

وتصايحت المرأة صاخبة تولول، وعلا على الأثر نحيبها. وتأهبت للانقضاض على زوجها واقتحم الحجرة نفر من الجيران يعالجون الفصل بينهما.

وما هي إلا أن ترك الرجل وحيداً أمام صرة الثياب وهو يهدر بقوله:

ليس لى أن أستبيح مال الله، فأنفقه على أسرتى.. لسنا فى حاجة إلى متاع الدنيا. لنا فى الآخرة عوض خير عوض.

ولم يلذ بسجادة الصلاة هذه المرة، بل غادر البيت على عجل، ينشد الهواء لرئتيه المختنقتين.

واحتواه الطريق، وهو مشغول بأفكاره تتناوح فى رأسه: ماذا كان عليه أن يفعل؟ أتراه يخضع لسلطان زوجته تؤثر فيه بمختلف المؤثرات العاطفية، تحاول أن ترده عن طريقه؟.. أتراه أسرف على نفسه وعلى زوجته وعلى أولاده حين أقام حجابا بينه وبين متع العيش؟ هل حرم الله الطيبات من الرزق؟ أليس المال من زينة الحياة التى بسطها الله لعباده؟.

وتابع الشيخ خطاه، وهو فى دوامة من هذه الأفكار، لا يكاد ينفذ من حيرة إلا إلى حيرة، كسفينة تتقاذف بها نكباء الرياح.

ولما جُن الليل، وأوى الشيخ إلى فراشه، راودته الأحلام تريه زوجته وأولاده فى مثل تلك الثياب التى أشبعها تمزيقاً، وما كان أجملهم وهم يرتدونها، وعلى وجوههم فرحة الحياة.

وفى بكرة غده بارح الدار إلى السوق. ورجع بعد قليل يحمل تحت أبطه صرة، حرص على أن يحجبها عن العيون.

ووضع الصرة أمام زوجته فى صمت، ثم انثنى يحل رباطها ويخرج محتوياتها فإذا بها ثياب فاخرة لها وللأطفال!.

ولحظت أن الشيخ قد اجتذب لفيفة من بين قطع الثياب، وما أسرع أن دسها تحت وسادته!.

ولم تمض أيام حتى بدا «أبو البركات» منتفشا فى جبة قشيبة يخب فيها خبا.

وأقبل عليه صديقه «السائل الجائع» يطالب بمنحته فصرفه الشيخ دون عطاء!.

وفى اليوم نفسه عندما حل موعد الغداء، جلس الشيخ ومعه زوجته وأولاده حول مائدة حفلت بأطايب الطعام، وكانوا يرتدون حللهم الجيدة، تعلو وجوههم بهجة الحياة.

منذ ذلك اليوم عاش الشيخ «أبو البركات» مع أسرته فى بحبوحة ورخاء، وأوصد باب بيته فى وجه كل سائل. وكان فى أحاديثه عن هؤلاء السائلين ينعتهم بالمتعطلين الكسالى، ومن فقدوا الرغبة فى السعى إلى الرزق الحلال، وارتضوا عيش الهوان والمذلة، يأكلون من جهد العالمين.

وإذا سئل الشيخ «أبو البركات» عما فعل بـ «عطية الله» التى أرصدها لذوى الحاجات، تململ فى جلسته، وزاغ ببصره يهمهم:

إنى فى سبيل إعداد مشروع عظيم، يهدف إلى خير المجتمع، وأن هذا الأمر يقتضينى دراسة مستفيضة ووقتا ممدوداً.. إن فى التأنى السلامة، وإن العجلة من الشيطان !!

[مجلة العربى، أكتوبر ١٩٥٩م]

• عباس محمود العقاد

أحسَنُ حِمَار

كان سائحاً فى بلدته.

لأنه منذ فارقها وهو فى الخامسة عشرة لم يكن يعود إليها إلا مرة فى كل خمس سنين، أو مرة كل عشر سنين، فيعيش فيها أياما كما يعيش السائح القادم من القارة الأوربية أو القارة الأمريكية: يوما فى النيل، ويوما فى الصحراء، ويوما عند أودية الجبال التى تهبط من السيول، ويوما عند المتحفات والآثار، إلى آخر هذه المنازِه والرحلات التى يعرفها كل من عرف البلدة الخالدة: أسوان!

وكان يجد فى هذه الرحلات من المتعة النفسية ما لا يجده السائح الغريب، لأنه يجمع فى نزهته بين ذكرياته الشخصية وذكريات التاريخ. وإنه لفى طريقه إلى الخزان يوما إذا به يلتفت إلى جانب المسلة الناقصة أو المسلة المهجورة فيراها...!

هى هى الفتاة الروسية الراقصة التى طالما نظر إليها فى فندق «الكتاراكت» وتمنى ان يراها فى جلسة هادئة ليتعارفا.

رآها هناك وليس معها أحد غير الترجمان ورسول الفندق الصغير وسائق الحمار الذى تركبه، ولا يدرى من تركيه لأنه حمار.

وكانت آية فى الجمال الفخم المتين، طويلة باسقة الطول، صحيحة الجسم، ينضح خداها بوهج الصحة، رشيقة لا تذكرك

رشاقتها بالحلية الدقيقة التى يخشى عليها الكسر السريع، أو بالتمثال الأنيق الذى تميل به نسمة، ولكنها الرشاقة التى تحترم وتهاب.

رآها هى بعينها فى أوسع مكان لفرص التعارف: فى الصحراء!

وإنه ليخدع نفسه إذا هو أوهمها أنه رأى الفتاة على سبيل المصادفة والاتفاق العجيب. كلا لم تكن مصادفة ولا اتفاقا عجيبا تلك المقابلة فى جانب المسلة المهجورة.

لأنه كان فى فندق «الكتاراكت» ليلة أمس على خلاف عادته فى السهر خارج المنزل ليزور بعض الأصحاب.

وكانت الفتاة الروسية تحيى ليلتها التى دعيت لأجلها من القاهرة، فرقصت وأبدعت، وراحت وهى قبلة الأنظار، بل قبلة الأنظار وأصحابها جميعا، لأنهم أحاطوا بها يهنئونها ويتقربون منها، وهى تبتسم وتتخلص إلى طريق الشرفة الصخرية المطلة على النيل.

ثم جاءها مدير الفندق ومعه ترجمان وقال لها: «هو ذا يا آنسة أبرع ترجمان فى البلدة يصحبك غدا فى زيارة الآثار الشرقية وهو بانتظار أمرك فى الصباح.» قالت ضاحكة: «والحمار؟؟»

قال ضاحكا أيضا: «نعم يا آنستى، ثقى بهذه المسألة أيضا. سيكون معك أحسن ترجمان فى البلدة، وأحسن حمار!»

فلما رآها فى اليوم التالى، لم تكن المقابلة محض مصادفة لا يعلم بها قبل لحظتها، ولكنها كانت كذلك لا تخلو من عنصر المصادفة السارة، لأن الصحراء واسعة، ومواقع الفرجة فيها متعددة، والوقت من الصباح إلى الضحى ليس بالوقت القصير، فمن الممكن أن

يخرج إلى هذا الجانب فى الصحراء عشرون ولا يلتقون، ومن الممكن أن يخرج اثنان ويلتقيان.

فهى إذن مقابلة عجيبة قد اجتمع فيها سرور المصادفة وسرور الانتصار وبقى شىء. شىء واحد. بقى كل شىء فى الحقيقة..

بقى التعارف المنشود الذى بغيره تصبح هذه المقابلة حسرة، ويزول كل ما فيها من السرور فكيف السبيل إليه؟.

هو متحفظ جداً فى هذه المواقف، وإن شئت فقل إنه خجول فى مقابلة الغرباء من الرجال أو النساء. وهى بطبيعة الحال فتاة مدللة تشعر بعزة الجمال، وتجرى على الآداب الأوربية فى هذه المناسبة، فرصة التعارف واسعة جداً على التحقيق.

ولكن المسافة بين المتعارفين أوسع من فرصة التعارف، أوسع من الصحراء، وإن الفرصة لتوشك أن تفلت آخر الأمر بغير أمل فى التجديد. إذا بأحسن حمار فى البلدة يمهد سبيل التعارف أحسم تمهيد.

لأنه جمح على غير العادة، بل جمح على حسب العادة التى اعتادها كل حمار أصيل، فإن هذه الحمير الأصيلة لا تحتمل النخس اليسير، وقد تستحثها إلى الجرى بأقصى سرعتها بهزة صغيرة فى الركاب، فتأتى بالسرعة التى يعجز عنها الحمار البليد، ولو انهالت على رأسه ألف عصا، واندس فى خاصرته ألف مهماز.

وفى تلك اللحظة كان السائق الغبى يقرب الحمار إلى الفتاة الروسية لتركبه، فنخسه على سبيل الاستعجال، فكانت هى النخسة

المباركة التى لم ينتظرها أحد من الواقفين، لأنه جمح وانطلق فى الصحراء، وانطلق وراءه الصبى ليعيده إلى الطاعة، فوقفت الفتاة مدهوشة، وهى تقول للترجمان كأنها تؤنب الفندق ومديره فى شخصه: هذا أحسن حمار فى البلدة؟

فارتبك الترجمان ولم يدر ما يقول، أو لعله قد ألهم أن يقول أفضل ما يقال فى تلك المناسبة، فأقسم لها أنه لأحسن حمار حقا «وإن لم تصدقى يا مدام فاسألى الأستاذ!».

قالت وقد أغرقت فى الضحك: وما شأن الأستاذ بهذا؟

فمضى الترجمان فى اعتذاره وهو يقول:

«نعم ياسيدتى. إنه من أهل البلدة، وإنه يعرف حميرها جميعا وطالما ركب هذا الحمار بعينه، وخرج به إلى هذا المكان، وإلى كل مكان فى أسوان. وعلى فكرة ياسيدتى! إن الأستاذ ليعرف كل قطع الآثار كما يعرف بيته، فاسأليه فيما كنت ياسيدتى تشكين فيه من كلامى عن هذه الآثار اسأليه... أليس كذلك يا أستاذ؟»

بارك الله فيك يا هذا الترجمان !

إنك حقا لأحسن ترجمان فى البلدة، وفى العالم !!.

* * *

اتصل التعارف بهذه المناسبة الصحراوية المضحكة، وعاد الحمار إلى الطاعة، مشكورا على عصيانه، وتبادلا الحمارين، ليقيم لها الدليل على اطمئنانه إلى الحمار المتهم بالجموح، وقضيا بقية الرحلة معا، وسمع منها الكثير وأسمعها الكثير.

علم منها من هى فى بضع كلمات: هى روسية أحبت رومانيا وتزوجت به، وعاشت معه سنتين فى بلده، ثم افترقا. وعرفت طريقها إلى الفن على أثر هذا الفراق، وعلمت منه من هو فى بضع كلمات: هو من أهل هذه البلدة ومن محبى القراءة، وهى وطنه الذى لا ينقطع عنه، إذا انقطع زمنا عن وطن من الأوطان.

وأدهشته وأدهشها.

أدهشته لأنها وهى الفتاة الراقصة اللاهية تعرف الأدب الروسى الحديث كأنها طالبة فى جامعة من الجامعات الكبرى تخصصت فيه.

وأدهشها لأنها لم تكن تتوقع وهى قادمة إلى أسوان أن تعرف إنسانا من أهلها تتحدث إليه عمن تحب من كبار الكتاب الروسيين، ولا سيما «دستوفسكى».. وأن يتم ذلك كله بفضل حمار وعلى غير انتظار!

لك الله يا أيها العزيز دستوفسكى!.. كم وددت لو قبلت لحيتك الكثة من عارضيك إلى ذقنك فى ذلك الصبح البهيج.

* * *

وعلم منها أنها ستسافر غداً لتقضى يومين فى الأقصر، ثم تعود إلى القاهرة. وعلمت منه أنه عائد إلى القاهرة بعد أسبوع.

وأخذت منه رقم التلفون وعنوان البيت، وقالت وهى تودعه عند باب الفندق: «انتظر منى تلفونا بعد بضعة أيام».

– إلى اللقاء فى القاهرة.

– فى القاهرة. فى القاهـرة.. إلى اللقـاء

* * *

ومضت أيام وهو لا يصدق أنها سوف تتكلم كما وعـدت، وإن كانت لهجتها الجادة ومحياها الحزين يوحيان إليه أنها ليست ممـن يلغو ويهزل بالمواعيد..

ثم دق جرس التلفون ذات صباح: «مـن المتكلـم؟» هى بعينهـا، هى الفتاة الروسية التى كان ينتظرها ولا يصدق أنـه يسمـع صوتهـا مرة أخرى. ولـم يعرفهـا بصوتهـا كمـا عرفهـا بلهجتهـا الإنجليزيـة الضعيفة التى كانت تخلطهـا بكلمـات فرنسيـة تبـدو عليهـا مسحـة اللغة الروسية من بعيـد.

– مَاذا فلانة ؟

– نعم فلانة.. كيـف أنت؟ متى عـدت إلى القاهـرة؟

– منذ يومين.. عود سعيـد يـاصديقتى!

قالت: شكرا. إذن لم أتأخر كثيـراً فى الكـلام.

قال: «بل كثيرا جداً.. يومـان يـا آنستى ليسا بـالشىء اليسيـر فى الانتظار».

قالت: « هاها.. بهذه السرعة ؟ إذن متى أراك ؟ »

قال: « غداً الساعة الخامسة. أتوافقك هذه الساعة ؟ ».

قالت: « كل الموافقة. إذن غداً الساعة الخامسة.. إلى اللقاء »

* * *

وفى وسع القارئ أن يتخيل لهفة الانتظـار فى الصبـاح.

فمن الصباح كان «الأستاذ» فى حدود الموعد المنظور عند الغروب، وكان من عادته أن ينام قليلا بعد الظهر، فلم ينم فى ذلك اليوم.

وحانت الساعة الثالثة وهو فى موقف الانتظار.

ومضى نصف ساعة، ومضت ساعة، ومضت عشر دقائق، ثم ربع ساعة بعد الرابعة وإذا بجرس الباب يدق!

ماذا؟ قبل الموعد بخمس وأربعين دقيقة؟ ما الذى أعجلها؟ ولماذا لم تبلغ بالتليفون؟؟ أهى رغبة منها فى المفاجأة؟ أهو تعديل فى مواعيدها وسهراتها الراقصة قد اضطرها إلى هذا التبكير؟

فى خطواته بين المكتب والباب دارت فى رأسه كل هذه الخواطر كأنها صورة واحدة يلمحها مرة واحدة فى كتاب، وكان مع ذلك سعيداً جداً بهذا الاختلاف فى المواعيد، على فرط كراهته لكل اختلاف فى المواعيد.

وفتح الباب وهو يرسم فى عينيه صورة الوجه الذى ستراه عيناه بعد لمحة خاطفة فأى وجه رأى؟

نعوذ بالله.. آخر وجه كان يفكر فيه أقل تفكير فى تلك اللحظة المباركة.

وجه رجل ثرثار سريع اللسان فى الكلام، بطىء الحركة فى الجلوس، يحسن أن يبدأ الكلام فى كل مكان، ولا يحسن أبدا أن ينتهى منه، ولو نبهته بكل وسيلة تنبيه فى قدرة الآدميين.

تسكت ولا ترد عليه وهو يتكلم فلا يبالى، وتقاطعه وتخرج من الحجرة وهو يتكلم فلا يبالى.

وتعرض عنه وتتشاغل بنقل هذا الكرسى أو رفع هذه المنضدة فلا يبالى، وتفعل ما تشاء فلا يبالى ما دمت لا تقبض بيدك على لسانه، ولا تمنعه أن يحركه بين شدقيه.

والمهم عنده أن ينفض ما فى صدره بغير توقف ولا مناسبة كيفما كان موضوع الكلام.

وليس مهما أن ترد عليه أو تعقب على ملاحظاته وأسئلته التى يوجهها ولا ينتظر جوابها، فهو على التحقيق لا يصغى إليها ولا يسمعها ولا يفكر فى معناها.

إنما يقول ويقول ويقول.

حتى يفرغ مما يقول وأنت لا تدرى متى يحين موعد الفراغ.

جزاك الله يا هذا.. وفى هذه اللحظة دون غيرها!

فكيف الخلاص، وكيف الاعتذار؟ ومتى ينتهى هذا الثرثار إذا سمح له بالابتداء.

وبدأ القصة الأبدية بعد دقيقة واحدة من تاريخ دخوله الميمون، وعند الله وحده علم الدقيقة التى ينتهى فيها الكلام.

وكان الأستاذ فى زياراته السابقة يطيل صبره عشر دقائق أو ربع ساعة إذا كان لديه متسع من وقت الفراغ، ثم يبدأ بعملية التشاغل فلا تنجح العملية قبل نصف ساعة على أهون تقدير.

ولكنه فى هذه الزيارة بدأ العملية فى الدقيقة الأولى.

خروج من الحجرة ورجوع، ومحادثات فى الهاتف ولا حديث، وقراءة فى هذه الصحيفة ثم إلقاء الصحيفة وسائر الصحف بضجر وتأفف لا تحفظ فيه، وإعراض ومقاطعة واقتضاب وسكوت. ولا فائدة.

ما العمل؟ ما الحيلة؟ كيف الخلاص من هذه البلوى؟

بعد ربع ساعة كأنها آناء الجحيم خطرت له خاطرة أخيرة، وهى الخروج من المنزل كله لإكراه هذا الثرثار على الخروج معه، ثم يعود فى الوقت المناسب.

فلبس على عجل، وعاد مهرولا يقول له وهو لا يملك أن ينتظر جوابه: «معذرة يا صاحبى إذا اضطررت إلى النزول.. إنى على موعد فى المدينة، ولا بد من الذهاب إليه الآن.. الآن بغير إبطاء».

فهم أن ينهض من مكانه وهو أقرب إلى الجلوس منه إلى النهوض، وقال متراخيا: «أضرورى جدا هذه المواعيد فى هذه الساعة؟».

– نعم ضرورى جدا.. ضرورى جدا. لا مؤاخذة! وسبقه إلى الباب فلم ير الثرثار بدا من اللحاق به، وهبط السلالم متباطئا كأن له أملا فى إقناع الأستاذ بالعودة.. ولا ضرورة لهذه المواعيد فى هذه الساعة!

ولم يتقدما فى الطريق خطوات حتى لمح الفتاة مقبلة من بعيد، ورأته فاستغربت، ووقفت فى مكانها مبهورة..

يا للطامة الكبرى!

لم يفته أن يحزر ما جال بخاطرها فى تلك اللحظة. جال بخاطرها ولا شك أنه استخف بها ولم يحفل بميعادها، ولم يكلف نفسه عناء الانتظار للقائها، وهى التى يتهافت على لقائها عشرات، وينتظرون الأيام.

فمن حقها أن تدبر راجعة ولا تسأل.

ولحظة واحدة وقد كانت تهم أن ترجع، ويالها من لحظة قد تنتهى بها حياة ذلك الثرثار البغيض فلم يتردد الأستاذ أن ترك ذلك الثرثار فجأة بغير استئذان وبغير تمهيد.

وصاح به وهو يعدو راجعا إلى البيت: «نسيت المفتاح! نسيت المفتاح! نهارك سعيد».

قال: «هل انتظر؟».

فلا يذكر الأستاذ أجابه أم لم يجبه، وقفز على السلالم حتى فتح الباب ووقف ونبضه يكاد أن يقف.. بالانتظار خمس دقائق مضت وكانت ضحكات الفتاة الروسية الرنانة المجلجلة تسمع فى الطريق.

لأنها عرفت الحكاية بتفصيلها وتصورت الموقف بجميع محرجاته ومفاجآته، واسترسلت فى الضحك بغير انقطاع.

قال لها، وهى أول مرة يجترىء فيها عليها: «على رسلك يا بلهاء، إن الشارع كله يسمع هذه الضحكات».

وتحرك فعلا إلى النافذة يقول لها مازحا: «انظرى، إن الشارع يمتلئ بالسامعين والمتفرجين!».

فماذا رأى؟

من السهل على القارئ أن يحزر الآن ماذا رأى الأستاذ، وماذا رأت الفتاة، وهما ينظران إلى الشارع الذى ليس فيه أحد إلا صاحبنا الثرثار يخطو أدراجه إلى المنزل ليستعجل الأستاذ فى النزول.

فما هو إلا أن وقع نظر الأستاذ على وجهه حتى أخذ هو يضحك كما كانت تضحك الفتاة، ولكنه ضحك فيه كثير من الحنق والدهشة والمجازفة. المجازفة بكل ما يقوله ذلك الثرثار وكل ما يلفظ به، وكل ما يرويه للعارفين وغير العارفين.

قال لها: «يا فلانة! لا أرى خيرا فى الانتقام من هذا الثرثار ولا فى تبكيته والسخرية منه إلا فى أن تفتحى أنت له الباب فى هذه المرة».

فتلقفت الاقتراح مسرورة بدورها «الفنى» فيه، وكانت أسرع من صاحبنا إلى جرس الباب، ففتحته، ولبثت هنيهة تصغى إلى ما يقول، وتعجب إذا ابتدأ كيف يكون الانتهاء!

وقد كان فى وسع صاحبنا أن يفهم مرة واحدة فينقلب إلى الطريق قبل أن يسأل، ولكنه كان أمينا لطبعه غاية الأمانة، فسأل هذه الخادمة المسكينة الشاخصة بين يديه: «هل الأستاذ موجود؟».

قالت: «الأستاذ نقل من هذا المنزل!»

قال متعجبا : «يا عجبا.. منذ متى؟ إننى كنت هنا من خمس دقائق».

قالت : « وهو قد نقل من خمس دقائق ليس إلا ».

وأغلقت الباب، وعادت تستأنف ضحكها وهى تقول : «إنه لا يخجل. وهو يغيظ ».

قال الأستاذ : « بل خجل هذه المرة والله أعلم ».

فنظرت إليه مقهقهة بعينيها الواسعتين، وصاحت به: «أهذا هو الخجل ؟ فماذا كان صانعا لو لم يتفضل بالخجل ؟».

قال : «يسألك أن تصحبه إلى منزل الأستاذ الجديد !!».

• يحيى حقى

كُنَّا ثلاثة أيتام ...

ها هو قد تزوج، وها هو يقبّل زوجته، فى كل قبلة يدعو الله أن يرزقه ولداً صالحاً تتجدد من بذرته شجرة أسرة، ليست – وهنا العجب – بذات جاه أو ثراء. وجاء يومه المرجوّ وسلمته القابلة لفة لها لين العجين ورائحته. وقالت:

– بنت. بنت. هذه نعمة من الله...

فسماها نعمات.

لم يفهم أن أغلب الرجاء طمع، وأن بعض الدعاء جحود وتدخل فى الملكوت.. وعاد إلى سؤال ربه فى صلاته، وأطال تضرعه فى ركوعه وسجوده.

وجاء يومه المرتقب، بين الخشية والأمل، وسلمته القابلة لفة تتلوى كالحشرة وقالت:

– بنت. بنت. هذه عطية من الله..

فسمى بنته الثانية عطيات.

«نعمات» و «عطيات»، لم تكن أسماء بمثل ما هى تلميح إلى الرضا عن اضطرار، وأن انصياع اليوم مرتبط بالرجاء فى تحقيق الوعد غداً. حرّك الأب الأبتر كل ما فى قلبه من شُعل الإيمان، وتوجه إلى الله بكل ما قدر عليه من خشوع، وكرّر ابتهاله وتذلله.

فاستجيب في يوم دعاوُه. واستقر فى بطن الأم سرّ الصبى الموعود. حينئذ مات أبى، وهو لا يعلم أنه فاز بأمنيته. قد أوفى جهده على الغاية، وتحقيق الغرض من وجوده، وكان ثمن انطلاق السهم تمزق الوتر المشدود، وإن سعادة الأفراد لا وزن لها فى تسلسل الأجيال.

وهكذا ولدتُ يتيماً. ومع ذلك لست بغريب عن أبى. كل مرة أدخل فيها غرفة الاستقبال وتقع عينى على صورته الفوتوغرافية الشاحبة معلقة على الجدار، أراه يبتسم لى ويكاد ينادينى..

* * *

ولم أكد أوظف بالحكومة وأقبض أول مرتب حتى ماتت أمى. كأنها لم تقو على فراقنا إلا بعد أن اطمأنت علىّ. سرت وحيداً منفرداً خلف النعش، أمّا شقيقتاى، نعمات وعطيات، فقد بقيتا تنوحان وتلطمان الخدود وهما متدليتان من النوافذ. رأيت أكثر المشيعين يتطلعون إلى وجوههما ونهودهما من أطراف العيون. فى تلك اللحظة استفقت. وأدركت أننى أصبحت رب أسرة. أية أسرة! فتاتان جميلتان، نعم جميلتان، وإن لم تصح شهادتى، ليس لهما غيرى. قوّمت من ظهرى المنحنى، وسرت رافع الرأس، وتقبلت – على القبر – دون ثورة أو غضب وكره، عبارات التشجيع والعزاء والوصية بالصبر والرجولة.

ثم مرت الأيام ودرج النسيان بأذياله على الماضى وأهله، وإذا بى فى صحبة شقيقتى من أهنأ الناس. ثلاثتنا فى مقتبل الشباب ورونقه، فى مرحه ونزقه، فى جريه وقفزه، فى عطره ونضرته، تساو طليق، لا تضغطه شيخوخة مولية، ولا تأخذ بخناقة طفولة

هاجمة. من حسن الحظ أننا لم نكن فى سعة تكفى للأنفاق على ثلاثتنا، فقدّم الصبى وحجزت البنتان فى الدار، وكذلك نجاهما الله من الجامعة بآدابها وفلسفتها، وسلم لهما عقل غير ملتو يضل فى الفضاء، وطبع غير متكلّف، كل منهما نَمَتْ أنثى، جسما وعقلاً. لا يعكر حديثنا نقاش أو جدال. صحبة لم يترك لى صفاؤها مطمعا.. فمن مثلى مِن الرجال، تحوطه فتاتان – لا فتاة واحدة – بكل ما وسعهما من عناية وإخلاص؟ لا تقلّ ملابسى هنداماً ولا أكلى جودة عن زملائى المتزوجين، دون أن أدفع ثمن هذه النعمة بالكدر والهم والضيق الذى أتبينه على وجوههم كل صباح فى المكتب.

كانت نفسى قانعة وجسمى سعيداً. نعيش متلاصقين كصغار القطط وهن عُمى. حلقتنا كاملة: هذه نعمات لبسها دور الأم الحنون فلبسته. هى أكثرنا رزانة واتزانا. فى يدها مصروف البيت وتدبير خزينه. وبقيت عطيات «دلوعتنا القنونة». التى من أجليا نحرص – فى خفية منها – على تذكر أقل رغبة لها ترد عرضاً فى سياق حديثها وننتظر إلى أن تحين الفرصة، فنجد أكبر اللذة فى تعب البحث عن طلبتها، وفى التحايل على كتمان أمرها إلى أن نعثر عليها فى تمام مناسبتها، فنضحك معها لدهشتها، ونشاركها الفرح بهديتنا.. فى بعض الأحيان أضع رأسى على ركبة عطيات فتعبث بأصابعها الطويلة فى شعرى، كأم القرد تفلى رأسه وتناغيه.. بجانبنا نعمات تغمرنا بابتساماتها الحلوة وهى تخيط لى بعض ملابسى الداخلية. لو تُركنا لأنفسنا لعشنا سعداء. فى هناء يكمل

بعضنا بعضاً. ولكن كيف يتأتى ذلك وفى الناس إخلاص ومحبة ورغبة فى مساعدة الغير وتطوّع لعمل الخير والتحريض عليه!! بدأ أقاربى ومعارفى يهمسون لى: «متى تزوج أختيك؟ لقد آن الأوان!» ثم فى مرة أخرى: «كيف تأمل أن تعثر لهما على زوج صالح وأنت قابع فى داركم القديمة المختبئة بدرب الحجر من وراء حارة التمساح لا تزور ولا تزار.. أم تراك معتمداً على الخاطبة ومقالبها»؟

أخذت وأنا خائف أتطلع إلى عيون شقيقتى على غفلة منهما وأسال نفسى:

– هل هذه عيون ظامئة جائعة؟

خيل إلىّ فى بعض الأحيان أن نظرتهما الناطقة تخرس فجأة وتشرد فى الفضاء وأن تحت وشى هذه النظرات الجميلة يختبئ قزم من الحزن والحرمان له عين البوم وأسنان الفأر وعناد الثور ونزق الجدى.. أيها الشيطان الأسود! مهما تراوغ فلن تخفى علىّ بعد الآن!

سهرت الليل أفكر. وأنار الفجر ظلام الليل وبصيرتى. فاستبانت لى الحقيقة على ضوء النهار، جسداً نيئا قبيحاً قوى العضلات. لا فائدة من مغالطة الطبيعة. ولابد من التضحية وتحمل الوحدة، والصبر على مرارة التسليم والانسحاب.. رسمت لنفسى برنامجاً وصممت على تنفيذه دون استشارة أحد حتى شقيقتىّ. لن ألجأ إلى الأقارب، فهم – كما يقول المثل – عقارب، و إلى الخاطبة،فهى سمسار بين عجزة، أليست المشكلة أن الزوج الصالح لم يأت

إلينا؟ إذاً قلنبحث عنه، ولنذهب إليه، وفى موطنه، ولو أدى الأمر إلى اصطياده احتيالا. سأعد الشبكة الماكرة بنفسي، وألقيها فى طريقه بيدى. هذا صيد حلال. وأى شيء أعظم ثواباً عند الله من تدبير زوج صالح لأعز الناس إلىّ؟

بعت بعض الحلىّ، وسحبت كل نقودى المودعة بصندوق التوفير، وأجرت شقة كالحُقّ - ولكنها غالية علىّ! - فى جاردن ستى، واشتريت لها بعض الأثاث من معارض سليمان باشا. عن إذنك يادرب الحجر! لقد ألغى الرق فأعتقنا لوجه الله! وأنت أيتها الصناديق والشكمجيات، وأنت أيتها الشمعدانات والمرايا المذهبة، وأنت أيتها الكنبات والمقاعد المطعمة بالصدف، منك إلى صالة المزاد، خطوة مباركة، وداعا وداعاً. فنحن فى دار كل مقام فيها قصير، وكل صحبة إلى فراق. أتنتظرين أن أرثيك بدمعة؟ من تلفت إلى الماضى لم تكفه دموع الخنساء! تسألينا، البكاء؟ بل اسألينا النسيان، والنسيان السريع...

ولما دخلت العمارة، وقام لنا بواب بربرى له وقار القديسين وهيبة الأباطرة ولما دلفت إلى المصعد بعد سلالم قليلة فرشت بالبساط وزينت بأصص الزهر، ولما سمعت الوكيل يقول: «هنا الأنتريه، وهنا الأوفيس» اطمأن قلبى وقلت: قد أحكمت الشبكة، فلننتظر صابرين، وعلى الله توكلنا...

* * *

عشنا غرباء زمناً ثم بدأنا نألف الحىّ وأصواته، ووجوه سكانه وعاداتهم. خرجت من الشقة ذات صباح فإذا بى أواجه صاحب الشقة المقابلة خارجاً بدوره. واحتوانا المصعد سويا... لا أدرى

لماذا اطمأن قلبى إليه. ابتسامة منى، وكنت أنا البادئ، وابتسامة منه، أوصلت الحديث بيننا، هو موظف كبير على المعاش. دعوت الله أن يكون له ابن صالح، أو ابن أخ، أو ابن أخت، أو صديق، أو معرفة، وقلت: لعلهم إذا رأوا أخلاقنا وشرفنا، وخبروا أحوالنا واستقامتنا، تقدموا بالخطبة. دعوته لزيارتنا فإذا به – لشدة دهشتى – يقبل بسهولة. جاء وزوجته سيدة نَصَف، حنّت على أختى حنو الأم الرءوم، دعتنا لشرب الشاى عندهم وقالت وهى تنصرف:

– عسى أن تكون ابنتى سنية قد عادت من الإسكندرية فأقدمها إليكم.

حاولت ألا يظهر غمى على وجهى . كنت أنتظر أسماء رجال لا نساء. وقلت فى نفسى: «فلتكن زيارتنا الأولى هى الأخيرة. فلم أجىء هنا من أجل التزاور مع عائلة ليس لديها رجال».

وذهبت فى الموعد المضروب، وأنا متحرج ضيق الصدر... وجاءت سنية! أيها الناس! لا تبخلوا على بكرمكم وطيبتكم. أشفقوا على شاب قليل الخبرة والتجربة مثلى، ولا تبتسموا إذا وصفت لكم اضطرابى أمامها وحيرتى.

ماذا أقول ؟ كان اللقاء هو بدء تاريخ حياتى، ما قبله جاهلية معتمة، وما بعده نور وإشراق. أحدثها وأسارقها النظر، وإلا كيف تقوى عيناى العاشيتان على مواجهة هذا الجمال كله؟ كنت بجانبها كالجرو المبتل يوضع فى الشمس... ما كنت أدرك قبل رؤيتها أن اللباس من الفنون الجميلة.. كأن جسدها تمنى فكان ثوبها تحقيق أمنيته. وكأن الثوب نفسه اشتهى، فكان هذا الجسد خليلته التى وجد لديها السكينة وطعم

الحياة.. ثوبٌ كم أبدى وكم أخفى! استدار عليها يكاد يأسرها، فإذا أسيرته طليقة تتحكم فيه. هابط إلى أن يقف حيث يتأرجح الذيل بين الكتمان والإفصاح، وحذاء تغنيك أناقته عن التساؤل عما يداريه. كل شعرة فى رأسها تسابقت إليها، واصطفت راضية بجانب أختها أو التفت معها أو من تحتها، عالمة أنها تشارك فى زينة، سعيدة ناعمة بالدور الذى رسم لها، لو تهشم هذا الجسد وتفتت ألف كسرة لما خدش جماله. وضحكت فأسمعتنى ضحكة تختصر العمر كله، فيها سذاجة الطفولة، ومرح الصبا، ومرارة التجربة.. فم متهم، وعيون بريئة.. لم تهتم بى كثيراً. وما وجهت لى غير نظرة أو نظرتين.

ومع ذلك عندما انصرفت – وأنا أجرّ رجلىّ جرًّا – كنت شاعراً بتعب من جس دقيق تناول روحى وجسدى بأصابع توهم أنها تمسح وتربت وهى تندس وتنقب.. شعرت أننى عُرِّيت، وقُلِّبت ظهراً لبطن وفحصت، واختبرت، قيست قامتى، وسُبرت، وُزنت وكُيِّلت، عُركت وعّضضت بالأسنان ورننت على الأرض.. حُركت أوتار روحى واستُمع لموسيقاها.. ثم استخرج من مخبئه كتابى الدفين، فووجهت فى النور صفحاته وقرئت سطوره كلمة كلمة. كل هذا والعيون مترددة والشفاة مستفهمة. ثم أصدرت حكما لن يكون له نقض أو إبرام إلى آخر حياتها وحياتى.

أيها الناس! أشفقوا علىّ مرة أخرى ولا تبتسموا من جديد إذا قلت لكم إننى تعبت حقًا، ولكنى مع ذلك وجدت التعب لذة كبرى... لم أخش حكما. بل سّرنى أنها تناولتنى بالفحص. كنت كالمريض لا يسعده أمل الشفاء بقدر ما يسعده تقلبه بين يدى

طبيب مدل ممتنع وراء أجر باهظ.. انصرفت وأنا لا أزال ألوك في فمي لذة مذاقها.. ولما دخلت شقتنا جانت مني التفاتة إلى أختي فقلت في نفسي – والأسى يملؤها – ما ينقصهما والله إلاّ أن تطول الضفيرة، ويغطى الجورب السميك الركبة، لتبدوا شابتين من الريف.. من غد إن شاء الله سأعنى بتوجيههما إلى الاعتناء بهندامهما وزينتهما وإلا فشل برنامجي المرسوم محققاً.

ولكني في غد نسيتُ كلَّ شيء إلا سنية! حاولت أن أجد مسوغا لتكرار الزيارة فلم أوفق. بل وجدت باب الشقة موصداً في وجهي. ألأنهم رأوا لعابي يسيل وأنا أحدق في ابنتهم خلسة فرثوا لحالي وأرادوا تجنيبي التعلق بسراب؟ لما شعرت أنهم يتعمدون صدّي زاد هياجي، فإذا بي – وأنا المعروف باتزاني وأدبي – أفقد كل سيطرة على نفسي، ورأيتني لشدة دهشتي آتي بحركات وتصرفات لا تصدر إلا عن أطفال أو مجانين. حاولت أن أستعين برشوة الخدم فضحكوا مني. تصديت لها في الطريق. ألقيت أمامها رسائلي. تتبعتها كظلها. كل هذا وهي لا تتكرم عليّ بكلمة أو بابتسامة. أقسم لكم أنني لا أدري كم من الزمن مرّ عليّ وأنا في هذه الحالة، قد يكون أسبوعاً، وقد يكون شهراً. وأخيراً ضاق ذرعي وأحسست أن العذاب لو طال لقصفني الألم ودمّر قلبي وقضى عليّ. هجمت عليها ذات يوم وهي سائرة وأمسكتها من ذراعها، لمسة فيها رعشة الغيظ والأمل، وقلت لها صارخاً:

ماذا تظنين؟ أجرى وراءك طول العمر؟ أليس لي عمل في هذه الدنيا إلا أن أسير في ركاب حضرتك؟ العفو! الآن أريد كلمة واحدة نعم أو لا.

فنظرت إليّ وابتسمت.....

زرت معها معالم القاهرة فكأننى سائح يجوس خلال مدينة مجهولة ساحرة لم يكن يعرفها من قبل.. كنت أتلو كالببغاء قصيدة النيل فشرحتها لى سنية بيتاً بيتاً، وأفهمتنى جمال معانيها ولفتاتها. فى حديقة الحيوان، التى طالما زرتها فلم أر شيئاً، كلمتنى لأول مرة، من وراء أعمدة السجن المؤبدة، عيون صافية جميلة حزينة، وشكت إليّ وحدتها وآلامها. الفضل لسنية فى الراحة الكبرى التى شملت نفسى عندما آخيتهم جميعاً.. من زحف منهم وطار ودب على أربع..

قالت لى ذات يوم:

– ما العمل إذاً؟ إن بابا يرفض بتاتاً لأنك موظف صغير، ومرتبك قليل، ولا يدرى كيف تقوى بهذا المرتب على المعيشة فى جاردن سيتى.. ولما رأتنى مطرق الرأس غمًّا، أضافت تقول:

– ولكن ماما فى صفّى..

وكان القرار أن أنتقل إلى مسكنهم، على أن تذهب نعمات وعطيات للإقامة مع إحدى خالاتى...

كلهم قالوا لى إننى ساعة «كَتْب الكتاب» كنت شارد اللب. ثم إذا بى فجأة أبتسم ابتسامة خفيفة. ظنوها من حرج سؤال المأذون الصريح. لا يعلمون أننى – ولا أدرى كيف – انتبهت إذا ذاك فحسب، إلى قسوة الفكاهة، وهى تنطبق على، فى المثل القائل:

«راح يصطاد.. اصطادوه..»

[مجلة الثقافة سبتمبر ١٩٤٢]

• عادل كامل المحامى

ضباب ورماد

قصة رمزية

لم يكن فى الليل نجم واحد وطلع النهار بغير شمس.

هكذا احتجبت شخوص مسرح الطبيعة وراءالستار وقيل للبشر المتفرج أن انزووا فى جحوركم فليس الليلة تمثيل ولن يكون عرض فى الصباح. ويسألون عن الخبر فتهمس أعلام الطبيعة الصغرى من شجر وأنهار:

– لقد اعتكفت أمهاتنا الكبرى فى أبراجها العلوية.

ويردد البشر الواجف:

– ما الخبر؟

فتبتسم الورود الثرثارة ثم تميل على أعوادها متمتمة:

– إنهّن يتدارسنَ أمراً خطيراً.

شاعت فى وجه البسيطة نذر الأمر الخطير. ونبض الجو بالهمس والصوت المكتوم. فتملّك الآدميين فزع غامض انطوى عليه لا شعورهم ثم تسرب إلى أفئدتهم فى صورة إحساس ملهوف: إحساس ترقب شىء يخشونه ولا يدرونه ولكنهم يريدونه.

لازمهم هذا الشعور وهم يتمون زينتهم أمام المرايا. وظل فى حاشية وعيهم وهم يشربون قهوتهم الساخنة. ثم رافقهم وهم

يسعون وراء ما يوصلهم إلى محال أعمالهم. وكانوا لا يزالون يذكرونه وهم يقرأون صحفهم. ثم رجعوا به إذ آووا إلى بيوتهم يأكلون ويتماوتون. أما هو فلم يغادر حجرته مع قوافل النمل الآدمى بل بقى قابعاً إلى جوار النافذة يرقب طلائع هذا الصباح الرمادى. وكان فى يده كوب من الشاى أخذ يرتشف منه ثم يطلق أنفاسه الساخنة على زجاج النافذة فيكتسى أديمه بضباب فضى. وكأنما خالجته فكرة فأطرق مبتسماً: إن نهار هذا اليوم يراه الخلق من خلال زجاج ناضح بالضباب ولكنه ما يلبث أن ينقشع فيبين. أما هو فإن نافذة حياته ليس فيها مطل واحد صافى الأديم.

الضباب... هذه حياته وهذا عنصره. وإن كان لقدره لون ما فهو لون الرماد. الرماد يوم ولد والرماد إلى أن يموت. إن الناس يتألقون جمراً ثم يستحيلون تراباً، أم هو فيعيش فى الموت حيث ولد. إنه دودة آدمية لا يحوى جسمها دماً بل قيحاً.

قيحاً... يا للبشاعة! لشد ما تمنى لو حوت عروقة دماً حاراً قانياً! لشد ما اشتهى دفء الحياة يسرى فى أوصاله فيحرك مستنقع نفسه الراكد! لشد ما زعق وصاح فى خلوته.

– إننى مضطهد مظلوم. لِمَ حقت على لعنة الضباب والرماد بينما ينعم غيرى بسورة الجمر والدم...

الضباب والرماد...

أما من فرار من ربقة هذين الشيطانين الغليظين! إنه لا يطلب من جلاديه سوى ساعة واحدة يعيشها كبقية الخلق، يعيشها بقلبه وأمعائه ودمه. يعيشها كما يعيش النبت إذ يمتص حياته من الأرض

أمه. يعيشها بجذور كيانه الممتدة فى جوف الكون. وبعد ذلك لن يضجره إن مات فى الرماد أو عاش فيه.

لحظة من جمر ودم...

* * *

تصرمت ساعات قصيرة من النهار وهو لا يزال على هجوعه يحلم ويرقب. وكان الصباح يزداد دكنة حتى خشى البشر ان يكون الشمس قد أصابها ضرٌ فتك بها، إذ كيف ترضى بهذه العتمة تغزو صباحها وهى شمس! وكيف تهادن البرودة فتتركها تجمد الأطراف وتميت النبت وهى شمس! وكيف تحتمل رؤية طرقات المدينة مقفرة موحشة كمسارب المقابر وهى شمس !

ليس هذا صبحهم ولا تلك شمسهم. وأحس الناس أن دنيا هذا اليوم غريبة عليهم أجنبية عن إدراكهم حتى صور لهم أنهم يعيشون فى كوكب آخر غير الأرض، المريخ أو زحل، فكان أن خافوا واكتأبوا.

أما هو فقد قهقه فى سريرته إذ أدرك لتوه أن اليوم يومه والصباح صباحه. إنها فرصة العمر قد أتيحت له ليحيا فى عنصره فها هو ذا الضباب قد تكاثف لينشق منه ابن الضباب، وها هى ذى الدنيا الغريبة على البشر قد جاءت تبسط صدرها لربيب الشياطين. لعل الرجاء قد أثمر فاستجاب جلادوه الدعاء.

نزل «إبليس الصغير» إلى الطريق يضرب فى جنباته الخاوية وقلبه يحدثه بأن العالم اليوم ملكه وحده. وكأنه هو زعيم سياسى غداة

استلائه على مقاليد الحكم فأصبح وحده الآمر الناهى بين رجاله وأعوانه. وفرح بهذا الخاطر وانبسط فراح يحدث نفسه حديثا عجباً.

– هكذا أنا. إننى أشرف الناس جميعاً لأننى أقذعهم سخرية. أنا أكثرهم احتراماً لأنى صعلوك. صعلوك بين الملوك. ملوك صعاليك وصعاليك ملوك. ليس لى دم أزرق.. ها... ولا أحمر. إن دمى أبيض. إنه القيح الملقح ضد كل شعور وإحساس. إنه دم الآلهة المنزهين عن الغضب والفرح والحب والحزن. إن كل ما ليس لآدمى إله.. أو شيطان. فليكن دمى من حريق الأبالسة فلست بمبتئس مادمت لا أمت إلى الشر بصلة.

لشد ما أمقت آدم وأبناء آدم وحواء وبناتها. ولم تكن سعادتى لتكمل لولا أنهم يمقتوننى كما أمقتهم. ولكن من منا بادأ الآخر بالكره؟ لو أنهم ابتدرونى ببغضهم فأنا شخص ممقوت يصدّ السهام بأخرى من نوعها. بينما لا أستحق ثواباً على كرهى لهم إن لم أكن أمقتهم فى حين أننى محبوب. محبوب ممن... منهم؟ من نفسى؟ من الآلهة أم من الشياطين؟ هذا لا يهم. يكفى أن أكون شخصية محبوبة فى ذاتها. ولكن هذا هراء. فأنا شخصية بغيضة لا جدال فى ذلك وعلىّ أن أبنى سعادتى على هذا الأساس. وإلا فأنا ملعون من نفسى بقدر لعنتى منهم.

بودلير.. هذا الشيطان الملعون المحبوب. ولكن ما لى وله. اننى لا أنهج نهج أحد فى الوجود وإلا أصبحت بشراً كبعض أحزاب البشر.

فاوست... إنه معتوه. لقد رغب عامداً فى الشيطنة وما هو بشيطان. دفع الثمن من دمه وأثبت المعاملة فى صك كأنما يعقد صفقة فى سوق مع أن الشيطنة هبة وموهبة. ولذا فما كاد الأجل أن ينصرم ويشرف المسكين على أبواب الأبد حتى نراه يعول وينتحب كالنساء. وكلام كثير عن تأنيب الضمير والتوبة والندم. ياللعار... كان عليه أن يفخر بنهايته كأى قديس استشهد فى سبيل الله. فالحق أنه يجب أن يكون للأبالسة قد يسين كما للأنبياء.

عيب البشر أنهم لا يثبتون على حال فتأتيهم الرهبة فى أعقاب الرغبة ويجرى الندم فى ذيول سعادتهم. أين هو الرجل الثابت الصامد كهرم خوفو؟ ولكنهم أمواج رقيقة مذعورة يقطعها عود من العشب. هؤلاء البشر...

هذا وغيره وكثير سواه.

ما كان أتعسنى منذ لحظة حين تمنيت ساعة من جمر ودم! الرجل الصمل هو العنيد كالحمار، الغبى كالبغل. هو الذى لا يتمنى غير نفسه. لهذا قدس جدودى الثور وعبدوه.

هذا وغيره وكثير سواه.

ولكن هل أنا حقًا كما أصوّر نفسى أم أكون فى الواقع شخصية أخرى مخالفة ؟

هل من أجالسهم وأحادثهم يدركون فى هذه الصورة أم تراهم يقولون «ياله من فتى طيب خجول!»... وحق نفسى لأقطعن ألسنتهم ولأدقن رؤوسهم بالأرض.

ومع ذلك أفإن كنت غير نفسى وقابلت نفسى حول مائدة شراب فهل كنت أقول عنها مثل ما يقولون؟ هل يفرض على الناس شخصية اجتماعية أواجههم بها وينكرون على أن أظهر بينهم بشخصيتى الفردية دكتور جيكل ومستر هايد.

لا كان الناس ولا كانت آراؤهم التعسة، إنهم إن قالوا عنى هذا القول فإنما يقولونه ليستروا خوفهم منى ورهبتهم إياى وهذا جهد ضائع. فما أنا معنىّ بخوفهم أو مشتاق لرضائهم أو شاعر بوجودهم. إننى وحدى من صنع نفسى.

ما لتلك الخواطر تزحم رأسى فتضنى نفسى فى يوم عرسى

أيكون هذا شعراً؟ ما علينا. لأمض فى بطن دنياى أحادثها فليس اليوم وقت المناجاة.

أو صلته هذه التأملات إلى خارج المدينة فما إن أفاق منها حتى وجد نفسه وسط حقول مغشى عليها من فرط البرد وقد أقفرت شعابها من كل دابٍ وخلت أجواؤها من كل طائر. ألقى ببصره على تلك المروج المذعورة فبدت له فى إطار الصباح الرمادى كبعض أحلام النائم التى تنتابه فى مطلع الفجر. لم يكن فى الصورة المنشورة أمامه مشهد واحد حقيقى.

واستهوته هذه الفتنة الجديدة فمضى وسط الحقول متخيلا أنه صاحب هذا الفضاء بأسره. وراقته فكرة أن يكون غنيًّا غنى طائلا فابتسم ثم قهقه فى صوت مكتوم. أن يكون صاحب ملايين... إنه يستطيع حينئذ ان يكره البشر بكل ما أوتى من قوى وأن يظهر

هذه الكراهية بشتى ما يحلو له من وسائل. يستطيع مثلا أن يشترى قانون الحكام وأن يبتاع ذمم أولى الأمر. فإذا ما أمن جانب الدولة وانزاح عن عاتقه خطر السجن سهل عليه بعدئذ أن ينال الناس فى أعزما يقدسونه وأن يسخر علناً بكل ما يضعونه موضع الاحترام وأن يسفه كل رأى يربط به القوم أمانيهم. له حينئذ أن يحقر ويلطخ كل معانيهم كالوطن. والحرية. والمساواة. والعدالة بل والدين نفسه دون ان يخشى عقاباً أو يأبه بآراء الرعاع.

ويصبح فى مقدوره أن يتفنن فى هذه الأساليب وأن يجعل منها نظماً قائمة على مؤسسات ثابتة تكون عنوان مسبة دائمة فى جبين الناس وهم لا يدرون. فهو يستطيع عن طريق ملايينه أن يجعل من سائس اصطبلاته زعيم حزب سياسى لا يلبث ان يشترى له الأعوان، ويجمع من حوله الأنصار، ثم يحلى أصابعه بالجواهر ويرشق فى سترته الأزهار، ويطلقه من بعد ذلك يخطب فى قطعان الناس، فما إن يهل عليهم ببلاهته المجسدة وغبائه البشع حتى يضجون بالهتاف والتصفيق وينتهون بحمله على الأعناق. وتصبح لغة الاصطبلات التى يحدثهم بها لغة السياسة المثلى وعنوان البراعة ورمز البلاغة.

فإذا استطاع بعد ذلك أن يوصله إلى كرسى الحكم... ما أعظمها سخرية! وكم تكون الطعنة نجلاء والمسبة فاحشة حين يخلعه بعد ذلك من منصبه ويعيده إلى وظيفته الأولى فيعلم قطيع الخراف الآدمية أن حاكمهم الذى أشادوا بعبقريته لم يكن سوى سائس فى اصطبل.

ألهته هذه السوانح الشيطانية حيناً من الزمن فما إن أفاق منها حتى وجد نفسه ينتفض من فرط البرد. فقد كانت برودة الجو تنفذ فى الجسم كإبر من جليد والريح تهب مثلوجة كأنها أنفاس الأبالسة. وكان صاحبنا قد غادر حجرته برأس عار وعلى منكبيه درداء خفيف ما لبث ان تآمر مع الجو فاستضاف برودته.

نظر إلى يديه المقرورتين برهة وهو يبتسم. كانتا ناصعتى البياض لا يشوبهما سوى صفرة خفيفة فى سبابة اليد اليمنى من أثر التبغ. وراقه مالا حظه من نعومتهما ورقى أديمهما حتى كأنهما أكف العذارى الخود لا يفارقن مخادعهن ولا تلمس أصابعهن غير المخمل والحرير وقد بلغ من فرط رقتهما أن كادت البشرة تشف عما تحتهما من عظام وشرايين. لشد ما أعجبه هذا! أن يده ليست يد رجل...

غير أن البرد القاسى عاد يعكر عليه صفو راحته. فعمد إلى حائط متهدم ليحتمى فى جوفه ولكنه وجد أن القرّ قد سبقه إليه. وفجأة شعر بأن نفسه قد تخلخلت وباتت بغير أساس. وأن صدره أصبح فارغاً خرباً موحشاً. وكان كلما لفحه الريح بأكفه الميتة ازداد شعوره بوحدته وبقلة حيلته.

أجل هاهى الريح تصرخ فى وجهه بأنه وحيد وحيد. لا صاحب له ولا قرين. يقيناً أنه ولد من أبوين وكان لهذين الأبوين أقارب وأنسباء وأصدقاء فأين ذهب هؤلاء جميعاً إذ بات ثم أصبح فإذا به فى عالم لا يعرف من مخلوقاته أحداً، ألم يكن يعنيه أمر هذه الوحدة وهو قابع فى حجرته ولكنه وسط هذا البرد اللئيم شعر بحاجته إلى الدفء فتاقت نفسه إلى الجموع يستتر ويتكمّش.

إذن فما أتعس الإنسان! إنه تافه هفاف يصطنع مشاعره من درجة الحرارة ومن لون المرئيات ومن طعام كثير الفلفل. فهو يحب ويكره ويحسد ويثور، ويغضب وينتقم، ويرضى ويفرح، لأنه لمح قشرة موز ملقاة على عرض الطريق، أو رأى القميص الداخلى لامرأة سائرة أمامه متدلياً من تحت ردائها الخارجى، أو لأنه سمع بائعاً ينادى على بضاعة بنغمة شاذة. أتكون مشاعر الآدميين من التفاهة والرقة بحيث تستثيرها هذه النكرات الحسية! وهل منع الإنسان حقًا من أن يشعر شعوراً أصيلا ثابتاً لا يحركه سوى الأمر الخطير والمعنى الجسيم!

إذن ما باله قد ترك شيطنته وأنكر اعتزازه بوحدته وراح يسعى وراء الجموع متمنياً وجود القرناء لمجرد إحساسه بريح باردة تلفح وجهه!

ومع ذلك فإن هذه العلل العقلية جميعها لم تنجح فى تحويل شعوره إلى الوجهة التى أراد. وما لبث أن أحس بأن حاجته إلى الدفء قد تدرجت إلى نوع من الحنين الملح إلى شيء مجهول لا يستطيع إدراكه. شعر بأنه يريد ان يحتضن إلى صدره شيئاً ما وأن يطبق عليه بذراعيه فيعتصره كأن فى أحشائه قطباً مغناطيسياً يتلهف إلى الاكتمال بقطب معاكس أو كأنما هو جائع إلى شيء فيريد أن ينطلق فى بسيط الأرض باحثاً عن الشبع.

عجباً! أيكون «إبليس الصغير» متعطشاً إلى حب امرأة!

إنه يذكر أن هذا الشعور بالجوع العاطفى كثيراً ما انتابه وهو لا يزال طالباً فى الجامعة تلك الأبنية المهيبة التى لا تحتمل من

معانى اسمها سوى أنها مكان معد لاجتماع نفر متفرق فى صعيد واحد. كان يخرج منفرداً ليجوس فى الحدائق المحيطة بها فيخطر فى طرقاتها المورقة وتقع عيناه على النبات الأخضر وعلى الماء الراكد السجين، ويطرق أذنيه صوت الدوح تسامر جاراتها، وشدو الطيور تسمع أهل الأرض أنغام السماء. وحين تتعب قدماه وتسأم نفسه كان يأوى إلى مقعد مهجور فى ركن ظليل فيجلس ويطرق. وما من مرة طال به المقام فى هذه العزلة الصامتة إلا وتنبه من أحلامه الحزينة على احساسه بدمعه الساخن يتساقط على كفيه.

كان يبكى من غير وعى. إلا أن وعيه الداخلى كان يدأب على إشعاره فى كل بادرة تسنح له بأنه وحيد وأنه محروم. كان يحس بأن نفسه تكاد تتشقق من شدة الجفاف وأن فؤاده يصرخ مطالباً بالعطف والحنان اللذين لا يستطيع العيش بدونهما.

ويذكر أنه فى ذلك الوقت كان إذا ذهب إلى مسرح أو سينما لم يكن يعنى بجل ما يعرض عليه من مشاعر مصورة. غير أن ثمة نوعاً واحداً من المشاهد لم يفشل مرة فى استثارته وتحريك لواعجه. فكان يكفيه أن يرى أمًّا تمر بيدها على جبين ابنها المحموم، أو أختاً تستقبل فى احضانها أخيها العائد من سفر طويل، أو فتاة تحمى عشيقها بجسمها لتدفع عنه خطراً ما. حتى يشعر بأن قلبه يعتصر عصراً.

بل إن كثيراً من مشاهد الحياة العادية ككلب يقبل مبصبصاً بذنبه لتحية صاحبه، أو زوج يساعد زوجه على الصعود فى الترام، أو بائع جرائد يصلح من هندام زميل له، أو عابر يأخذ بيد أعمى

ليوصله إلى الجانب الآخر من طريق، أو بائع فقير يجود بشيء من بضاعته على شحاذ، أو أم ترقب طفلها وهو يلعب وسط المروج.. كان أى واحد من هذه المشاهد كفيلا بأن يغمر عينه بالدمع ويجعل شفتيه ترتجفان. ثم لا يلبث أن يعض على نواجذه ويمضى فى طريقه كسيفاً وقد عصفت به مشاعره المضطربة.

وكان يخيل إليه ألا نجاة له بغير الحب فالحب على حسب ما كان يرى هو المظهر والمصدر لما يحتاج إليه الفتى من حنان عاطفى.

وأخيراً أحب. ثم قبع فى وكره ينتظر الثمار. فكان بعد ذلك مالا يود ان تمر مجرد ذكراه ببالـه. وإذا به فى ذات يوم يهجم على حبه فيخنقه ثم يحطم تمثال من أحب.

وقال: لأكن هذا الفتى الصلب العود المصفح القلب الذى يأنف من أن يبذل أنبل مشاعره فى الهوس والسخافات. وكان يحلو له أن يردد قول الأعرابى «ما بال الرجل منكم يموت فى هوى امرأة! إنما ذلك لضعف فيكم يا بنى عذرة».

وأحاط نفسه بالسياج فأصبح فى عصمة أنوفة منيعة وبدأ يشعر بجبروت الآلهة.

فما باله اليوم إذن يعود إلى وساوس أيفاع الشبان!

ازداد شعوره بالبرد فغادر مكانه وانثنى صوب المدينة. وكان كلما خطا خطوة آلمته قدماه وكأنما يسير على قتاد مرهف. وبعد أن سار شوطاً مضنياً وقف تحت خميلة وارفة وهو مقرور. ووقع

بصره على قرية بعيدة يتصاعد من أكواخها الدخان فاشتاق النار. وكانت القرية مضمومة على منازل متقاربة تتوسطها قبة بيضاء لجامع أو لمدفن أحد الأولياء ولم يكن بجوار القبة مئذنة. وفى أنحاء متفرقة من هذا المشهد قامت أشجار الجميز الفرعونى العجوز فبدت كشحاذين مكفوفين يدبون على عصىّ. وظهرت فى الأفق البعيد قلعة القاهرة الشامخة تشرف على المدينة فتدمغ كل منظر فيها بطابعه القاهرى. وكان الضباب يغلب هذا المشهد بأسره فيبدو كصورة خيالية من تلك الصور التى تصنع خصيصاً للسائحين الأجانب فيبتاعونها كتذكار ممثل للطابع القاهرى.

* * *

غادر مكمنه من جديد واستأنف السير حثيثاً حتى وصل إلى المدينة. وكانت الطرقات لاتزال مقفرة من السابلة، والعربات تجرى مذعورة بين حين وآخر كأنما تفر من عدو مطارد، وكان السكوت مخيماً فى كل مكان حتى خيل إليه أنه يهبط مدينة قد اكتسحها الغزاة فسلبوا متاجرها وفتكوا بأهلها.

شاهد مطعماً فى طريقه. وشعر بأنه جائع فدخله وبدأ يأكل ما طلب من طعام غير أنه لم يتناول سوى لقيمات حتى أحس بأنه قد فقد شهيته تماماً فأمسك عن الأكل وأشعل لفافة أخذ يشهق دخانها بنهم.

وفجأة وقعت عيناه على فتاة فى الجانب الآخر من الطريق تقف أمام نافذة مكتبة، فتاة متوسطة القامة هيفاء القد، ترتدى السواد ولها شعر فى لون الذهب. لم تكن هذه أول فتاة صادفها فى يومه.

فقد مرت أمامه كثيرات غيرها رآهن يهرولن مطرقات كأنما قد مات أزواجهن وأخواتهن ثم لا يلبثن أن يتلاشين فى الضباب. ومع ذلك فقد وجد نفسه – ولسبب مجهول – يغادر مائدته ويدفع حسابه ثم يخرج إلى الطريق. لعل ما أثار اهتمامه بهذه الفتاة هو أنها لم تكن مذعورة وجلى كسائر الخلق فى هذا الحرب بل وقفت منتصبة فى مهابة وهدوء تتصفح فى إمعان وتركيز الكتب المعروضة فى واجهة المكتبة.

وقف برهة يتأملها من جانب الطريق الآخر.. وخيل إليه أنها شاعرة بوجوده إذ لم تلبث حيناً حتى حانت منها التفاتة لم تستغرق ثوانى خاطفة. وهبط على الفتى تردد وخشية فهم بالرجوع إلى المطعم ولكنه وجد الفتاة تدخل المكتبة فعبر الطريق للتو ولحق بها. ولما دخل المكتبة جعل يحدق فيها عن بعد فرأى عينين زرقاوين. وشفتين ورديتين. وبشرة فى لون الحنطة. وفيما عدا ذلك كان وجهها مغلقاً صامتاً لا تبين قسماته عن عاطفة أو معنى. ثم تكلمت فسمع صوتاً كترجيع الريح وسط الغابات فى قلل الجبال. كانت تسأل عن ديوان لشاعر مات فى شرخ شبابه فعرف الناس بعد موته أنه لم يكن بشراً مثلهم بل روحاً علوية هبطت عليهم من السماء. وبدا على الكتبى المنكمش فى دثاره أنه لم يسمع باسم هذا الشاعر من قبل. فهز رأسه واعتذر عن عدم وجود هذا الكتاب لديه.

غير أن الفتاة لزمت مكانها فلم تتحرك وصمتت برهة ثم قالت فى إمارة وسيطرة بأنها مستوثقة من وجود هذا الكتاب الذى تطلبه

لديه وتضايق الكتبى من لهجة الفتاة فأجاب فى حدة خفيفة بأنه أعرف الناس ببضاعته وها هى الكتب معروضة أمامها فلتبحث فيها كما تشاء.

وكان هو فى هذه الأثناء قد اقترب حتى أصبح يواجه الفتاة، فلما سمعها تعبر عن استيثاقها من وجود الكتاب امتلأ قلبه دهشة. فقد كان الآخر يعرف أن الكتاب موجود كما كان يعرف موضعه من المكتبة، ولكن هذا شىء آخر، فهو يعرف مواضع جميع الكتب فى معظم مكتبات المدينة لأنه يعيش معظم حياته فى حناياها. أما الفتاة فكيف تأتى لها هذه المعرفة وهو لم يشاهدها فى سوق الكتب من قبل ثم إنها لم تر الكتاب ولم تعرف موضعه !

وفى حركة هادئة رفع الفتى يده فاستخرج الديوان من وسط الكتب وقدمه إليها بغير لفظ. ولكنها لم تتناوله منه إلا بعد أن ظلت يده مبسوطة به بعض الوقت. فلما أصبح فى كفيها ألقت عليه نظرة ثم رفعت للفتى وجهها الصامت وتحركت شفتاها بلفظ فرد.

– أشكرك.

أما هو فلم يجب. بل ظل يحدجها بعينين مدهوشتين كأنما يشاهد رؤيا من عالم آخر ومع ذلك فلم يبد على الفتاة أنها تضيق بنظراته. ولكنها أيضاً لم تبتسم له بل قالت بعد برهة :

– لِمَ تحملق فىّ ؟

ولكن الفتى ظل على صمته حيناً طويلا وأخيراً تكلم من غير أن يحوّل بصره عنها:

– آه لو أن شعرك أسود...

– إن ردائى أسود.

وبعد برهة صمت استطردت قائلة:

– أرى أنك تهتم بالألوان.

– بل بما توحى به من معان. إن السواد هو العنصر الذى أعيش فيه.

– السواد...

– أكان من الممكن أن تكونى زنجية؟

– إن عينىّ زرقاوان.

– إنهما جميلتان.

– ولكنهما لا ترضيانك؟

– لا أدرى.

ثم قال مقطباً:

– من أنت!

– أنا...

وصمتت برهة ثم أجابت:

– إننى أحب قراءة شعر الملائكة.

* * *

خرج معها إلى الطريق وسار بجوارها وهو مقطب. وبعد برهة سمعها تقول له:

– لِمَ تتبعنى؟

التفت إليها وقد ازداد وجهه عبوساً ثم خاطبها فى شىء من الحدة:

– لست أتبعك بل أسير إلى جوارك. إن كلينا مدفوع بيد واحدة

وهو ما يضايقنى فبدا على شفتى الفتاة طيف ابتسامة غامضة :

– حقًّا!

ووجد الفتى نفسه يصرخ لغير سبب:

– أجل وكأننى موشك على الاستغاثة بالشرطى ليمنعك منى.

– ولكنك تركت مكانك ولحقت بى!

– إذن فقد رأيتنى حين كنت فى المطعم!

لم تجب الفتاة فساد الصمت بينهما. وعلى حين غرة توقف الفتى عن السير وقبض على ذراع الفتاة بأصابع عصبية وأخذ يحدجها بنظر من نار. أما هى فلم يبد عليها أثر ما لهذه المفاجأة بل نظرت إليه فى هدوء وهو يقول:

– أكنت تتوقعين رؤيتى اليوم؟ اعترفى.

ولكنها رفعت عينيها إلى السماء ولوحت بيدها فى الفضاء:

– اليوم ضباب، انظر، ما أشد التفافه حولنا.

واستأنفا السير فعاد إلى إطراقه وهو كظيم، أدرك لتوه أن هذه الفتاة الغامضة تقبض عليه بيد من حديد وأنها تستطيع معه ما تشاء.

لقد هبطت عليه من الضباب. ومع ذلك شعر بأنها ليست من عنصره، فهو لا يستطيع أن يسيطر عليها كما يسيطر على مخلوقات مملكة الظلمات التى يعيش فيها. فهو وسط الأبالسة حاكم وأمير. وفى حنايا الجحور المستورة يتأتى له أن يأمر فلا يرد له أمر، ثم إنه يقدر على التحكم فى معظم النفوس البشرية إن استطاع أن يدلف إليها من المسارب التى تلائمه، مسارب الدود الأملس والحيات السود حيث لا حكم للقوة السوقية ولا للعنف القبيح بل يطلق المجال للحيلة الملتوية والعقل النافذ والإيهام البارع ولكنه لا يجد مع هذه الفتاة ثغرة ينساب إليها منها.

آه لو كانت سوداء الشعر ولم تكن عيناها زرقاوين..

ومع ذلك فقد أحس بلذة غريبة فى سيطرتها عليه وعبوديته لها. وتأمل هذا الشعور الجديد الذى يملأ صدره فأحب لو استطاع دوامه بعض الحين ليتمكن من وضعه تحت مجهره فيجرى عليه تجاربه. وحدث نفسه بأن لا خطر عليه من هذه العاطفة النامية مادام هو لا يوحد ما بينها وبين نفسه أو يلقى بكيانه فى خضمها. فهو على يقين من قدرته على إبقاء رأسه فوق سطح الماء. وما دام الأمر كذلك فهو يستطيع أن ينتشل نفسه متى شاء. فهذه القدرة على تجنيب نفسه من كل قيد وكفالة الحرية التامة لها فى الفكر والعمل هى أثمن ما استطاع انتزاعه من كبد هذه الدنيا البغيضة. وهو فى سبيل محافظته على هذه الإمارة الروحية قد قطع صلاته بكل الناس ونفض عن قلبه قيد كل عقيدة ودين.

حينئذ أحسَّ بأنه يمسك الكون فى كفيه وبأنه فى عصمته المعنوية هذه أقوى بكثير من كل طاغية أو إمبراطور. إذاً لا شىء على الأرض يستطيع أن يعتدى على شبر من آفاقه الممتدة إلى ما وراء النجوم. ولا شعب يهدده بالقيام فى وجهه ولا ثورة تقدر تسقطه عن عرشه. فى حين أن الحكام عبيد لإدارة المحكومين وعبيد لنفوسهم المشبعة بأغراض عمياء تقودهم من أنوفهم إلى هنا وهناك.

التفت إلى الفتاة وقال:

– أترضين بمصادقتى؟

– لِمَ؟

– لأننى أريد أن أحبك.

أطلقت الفتاة ضحكة من مقطع واحد وقالت:

– أنت فتى طيب القلب.

أثارت هذه الإجابة ثورته فصاح:

– لماذا تراوغين؟

– لست أراوغ.

– بل أنت ككل النساء. هل المرأة لا تستطيع إلا إن تكون قطرة من زئبق تتخذ كل شكل ولا شكل لها. وتسعى إلى كل غرض من غير أن يكون لها غرض لماذا لا تكونين قطعة من الحديد الصلب؟

– ماذا تريد.

– أن نتحابّ.

– أنت لا تستطيع الحب.

– إننى إذا أردت الحب فلا شىء فى العالم يمنع من قدرتى عليه.

– ولكن الحب ليس إرادة بل هو على العكس من ذلك تماماً. فهل أنت مستعد ؟

نظر الفتى إلى وجهها الباهت العذب فأحس بالحنان يتفجر من صدره وودَّ لو حوى هذا الوجه فى يديه وغمره بالقبل.

– أجل.

صمتت الفتاة برهة طويلة وهى سائرة إلى جواره. ثم التفتت إليه مبتسمة وقالت:

– هل أنت مستعد لأن تنجب منى أطفالا؟

توقف الفتى عن السير فجأة وصرخ مذعورًا:

– لا لا. إلاّ هذا.

ضحكت الفتاة وضربت بكفها على كفه قائلة:

– أرأيت...

– لا.. إننى لا أحب الحياة فكيف تطلبين منى أن أعاونها على الاستمرار والبقاء.

– ولكن أنا هى الحياة أيها الفتى الطيب. فإن رغبت فىَّ فعليك أن تحب الحياة أولا.

واصل الفتى سيره إلى جوارها وهو مغيظ. فها هى الفتاة تكرر دعوتهُ «بالفتى الطيب القلب» – هذا التعبير البغيض الذى خشى منذ لحظات أن يكون المجتمع قد أطلقهُ عليه.

وبعد برهة رفع رأسهُ وقال :

– هل تتعهدين بأن تبقى إلى جوارى دائماً فأستطيع أن أضغط على لحم ذراعك كلما أردت ؟

– إننى بجوارك ما دمت تؤمن بأن الحب ليس إرادة وبأن الحياة طاعة وخضوع ثم..

– ثم ماذا؟

– لا بدَّ أن تنجب منى أطفالاً.

وجم الفتى. ولكن وجومهُ لم يستغرق سوى برهة قصيرة انطلق بعدها يقول:

– سأفعل كل ما تطلبين. إن عبوديتك تلذ لّى وأشعر بأن أحب الأشياء إلىّ هو أن أطيع أمراً لك. إننى أعبدك. أتفهمين؟

وأمسك بكفها يقبلها.

شعر بسعادة غامرة تعرفها حياتهُ من قبل. وودّ لو اختلى بالفتاة ليبكى بين يديها بدمع غزير ثم يحدّثها عن كل ماضيه. أراد أن يبثها لواعجهُ وأن يطلعها على أشجانه التى تضنيه ثم يسألها الصفح عما سلف ويطلب منها الإرشاد والعون على المستقبل.

لقد طلبت منهُ أن يخضع للحياة وأن يتنازل عن إرادته. آه لو درت بأنهُ الآن مستعد لأن يكون أسيراً لها وعبداً لأهوائها..

أن يكون خادمها وكلبها وموطىء قدميها.. فإن مرت بأناملها الناعمة بعد ذلك على جبهته، أو نادته باسمه أوضحكت فى وجهه فقد نال كل شىء.

أجل . إن عبوديته لها أجمل من حرية نفسه أضعافاً. كل شىء يهون ويتضاءل ما دام جسدها الحار إلى جواره.

* * *

أمضى مع الفتاة بقية النهار فى حان فلما أن جنَّ الليل وجد نفسه يسير معها طفل صغير ناعم. وتمنى لو استطاع أن يحمل عنها عبء التنفس والكلام والحركة حتى يجنب مخلوقته الثمينة كل عناء أو طيف عناء. فكان يحضر إليها كل ما تطلب ويعدُّ لها ما تشاء من مأكل ومشرب. وصارت أعظم أمنية له أن يراها راضية قانعة فى ركنها الدافىء حيث يغمرها بنظراته الملهوفة. وهو فى كل هذا يدأب على تلمسها والضغط على يدها حتى يطمئن إلى بقائها بجواره.

ولأول مرة فى حياته أدرك معانى التقديس والعبادة والصلاة.

كان الجوُّ لا يزال فاتك البرودة شديد العتمة والريح تصفر فى الطرقات كذئاب جائعة، ولقد خيّل إليه أول أن خرج من الحان أن هذه العناصر الشديقة تعتب عليه هجره إياها وانشقاقه عليها ولكنهُ أشاح بوجهه وهزَّ كتفيه. ما له الآن ولها؟

ولكن طال سيره مع الفتاة فى جوف الليل فكان لا يرى وجهها كما امتنع عليه الضغط على لحم ذراعها الذى أصبح مستوراً فى

معطف كثيف. وكأنما البرد واحتجاب الفتاة عنهُ قد تآمرا على النفوذ إلى عاطفته الوليدة فما لبثا أن غلّفاها فى إطار من الشباب، ولم يعد الفتى يشعر بالأثر البالغ الذى كان لفتاته عليه منذ لحظات بل أصبح ينصت فى وجل إلى زمجرة الريح الغاضبة فبدت له كوعيد طاغية مستبد يهدده بالويل والثبور.

أحاط الفتى خصر فتاته بذراعه وضغط عليه متمتماً:

– لا. لن يأخذوك منى سأقاومهم إلى النهاية.

ولكن الريح اشتدت وأخذت تلفح وجههُ بسنان كالإبر. فأدرك الفتى أن صحبتهُ القديمة قد بدأت العمل. وسرعان ما شاهد الضباب يهبط من جديد على المدينة ليلف معالمها ويحيل مشاهدها إلى أحلام مخيفة كخرافات الأساطير.

سحب الفتى ذراعه الذى كان يلفُّ به صاحبته وابتسم فى حسرة.

– لا بأس أيها الرفاق. اتركوها لى حقبة وأنا أعاهدكم بأننى لن أنجب منها أطفالا. أما الريح فلم تهدأ. وأخذ الضباب يثقل ويتكاثف. حتى هذه الترضية لم تخفف من حدة عشيرته الباغية.

– لماذا أنتم غضابى! اتركونى برهة وثقوا بأننى سأنجح فى ضم من تدعى أنها الحياة إلى زمرتكم يا أهل الظلام.

التفتت إليه الفتاة تسأله:

– فيم تفكر؟

لم يجب الفتى أول الأمر. ثم انطلق يضحك ضحكاً مكتوماً لم تنفرج عنه شفتاه وقال:

– أفكر فى رجل له ذنب وفى رأسه قرنان.

نظرت إليه الفتاة فى لهفة فخيَّل إليه أنه قد نجح فى إخافتها. ولأول مرة فى هذا اليوم أحسَّ بيدها تمسك بذراعه وتضغط عليها، لقد كان هو الذى يبدأها دائماً بالمخاصرة والعناق فماذا دفع الفتاة الساعة لأن تكون البادئة ! أتراها قاربت منزلها فهى تحييه من قبل أن تفارقه؟ أم لعلها شعرت بما يدور فى رأسه من أفكار فهى تحاول أن تشد عضده ليقوى على مكافحة غرمائه ؟

إنها إن همت بفراقه فعليه أن يتمالك نفسه فلا يظهر حسرة أو حزناً بل يسألها فى عدم مبالاة عن موعد لقائهما المقبل ثم يصافحها وينطلق.

وسمع الريح تهمس فى أذنيه وتقول:

– بل فلتعطها نقوداً فهذا أوقع.

* * *

كانا يسيران على إفريز ضيق والفتاة تتمتم بلحن خافت حزين. وصادفهما حائط أبيض ممدود فى جوف الليل كصراط يوم القيامة. وهمَّ الفتى بسحب فتاته إلى ناحية الحائط الخارجية، ولكنهُ وجدها تلزم ناحيته الأخرى فخطا ليلحق بها. ثم خطر له أن لا يتبعها. لم يتبعها؟ فليمض كل منهما من أحد جانبى الحائط الذى إن فصلهما برهة فلسوف يلتقيان فى نهايته. ولكنهُ لم يكد يخطو

خطوة فى الجانب الآخر حتى هبط عليه شعور غامض قابض فعزم على أن يعود فيلحق بصاحبته. ولكنهُ لم يفعل. بل واصل سيره فما إن بلغ منتصف الحائط حتى سمع همساً يملأ مسامعه.

– إنك لم تتبعها. ها أنت حرٌّ من جديد فهنيئاً لك بسيادتك المستعادة أنت حرٌّ. حرٌّ. حر...

ووجد نفسه يقهقه قهقهة شيطانية ويقول :

– أجل. لم تعد الفتاة معبودتى وإلهى. ما هى إلا حشرة مسكينة سأجرى عليها تجاربى بينما أوهمها بأننى مشغوف بحبها. ها! ها! هاى!

وفجأة شعر بأن قلبه يهبط إلى غير قرار. وأحسَّ بالدمع يسيل ساخناً من عينيه والغصة تملأ حلقه فصرخ قائلاً :

– رحماك أيتها النفس العاتية! اتركينى أعيش...

وأسرع إلى نهاية الحائط وجال بعينه باحثاً عن الفتاة فلم يجدها..

لم يحاول البحث عنها، بل سار فى طريقه مطرقاً وهو موقن بأنه قد فقدها إلى الأبد.

وفى هذا الحين دوّى الفضاءُ بصوت الرعد القاصف وومض البرق فى عرض السماء ثم بدأ المطر ينهمر.

وتلاشى شبح الفتى فى جوف الظلمات من جديد.

• يوسف جوهر

الأفيون

أحقًا يا سيدى الطبيب تستطيع أن تشفينى؟! إنى لا أرى فى يدك سماعة وحجرتك خالية من أسلحة الجراحة وأجهزة الأشعة.. فكيف أنت مستطيع أن تستأصل الداء الوبيل.. أبهذه الصورة على الحائط؟ ما اسمها؟.. الأمل.. أين هو؟! إن الفتاة تبدو حائرة وفى يدها قيثارة ممزقة الأوتار.. آه.. بقى واحد.. خيط رفيع.. دقيق.. كأنه وهم.. أممكن حقًا أن ينبعث منه نغم.. وأن يوحى بالأمل.. حسنا.. إنى أصدقك.. وسأستلقى على أريكتك المريحة وسأتكلم فى الضوء الخافت.. وأطلق لأفكارى العنان.. بلا خجل.. لن أحبس خاطراً واحداً فى رأسى.. سأعطيك الفرصة كاملة لتحللنى وتغربلنى.. من يدرى.. لعلك تنجح حيث أخفقت العقاقير..

* * *

فى تلك الأيام البعيدة.. كنت تلميذة صغيرة.. وكنت أذهب كل صباح إلى محطة قريتنا أنتظر قطار الدلتا الذى يحملنى إلى مدرستى فى البندر المجاور. ولم يكن القطار يصل فى موعده أبداً.. فإن العطب كان كثيراً ما يصيبه فى الطريق، كما أن بيت السائق كان يقع على الخط.. ولم يكن يجد بأسا من أن «يربط» هناك ليشرب كوباً من الشاى..

ولم يكن ذلك يضايق أهل قريتنا الذين تعودوا ذلك.. واستغلوه.. وصاروا يشيرون للقطار إذا خرج من المحطة وهم فى طريقهم

إليها فلا يجد «عم مصطفى» بأسا من الوقوف.. وإذا تصادف ورأى زوجاً من الفراخ، فى يد قروية فإن الوقفة تطول وهو «يفاصلها» فى الثمن..

وكانت الوجوه التى تركب القطار من قريتنا معروفة على مر السنين.. وكنا نستعين بالحديث على انتظار عم مصطفى وقطاره.. وكانت المحطة تتحول فى الصباح إلى ما يشبه القهوة.. وقد ساهم «تعلب» فى ذلك.

ولم يكن «تعلب» حيواناً.. ولكنه كان عجوزاً طيباً له لحية بيضاء وعينان ثاقبتان تحب النظر إلى بريقهما العسلى، وهو يصنع الشاى تحت شجرة الجميز العتيقة ويوزع أكوابه على الزبائن.

ولم يكن تعلب طيبا فى شبابه.. هكذا كان يقول للناس فى المحطة.. ويعترف أنه كان من رجال الليل.. وطالما شن مع العصابات الهجوم المسلح على العزب.. وسحب المواشى من حظائر الخاصة الملكية وكبار الأغنياء. وكان يحرص على أن يؤكد أنه لم يسط أبداً على ناس على قد الحال.. ولم يلوث يديه بدم ولا شرفه بالهجوم على عرض.. والمعاصرون لشباب تعلب كانوا يتغامزون أنه مؤلف قصص كشاعر الربابة الذى يجىء أحياناً إلى المحطة وينسب إلى عنتر والزناتى بطولات من نسج الخيال. وعلى أى حال فإن حكايات تعلب كانت لذيذة، وكان بدنى يقشعر من وصفه لمغامراته ومخاطراته مع العفاريت، وصراعه مع مارد الطاحونة عندما كان يهزأ بالخوف ويمشى وحده تحت ليل بلا نجوم.

وكنت أشارك فى هذه المناقشات المثيرة بالاستماع فقط.. فإن الأدب كان يفرض على التلميذات الصمت فى المحطة.. وحتى التلاميذ لم يكن يتحدثن إليهم. كلام الأولاد مع البنات كان عيبا فى قريتنا.. وكل القرى..

كانت أمى تقول لى منذرة: «عمرك الآن ثلاثة عشر عاماً.. إنى حملت بك وأنا فى هذه السن.. إياك أن ترفعى عينك من الأرض وأنت ماشية فى الطريق».

فإذا كان أبى حاضراً التحذير فإنه يعلق ضاحكاً وهو يلف سيجارته. ويقول معارضاً وكأنه فقيه واسع الاطلاع: «أولادكم خلقوا لزمان غير زمانكم.. بنتك الآن تقرأ الجرنال فهل كنت أنت تعرفين الألف من النبوت..» ثم يلتفت إلى مكملا جملته وهو يمر على «البفرة» بطرف لسانه: «كانت أمك حاملا بك.. ومع ذلك كانت تشترى بمصروفها حلاوة.. واسألى حنضل».

ولم يكن أبى كاذباً.. فإن حنضل كان «جروبى» قريتنا.. وكان كل الصبيان والبنات يعرفونه.. ويعرفون عصاه الطويلة التى يعلق عليها حلواه ويمط منها قطعة بأصابعه كلما امتدت إليه يد بمليم.

وكان وجه أمى يحمر كأنه يذكرها بفضيحة وتقول فى خجل فتاة الثالثة عشرة «وما ذنبى، إنى كنت أتوحم».

لم يسأم أبى أبداً هذا التعليق.. ولم تسأم أمى الرد.. وإنى لأدرك الآن وقد امتدت بى الأعوام أن نقاشهما ذاك كان نوعاً من الغزل.

* * *

ومع أن أبى كان يطلب إلى أن أفتح عينىّ ولا أرخيهما إلى الأرض فإنى لم أكن أفعل.. وكان مجرد التفكير فى أن يصبح فى بطنى طفل كما حدث لأمى يملؤنى غرابة واضطراباً وإحساساً بخطر مجهول يقترب منى.. وزاد شعورى بالخطر أن أمى صارت تتحدث عن حجزى فى البيت وكيف أن أخوالى غير راضين عن استمرار خروجى وسفرى.. لأن ذلك يكاد يكون عاراً.. وكانت أمى تشفع ذلك بقولها إن ثيابى صارت تضيق على صدرى بشكل يلفت الناظرين.. ثم تميل على أذنى هامسة: «هل حدث لك ما يحدث للبنات فى سن البلوغ». وإذا سألتها فى دهشة ما هو الذى يحدث؟! تغطى ابتسامتها بكفها وتقول لى وهى أشد منى خجلا: «ما دام الأمر لم يحدث.. فليس من الضرورى أن تعرفى الآن»..

* * *

وكان القلق الذى تبثه أمى فى نفسى بهذه الأحاديث يصاحبه قلق آخر أن أحجز من المدرسة.. فقد كانت أمنيتى أن أحصل على شهادة الثقافة، وكنت متفوقة على زميلاتى تفوقاً جعل معلماتى يباهين بى المفتشات.. وقالت لى الناظرة إنها تستطيع أن تلحقنى بعد الثقافة بمعهد الفنون للمعلمات فى القاهرة.. وملأت رأسى بأحلام جميلة عن المستقبل.. إننى مادمت دائما فى المقدمة فإن تعيينى فى القاهرة أو الإسكندرية مضمون بعد تخرجى..

وكنت ذهبت إلى الإسكندرية مرة واحدة فى حياتى.. وبعد عودتى شككت أن تكون الجنة بمثل هذا الجمال.. وصارت الحياة فى الإسكندرية هى حلمى الأول والأخير.. وربما كان

ذلك هو الذى حفزنى أن أكون الأولى بعد أن كنت فى الترتيب الثانية أو الثالثة.

* * *

وعندما وصلت إلى «الثقافة» كنت البنت الوحيدة التى تظهر فى محطة القرية مع أنها فى السادسة عشرة. أما زميلتاى سعاد وبثينة فقد كفتا عن الدراسة والسفر. تزوجت سعاد ضابط النقطة.. وتزوجت بثينة نجل العمدة وهو شاب لم يفلح فى المدارس ولكنه لمع فى تجارة المواشى.. وأقام العمدة ابتهاجاً بزفاف ابنه فرحا هائلاً وذبح لمدعويه عجلاً كبيراً وجاء من القاهرة بفتحية أحمد وشكوكو لإحياء الليلة..

وذهبت إلى بثينة أهنئها. وعرفت منها أن ابن العمدة خطبها من المحطة، وأنه هو الذى دل صاحبه ضابط النقطة على سعاد.. ثم همست أنى مادمت أداوم على الذهاب إلى المحطة كل صباح فستفرج. وكان ذلك من بثينة مداعبة فإنها كانت تعرف أنى أحلم بالمدينة ومعهد الفنون.

وبينما هى تودعنى على السلم فوجئنا بالعمدة والد العريس صاعداً.. فمد إلى يده مسلماً وهو يسألنى: «بنت مين؟!».. وأجبته متلعثمة وأنا أقبل يده: «بنت إبراهيم صالح..» وأضاف ضاحكاً وهو يهز يدى من جديد «تبقى بنتنا».. وكيف أمك أمينة.. هل تعلمين.. لقد حضرت مع أبوك قبض مهرها، وشهدت على عقد الزواج، وليلة الدخلة أحضرناها بالرفاص عبر النيل من بيت المرحوم جدك.. وكان الرفاص لا يريد أن يرسو أمام بلدنا لضعف الجسر

فى الفيضان.. ولكنى هددت السائق بإطلاق الرصاص على رأسه إذا لم يذهب إلى الشاطىء حيث ينتظرنا الطبل.. ولما غاص الرفاص فى الوحل حملت أمك على كتفى وقفزت بها إلى الشاطىء.. كانت عيلة.. وقال الناس إنها لن تحمل.. ولكنها حملت.. وأنت الدليل.. يازينة البنات»..

هذا كل ما وعيته من حديثه.. فقد كان يخلط كلامه بالضحك.. وكان صوته حنونا وأبويًا.. ومع أن وجهه كان سميناً فإنك كنت تجد فيه ملامح الأربعين وتحس أن الصحة شيء يمكن أن يمسك باليد فى محياه المتورد..

ومن لهجته الودية تخيلت أنه لو كان رآنى وهو على هذه العلاقة القديمة بأبى لفضلنى على بثينة وخطبنى لابنه.. وحمدت الله أنه نجانى.. ثم تذكرت باطمئنان أن ذلك لم يكن ليحدث فإن صداقته لأبى مردها ولا شك التواضع.. فإن أبى نجار بسيط.. يصلح سواقى القرية.. والقرى المجاورة.. وإذا ابتسم الحظ له.. استدعى لترميم بعض القوارب عند نزول النيل وركود النشاط.. والبيت الوحيد الذى رضى صاحبه أن يضع له أبى الشبابيك والأبواب كان بيتنا.. وكان دائماً يقول متنهداً: «لو كان عندى حظ لتعلمت فى صباى نجارة الدواليب والأطقم.. فات الأوان الآن.. ويدى يست»..

* * *

ولما وصلت إلى البيت أخبرت أبى بما قاله لى العمدة.. وأجابنى أبى مزهوًّا: «هل صدقت».. وبدأ يحكى لى من جديد الحكايات التى حفظتها عن ظهر قلب.. وكيف أنه والعمدة لم يكونا يفترقان

فى شبابهما.. لأن الفقر والغنى لا يهمان فى الوداد.. وإنما الشهامة هى التى تجذب الرجل إلى الرجل.

* * *

وأمضيت ليلتى ومحطة الدلتا تملأ أحلامى بعد أن عرفت من بثينة وسعاد أن الرجال يختارون من هناك عرائسهم..

وعندما وقفت فى المحطة فى الصباح خيل إلى أنى نهب العيون الفاحصة، وأصابنى ذلك بارتباك شغلنى عن قصص تعلب وجعلنى أغض بصرى كما أوصتنى أمى.. وبينما أنا كذلك شعرت بعينيه ترقبانى.. وفى لحظة خاطفة عرفت أن شعورى كان صادقاً..

وعندما وصل القطار تمهل فى الركوب.. ثم تبينت أن ذلك كان عن قصد.. وأنه تريث لكى يختار المقعد المقابل لمقعدى ولم أعد فى حاجة إلى أن أختلس النظر لكى أتبين أنه يتأملنى..

* * *

وكنت أعرف «أحمد» منذ الطفولة.. ولكنى لا أدرى متى كففنا عن أن يتحدث أحدنا إلى الآخر فإن ذلك حدث تدريجاً منذ بدأ الشعر يظهر على شفتيه، ومنذ بدأت تظهر فى صوته خشونة تخيف.. وتذكرتى بتحذيرات أمى.

وكان أحمد يركب القطار مثلى إلى المدرسة الثانوية فى البندر ثم نجح فى «الثقافة» وذهب إلى كلية الطب.. عرفت ذلك من تعلب.. فقد كان يناديه بقوله: يادكتور.. وكان يتحداه بصحته.. ويذكر أنه لم يزر طبيبا قط، وسيموت فى المائة دون أن يلمسه

الأطباء وكان يقول لى إن المدينة هى التى جاءت بالأمراض وأن الناس هزلت أجسامهم من الماء المقطر.. وأن هؤلاء النحويين الذين يغسلون الفجل والجرجير تصيبهم العلل ويموتون وعمرهم ناقص.

* * *

وفى ذلك النهار أثناء الدراسة لم يغب وجه أحمد عن عينى وأنا أنظر للمعلمات وأصغى للدرس.

وعند العودة وددت لو أجد أحمد معى فى القطار.. فلما ظهر وجلس قبالتى لم أستطع أن أنسب الأمر إلى المصادفة وأيقنت أنه لى بالمرصاد، وأن نظراته التى تتجنبنى تتعقبنى.. وفى المحطة التالية نزل الركاب الذين كانوا معنا فى الديوان وصرنا وحدنا..

وتوقعت أن ينتهز الفرصة ويكلمنى وأحسست الدم يلهب وجهى.. فحولت عينى إلى النافذة، ومضيت أتشاغل بالنظر إلى الشمس الغاربة وغيوم يناير تنهال عليها كأنها جبال من الثلج.. ولكنه ظل محتفظاً بصمته، هادئاً فى معطفه الثقيل ويداه فى جيبه..

ومن خلال زجاج لم يعرف النظافة أخذت أنظر إلى قطرات المطر وهى تكبر وتتحول إلى حبات من البرد..

وأحسست كأن حبات من الكآبة تسقط فى قلبى.. وملأنى عويل العاصفة رهبة.. واحتجت إلى ابتسامة من هذا الجالس أمامى أرد بها وحشتى ولكنه بقى مغطى بمعطفه وسكوته..

* * *

وفجأة اهتز القطار هزة عنيفة.. وبعد لحظة سمعنا الناس وهم يتصايحون خارجه، وحاولت أن أفتح النافذة العتيقة لكنى لم أستطع. فخف إلى وشعرت بأصابعه وهى تنحى أصابعى الباردة حتى خيل إلى أنها تركت على جلدى أثراً.. وأطللنا معاً لنسمع «عم مصطفى» يسب ويلعن.. لقد خرجت القاطرة عن الخط بعد أن ذهب المطر بصلابة الأرض تحت الفلنكات.. وصاح عم مصطفى: «من أراد المبيت فى القطار فليشرف فإنه لن يسير قبل الصباح»..

وكانت قريتنا تقبع على بعد كيلو مترين تقريباً ولم يكن الوصول إليها سيراً على الأقدام، عبر الحقول الموحلة فى الظلام الحالك، من هين الأمور. وأخذ الركاب القلائل ينظرون من النوافذ فى تردد وإشفاق.. ثم ذهب البرد والملل بالحذر.. وبدأوا يغادرون القطار تباعاً وهم يسيرون ويسخطون..

ومرت الدقائق بطيئة ثقيلة. وصرت أعانى من البرد والجوع والخوف.. ومن صمته. وسألت نفسى ماذا هو صانع؟ هل سيحمل نفسه ومعطفه ويتركنى؟ أم سيبقى هكذا بقية الليل يعذبنى بصمته وبروده؟!

ووجدتنى أبكى.. ولو لم يتحول بكائى إلى نشيج عال لما فطن إلى دموعى ولما انبعث صوته يسألنى: «خائفة أنت».. كلمتان ولكنهما كانتا مملوءتين عطفاً وشعرت كأنه يربت بهما على خدى ويطمئننى.. وأجبته وأنا أحاول أن أقمع شهيقى: «هل أستطيع أن أمشى فى ونسك إلى القرية».. قال ضاحكاً ضحكة خفيفة: «منذ ساعة وأنا أنتظر أن تتحركى فقد عز على أن أتركك وحدك»..

وكان سلم القطار يعلو عن الجسر قرابة متر فسبقنى إلى النزول ومد يديه يتلقانى بهما وارتعشت وهو يحملنى.. ولم تكن رعشة البرد ولكنها كانت أول يد غريبة تلمسنى..

وكان الظلام حالكاً لف فى عباءته السوداء النجوم والسحاب والشجر.. والمطر ما زال يهطل غزيرا وكأن السماء عجزت عن أن تمسك منه شيئاً..

وفى لحظة صارت ملابسى لاصقة بجسمى، فخلع معطفه ووضعه على رأسى ولكنى أشفقت عليه من الغرق وقلت له إنه يكفينا معا.. وسرنا تحت هذا الغطاء ونحن لا نتبين موضع أقدامنا.. وكان متعذراً أن أمشى خطوة فى الأرض الزلقة بغير معونته.. فتشبثت بذراعه وأحسست وأنا إلى جواره كأنى فى أمان من غضب الطبيعة وكأنى صرت فجأة، والمعطف يظللنا معاً، كأنى داخل قوقعة سعيدة.. ووجدت الدفء يسرى فى أوصالى وهو يقول لى إنه يذكرنى منذ كنت طفلة ذات ضفائر وأنه كان يحلو له دائماً أن يرقبنى وأنا أنط الحبل فى الساحة أمام الدار.. ثم ذهب إلى القاهرة ليدرس الطب.. وهناك كان ينسانى تماماً شهوراً بأكملها.. ثم يتذكرنى فجأة دون أن يدرى لذلك سبباً. وقد يجئ ليرانى من بعيد..

وكانت كلماته وهو يبوح لى بذلك تنضح صفاء وكأن المطر سقط على صوته وغسله.. ولم أعد أدرى هل أنا أترنح لأن قدمى تغوص فى وحل الحقول أم لأن اعترافه المفاجىء أدار رأسى.. وأحسست فى تحفزه لنجدتى أنه يخاف على السقوط خوفاً حنوناً.. ثم يزعم بعد ذلك أنه لا يعرف السبب الذى يجعله يتذكرنى فجأة!..

أما أنا فعرفته.. وأيقنت أنه.. الحب..

وحتى لو كنت غبية بليدة لكان حتما أن أعرف.. فقد حملني آخر الأمر، بعد أن ذهب الخوض فى الوحل البارد والانفعال الحاد بما بقى من قواى.. ومضى بى مترنحاً من ثقلى وأحسست وصدرى ساقط على صدره وساعدى محيط بعنقه أنه لا هو برغم عبئه ولا أنا برغم الانفعال الذى يطرق ضلوعى نريد لهذه الرحلة أن تنتهى..

ولكن نوراً كان يتحرك من بعيد ويقترب منا.. وقال أحمد وصوته لا تخفى فيه الحسرة: إن النور قادم نحونا.. ولعله يبحث عنك.. وبعد قليل لن نكون وحدنا..

ثم أضاف فجأة.. «قلت لنفسى إنى ربما أراك.. ويشاء القدر ألا أراك فقط بل أن أبوح لك أيضاً بما كنت أريد أن أفاتحك فيه على طول المدى.. والآن فى هذا الظلام الدامس يتوهج حلمى ويضىء حتى كأنى أرى نفسى طبيباً لهذه القرية البائسة، أداوى أهلك وأهلى وأنت إلى جوارى زوجتى.. فقولى أنك ترين المستقبل كما أراه».. وحاولت أن أتكلم ولكن صوتى هرب منى فانبرى يتعجلنى فى لهفة: «تكلمى قبل أن يصل الرجل.. قولى إنك لى».. وظللت خرساء.. ولكن يدى تكلمت وهى تمسك يده وتعانقها..

وفهم أحمد.. وفوجئت بشفتيه تمسان خدى، وكأن ناراً هى التى مستنى وصعقتنى.. ونقلت فجأة إلى غيبوبة أفقت منها على صوت الرجال الذين يحملون المصابيح وإذا نحن أمامهم وجهاً لوجه..

* * *

وكان «العمدة» هو مرافق أبى ومعه عباس شيخ الخفراء تلمع فى النور الخافت ماسورة بندقيته وهى تتأرجح على كتفه.. وقال أبى وقد هدأ قلقه : « إننا كنا ذاهبين لنأخذك من القطار »..

وفجأة اخترق الصمت والمطر والصقيع ضحكة العمدة وهو يسأل: «ماذا كنتما تصنعان تحت المعطف طول الطريق؟».. وعند ذلك تنبهت إلى أنى لا أزال مستظلة مع أحمد تحت معطفه.. فنحيته عن رأسى وأنا أعانى الخجل والارتباك.. وأحسست أن صوت العمدة هو أسوأ ما لقيته فى ليلتى.. أسوأ من المطر الذى شربته ثيابى.. ومن الصقيع الذى تجمدت منه أطرافى..

ووجدت أبى شديد الزهو بأن العمدة شاركه فى البحث عنى.. وضايقنى أنه يحتفى به غير حافل بأحمد الذى نقع نفسه فى الوحل من أجلى.. ولو لم يقل له العمدة: «كيف أمك يابن وهيبة؟».. لصار نسياً منسيًا.. وأضاف العمدة وهو يسقى بالضحك صوته السيء: «كانت أمك تلعب معنا ونحن أطفال حفاة.. وكنا نعيرها بأصبع سادسة فى قدمها، ولكن وهيبة صار لها ابن دكتور.. ما شاء الله»..

وكأن أحمد لم يعجبه الحديث فاستأذن ليميل مع الطريق إلى بيته.. وصاح العمدة فى أثره: «لا تدخل تحت العباءة مع البنات مرة أخرى.. فإننا فى الفلاحين لا فى البندر يابن وهيبة»..

وضحك العمدة وشيخ الخفراء للدعابة، لكن أحمد لم يضحك، ولم يجب بشيء ومضى لسبيله.. وكرهت من العمدة ولعه هذا بنداء الأبناء بأسماء أمهاتهم، كأن الأولاد فى قريتنا ليس لهم آباء..

* * *

وأبديت ونحن نتناول العشاء نفوري من طريقة العمدة في الحديث.. ولكن أبي دافع عنه وقال إنه رجل حلو الدعابة.. ثم صاح مخاطباً أمي وهي تصب على يديه الماء من الأبريق: «رزق جديد.. العمدة شرع في بناء طابق ثالث، والشبابيك والأبواب والترسينة أنا سأصنعها.. مع أنه عندما بنى البيت جاء بالنجارين من مصر، فتصوري فضل الله»..

* * *

وضحكت وأنا في فراشي من بساطة أبي.. وقلت لنفسي ماذا يسمى صنيع الله لو عرف أن ابنته ستصبح زوجة طبيب.

وتذكرت عند ذلك ما قاله لي أحمد، وكيف أنه يريد فتح عيادته في قريتنا. وتمنيت لو يطلع الصباح.. وأراه في المحطة وأسأله إن كان يستطيع أن يعدل حلمه قليلا ويسكنني في مصر الجديدة ولو لفترة.. فقد تمنيت كثيراً أن أعيش هناك..

ولم يقدر لي أن أبوح لأبي بأمر أحمد.

فإن أحمد.. مات في الصباح.. أصابته رصاصة وهو واقف في المحطة ينتظر القطار.. ودخل في نفسي حين بلغني النبأ أني اشتركت في قتله فلعله لم يبكر إلا لينتظرني..

وسقطت مريضة.. وكنت أبكي وأصرخ وأتوجع وأدعي الألم في عظامي، وهو في قلبي..

ولم أكن أمسك دمعي إلا لأسأل: «هل وجدوا القاتل».. فإن أبي كان يقول إن العمدة لن يستريح إلا إن قبض عليه..

وكانت الشبهة محصورة فى أسرة بينها وبين أسرة أحمد ثأر قديم..

وقال تعلب إنه رأى أحد شبان هذه الأسرة واسمه سرحان فى المحطة وشرب عنده الشاى ولكنه لم يره وهو يطلق النار.

وقبض على سرحان.. ولكن النيابة لم تستطع أن تحصل منه على اعتراف.

* * *

ومضت شهور والتحقيق معلق. وذات ظهر قال لنا أبى وهو متهلل: «ستسمعان خبراً غريباً»..

وظننت أن أبى سيخبرنا أن سرحان قد أقر بجريمته، ولكنه قاطعنى قائلا: «ما لنا والقاتل والقتيل.. تصورى الطابق الذى بناه العمدة والشبابيك التى صنعتها بيدى والترسينة.. إنها لك.. كل هذا العز لك.. فإنك ستكونين حرم العمدة.. ألم أقل لكما أن الفقر والغنى لا يهمان وأن الشهامة هى التى تربط الرجال بالرجال»..

وصرخت معترضة. ولكن صرختى صرعتها لطمة قاسية.. وأيقنت أنه لن يسمح لى بحرمانه من فخر حياته.

* * *

وانتقلت إلى بيت العمدة وأنا أحس لطمة أبى على وجهى وعلى قلبى..

والحق أنه لم تكن لى رغبة فى المقاومة.. فإنما يقاوم من يحب الحياة.. أما وقد ذهب أحمد فإن كل الأمور صارت تستوى

عندى.. وكنت أعتبر الأيام التى جئت أقضيها فى الطابق الجديد أيام فتاة أخرى لا يعنينى أمرها.

وكانت صديقتى بثينة زوجة الابن تسكن الطابق الذى تحتى. وكانت تصعد إلى كلما وجدتنى وحدى وتحاول أن تسلينى وتقول لتضحكنى: «من كان يظن أن زميلتى المدرسة تصبح إحداهما حماة الأخرى.. أتعلمين أنك الآن أمى فى القانون.. زوجى ابن زوجك ولكنه شاحب هزيل يبدو كأنه أكبر من أبيه سناً..

والحق أن العمدة كان فحلا.. وكان يدخن الحشيش مع أصحابه فى الطابق الأسفل ثم يصعد إلى وقد انتصف الليل.. وكان على أن أحتفظ بعشائه ساخناً، وبنفسى فى أبهى زينة، لكى يلتهمنا معاً بشهية الوحوش وفظاظتها.

* * *

وفى تلك الليلة وأنا فى انتظاره رأيت فى الترسينة أصحابه منصرفين.. وانتظرت طويلا أن يصعد ثم خفت أن يكون غلبه النوم فى المندرة كما يحدث له أحياناً عندما يبدأ سهرته بالحشيش ويختمها بالأفيون. وقررت أن أهبط إليه حتى لا يلحقنى تأنيبه.. ولكنى توقفت فى آخر السلم فقد سمعت صوته يرتفع غاضباً وهو يناقش شخصاً وكان الصوت الآخر هو صوت تعلب بائع الشاى فى المحطة يقول فى ارتباك: «وماذا أفعل فى أقوالى أمام النيابة. شهدت أنى رأيت سرحان فى المحطة لكنى لم أره وهو يطلق النار».. ويصرخ زوجى فى غضب: «تذهب إلى النيابة وتغير أقوالك.. وتقول.. إنك رأيت سرحان وهو يقتل أحمد.. وإنك

سكت لخوفك من أهل سرحان.. هذه عشرة جنيهات هل تريدها أم تريد أن أضربك بالنار كما ضربت أحمد؟»..

* * *

كما ضربت أحمد!..

وجدت نفسى فى فراشى أعض الوسادة.. وأخفى فيها لوعتى..

ومع ذلك تحاملت على نفسى وكنت فى استقباله رقيقة مرحة وكأنما ألهمت بالغريزة أن المرأة سلاحها الضعف والرياء.

وجلس لاهثاً ليستريح من صعود السلم وقد أحال الغضب عينيه إلى كأسين من الدم.. وقال لى: «أحضرى الجوزة.. فقد أضاع النكد النفسين اللذين شربتهما تحت».

وجئت بالجوزة.. وكان قد علمنى كيف أضع الفحم على الطباق.. وجلست عند قدميه كالجارية أنفخ النار.. وسألته فى شفقة عن سبب نكده.

قال وهو يمر بيده الغليظة على شعرى: «شغلانة العمودية متعبة.. أريد أن أثبت التهمة على قاتل أحمد.. ولكن الناس لا يساعدوننى»..

فأخذت بيده وقبلتها وأنا أقول له: «يا لك من شهم»..

قبلت اليد التى قتلت أحمد ومسحت خدى فى ركبته..

وشغفه ذلك فرفعنى وأجلسنى فى حضنه..

وصعد إلى رأسه دم النشوة ودوار المخدر وقال، وقد ذهب حذره ومضى يسحقنى على ضلوعه: «الولد أحمد بن وهيبة أحسن صنعاً بموته فلو أنه الآن حى لكان فى وسعه أن يقول إنه مشى

مع حرم العمدة من المحطة إلى القرية تحت عباءة واحدة.. وأن أشياء حدثت فى الطريق!..

* * *

وتمنيت لو أنشبت أظافرى فى عنقه وأصرخ: «ألهذا كلفته حياته ثمناً.. أم أنك توقعت أننى لن أرضى بك وأننى هاربة معه. ولن أكون فريستك وهو حى!..

ولكن بدلا من أن أخنقه مددت أصابعى فى القصبة التى يدخنها، ولأول مرة وضعتها على فمى واستنشقت دخانها المعطر وهو فى دهشة من أمرى، فطالما حاول أن يغرينى بمشاركته ولكنى عصيته..

وكان على حق فى دهشته.. من أين يعرف أنى كنت فى حاجة إلى أن أغيب عن وعيى لكى أقوى على البقاء مع قاتل أحمد فى حجرة واحدة وفى فراش واحد..

* * *

وسبب آخر كان يحبب إلى الغيبوبة.. كنت أريد أن أنام إلى الأبد ولا أحس حركة الجنين البغيض الذى أودعه القاتل فى أحشائى.. كانت هناك وثيقة زواج لكنى لم أقتنع لحظة أنه ابن شرعى لى..

وأنام إلى الأبد أيضاً حتى يقع الحدث الذى كنت أنتظره..

فقد كتبت إلى أهل أحمد رسالة بلا توقيع أخبرهم فيها أنهم يستطيعون أن يشتروا من تعلب الحقيقة.. ومن أجل ذلك كان الانتظار قاسياً ورهيباً..

كنت فى حاجة إلى الغيبوبة لكى أستطيع أن أصبر.. وكنت فى حاجة إليها لكى أنجو من مواجهة الحدث حين يحدث..

ومن أجل هذا امتدت يدى إلى الأفيون الذى كان العمدة يحتفظ به فى مخدعه..

* * *

ولولا الأفيون وعالم الذهول الذى أرسلنى إليه لظللت ساهرة وسمعته يئن وينزف الدم فى بئر السلم..

هناك وجدوه فى الصباح جثة هامدة، وفى رقبته وصدره سبع طعنات كلها فى مقتل..

ووجدت نفسى أصرخ.. وظن الناس أنى مفجوعة فيه، ولم يعرف أحد أن فجيعتى كانت فى أحمد، وأننى وجدت الفرصة لأبكى عليه بلا رقيب..

وورثت العمدة.. ورثت عنه تسعين فداناً.. لكننى رفضت الميراث الذى تركه فى أحشائى وخلصتنى منه إحدى القابلات..

ولما وجدت المال فى يدى جئت إلى المدينة وعشت فيها.. وأعطتنى كل ما يشتريه المال لكنها لم تعطنى النسيان.. وعدت إلى المخدر لكى ينعم على بالغيبوبة الطويلة ويريحنى من التفكير

المرير.. إن كل من مروا فى طريقى كان نصيبهم القتل.. «أحمد» والعمدة والروح البريئة التى لم تر النور»..

عشر سنين الآن أيها الطبيب وأنا عبدة للمخدر.. أغضب عليه فى الصباح وأضرع إليه فى الضحى.. وكأنه عاشق نذل وهبته حياتى..

* * *

هذه هى يا سيدى الطبيب قصتى.. قصصتها عليك مفصلة ولم أخف عنك شيئاً.. وبقى أن تفعل أنت شيئاً.. فهل أنت مستطيع بهذه الصورة على الحائط التى توحى بالأمل.. وبهذه الأريكة المريحة التى تغرى بالهذيان والاعتراف.. هل أنت مستطيع أن تشفينى؟.. ليتك تستطيع.. خذ كل ما أملك.. الأرض الملعونة.. والحلى والنقود.. وأرجعنى طالبة تقف فى المحطة.. تنتظر القطار.. وتصغى خلية القلب لقصص تعلب..

● إحسان عبد القدوس

الله محبة

كان كل شيء بينهما يبدو طبيعيًا، كما يبدو بين كل فتى وفتاة.. وليس فيه شذوذ. ولا غرابة، ولا ينذر بمأساة..

كان شقيقاً لإحدى صديقاتها، وكانت تراه دائماً كلما رأت شقيقته، ثم أصبحت ترى شقيقته كلما رأته، ثم أصبحت تراه دون أن ترى شقيقته!..

وإذا بها فى شوق دائم إليه.. إلى وجهه الأسمر فى لون البن المحروق.. وعينيه السوداوين الذكيتين، وقامته المديدة كأنه فرعون صغير، ولم يكن يميزه عن فرعون إلا أدبه الكثير، وصوته الخفيض، وكلماته التى ينطقها ببطء كأنه ينتزعها من بئر عميقة، وينطقها بلهجة صعيدية يحرص عليها رغم أنه لا يزور الصعيد إلا فى كل عام مرة أو مرتين ليجمع محصول أرضه...

وإذا بها تعيش دائماً معه، فى ذكرى لفتاته ولمساته وابتساماته النادرة. وإذا بها تضحك كلما تذكرت لهجته الصعيدية، ثم تقلده فيها حتى كادت هى الأخرى تنطق بها.

وعندما التقت شفتاها بشفتيه لأول مرة، عرفت أنها تحبه.. وإن لم تعرف إلى أى حد يمكن أن تحبه!..

ولم تكن فى شك من أنه يحبها.. إنها تقرأ الحب فى عينيه، وتشربه من شفتيه، وتسمعه مع أنفاسه..

إنها تحبه.. ولكن إلى أين؟..

إلى أين هذا الحب؟!!..

وحاولت أن تهرب من تساؤلها.. حاولت أن تهرب من مستقبلها.. حاولت أن تهرب من الحقيقة التى تجاهلتها منذ أن رأته ومنذ أحبته..

إنه قبطى..

وهى مسلمة..

ومضت بها الأيام فى عذاب، وذبلت عيناها تحت ثقل دموعها، وذوى عودها حتى كأنها تجف، وسقطت سحابة فوق وجهها فبدت كأنها تعيش دائماً فى سحاب.. وكانت تراه فترى دموعها فى عينيه، وترى كأنه مع عودها فى سباق نحو الجفاف، وتراه يعيش معها فى سحاب.. كانت تعلم أنه يتعذب مثل عذابها، وأكثر..

وبرغم ذلك لم يواجها الحقيقة..

لم يقل لها إلى أين.. ولم تسأله إلى أين..

ولكنها لم تستطع أن تهرب طويلا من تساؤلها، ولا من مستقبلها.. كانت كلما ضم شفتيه إلى شفتيها سمعت دقًا كأنه دق دفوف الزفاف، وكلما أراحت رأسها على صدره أحست أنها فى «الكوشة» وكلما رأته آتياً نحوها من بعيد خيل إليها أن الملائكة ينشدون من حولها:

«مبروك عليك عريسك الخفة»!!

وكان يجب أن تبحث عن حل.. عن نهاية يستقر عندها حبها..

وبدأ تفكيرها يتخذ خطوطاً عملية.. إنه يستطيع أن يشهر إسلامه.. ويستطيع بعد ذلك أن يتزوجها..

إنها مجرد شكليات.. أن يذهب إلى المحكمة الشرعية ويقول أمام القاضي: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله».. ثم يصحبها بعد ذلك إلى المأذون!..

واستراحت إلى هذا التفكير، وقررت أن تدفعه إليه..

وكأنهما كانا على موعد.. فلم يكد يلتقي بها ويسحب شفتيه من فوق شفتيها، حتى قال بصوته الخفيض وكأنه ينزع كلماته من بئر عميقة:

– لقد فكرت طويلا.. يجب أن ننتهي إلى حل..

قالت وكأنها تزغرد:

– هل تشهر إسلامك؟!

وصمت طويلا وكأن شفتيه الرقيقتين قد اختفتا من وجهه، وعادت تقول وقد انهارت فرحتها:

– إنك لا تريد.. لا تريد أن تتزوجني.

وتحركت شفتاه ببطء..

– لي سؤال واحد..

– ماذا ؟..

– هل لو طلبت منك أن تخرجي عن دينك.. تخرجين؟

وأجابت فوراً، وكأنها لم تفكر، ولا تريد أن تفكر:

– نعم..

ثم سكتت ولم تعلق بشيء، وكأنها أحست بخطورة ما وافقت عليه.. أحست بأن شيئاً كبيراً مجهولا قد تخلى عنها، وتركها معلقة بين السماء والأرض، وسلط عليها هواء رطباً يملأ صدرها ويعصف في عروقها..

وابتسم ابتسامة حانية وقال وهو يحتضنها بابتسامته، ويمسح بيده فوق رأسها كأنها يد قسيس طيب تباركها:

– إلى هذا الحد؟!!!..

قالت وهي لا تنظر إليه، وليس في صوتها سوى حشرجة:

– لقد قلت إننا يجب أن ننتهي إلى حل.. أي حل!!..

قال وقد أحس ما بها:

إن كلا منا يريد أن يضحي للآخر بأعز ما يملك.. ولكني لا أريدك أن تضحي، أو على الأقل لا أريد أن أضحي بديني لمجرد أنه مفروض في أن أضحي به..! لنترك الله يختار بيننا.. فهو صاحب دينك ودينى..

– وكيف يختار الله؟!!..

– لنجرب الحظ.. فهو أبسط مظاهر حكم القدر..

وأخرج من جيبه قطعة نقود فضية، وقدمها إليها قائلا:

– اختاري لك وجها..

وابتسمت، أو حاولت أن تبتسم، واختارت أحد وجهي قطعة النقود، واختار هو الوجه الآخر، ثم وضع قطعة النقود في يدها قائلا:

– اقذفى بها فى الهواء.. والوجه الذى يسقط إلى أعلى يغير صاحبه دينه!!..

وحاولت مرة أخرى أن تبتسم، ولكنها لم تستطع ووجمت، وأحست أنها مقدمة لتسير فوق الصراط المستقيم.. وعندما قذفت بقطعة النقود فى الهواء أحست أنها تقذف بقلبها..

وانحنت إلى الأرض وقد جحظت عيناها، وكتمت أنفاسها.. ثم شهقت شهقة خافتة، ورفعت رأسها وقد تصلب وجهها وتاهت نظراتها..

أصبح عليها أن تغير دينها وتعتنق المسيحية.

وارتبك وهو بجانبها، ولم يدر ماذا يقول، ثم افتعل ضحكة جافة.. قائلا:

– هل صدقت؟!!. لقد كنت أهزر إنها نكتة أردت أن أسليك بها.. لا تأخذيها على محمل الجد.. إن الإنسان لا يقامر بدينه، وهذا نوع من القمار..

قالت وهى لا تزال ساهمة:

– إنه القدر.. والحب قدر!!..

– لا.. لن أسمح لك..

– لا تتعب نفسك.. لقد قررت..

– قل لى.. هل كنت تشهر إسلامك لو رفضت أنا أن أعتنق المسيحية؟!

ولم يجب، ولكنها لمحت دموعه فى عينيه.. دموعا تشهد على حبه، وتقسم بجميع الأديان أنه لها.. فانكفأت على صدره تبكى.. وجمعتهما الدموع فى دين واحد..

ولم تنم ليلتها..

ولم تحس بالإسلام وبأنها مسلمة.. قدر ما أحست هذه الليلة.. بل خيل إليها أن كل حياتها وكل ذكرياتها كانت كلها للدين.. أشياء صغيرة مرت بها ولم تكن تذكرها أصبحت تذكرها وكأنها قطعة من حياتها.. الحاجة أم إبراهيم مربية والدها التى تأتى لزيارتها كل أسبوع لتبخر البيت ثم تطوف فوق رأسها بالمبخرة وهى تقرأ الأوراد وتتلو الأدعية.. وأم عبده «الماشطة» التى كانت تدخل معها الحمام فى صغرها وتدلك جسدها البكر وهى تسكب فوقه الماء الساخن، وتتمتم «اللهم صلى عليه وسلم.. قل أعوذ برب الفلق من شر حاسد إذا حسد».. وزيارتها «للقرافة» لتقرأ الفاتحة.. وصوت المقرىء الذى ينبعث من الراديو ويتلو القرآن وقسمها بالنبى فى كل مناسبة.. أى نبى تقصد عندما تقسم اليوم؟!!..

إنها مسلمة ولم تكن تدرى أن الإسلام يعيش فى حياتها إلى هذا الحد.. إنها لا تصلى ولا تصوم، ولكن هناك من الإسلام شىء أكثر من الصلاة والصوم، شىء يختلط بدمها، ويتردد مع أنفاسها ولم تكن تحس به لأن الإنسان لا يحس بدمه ولا يعد أنفاسه..

وكادت تجن..

يارب.. لماذا لم توحد الأديان.

يارب.. وإذا كانت هذه إرادتك فما ذنبى أنا!!

وقامت فى الصباح مقرحة الجفنين، كأنها أفاقت من إغماء..

وذهبت للقائه، وصحبها إلى قسيس ليسألاه عن الإجراءات المتبعة.. وكانت تسير بجانبه صامتة، متصلبة العود، شاردة النظرات كأنها آتية من عالم آخر.. وكانت تسمع صوته وكأنه آت من بعيد.. من بعيد جدًا.. ولا تجيب عليه إلا بهزات رأسها وكأن الناس فى هذا العالم الذى أتت منه ليس لهم ألسنة..

ونظرت إلى القسيس دون أن تراه.. وخيل إليها أنها أمام عملاق ضخم مجلل بالسواد.. وأن رأسه كبير.. كبير جدًا.. وذقنه سوداء تتدلى حتى ركبتيه.. ولم تسمع شيئاً مما كان يقوله الرجلان وهى بينهما.. إنما شردت عيناها تطوفان بالغرفة، ثم سقطت فوق لوحة معلقة الجدار.. ولمحت شيئاً مكتوباً على هذه اللوحه.. حروفاً لا تستطيع أن تلتقطها بعينيها الشاردتين، إنما هى تهتز وتتموج كأنها حروف مكتوبة فوق الماء..

وأجهدت عينيها، ودققت النظر، وحصرت ذهنها، إلى أن اتضحت الحروف أمامها..

وقرأت: الله محبة..

وابتسمت ابتسامة باهتة.. ثم ابتسم وجهها كله.. وارتخت أعصابها المتصلبة، وارتاحت عيناها الشاردتان..

وأحست أن قلبها يهلل ويضحك ويملأ الدنيا كلها ضحكاً..

إن الله محبة.. الله الحب..

إذن فهى مع الله، لأنها تحب، ولأنها هنا من أجل الحب..

والتفتت إلى القسيس لتراه لأول مرة.. وخيل إليها أنه جميل.. وجميل جدًّا.. أشبه بكيوبيد إله الحب الذى يصورونه فى الكتب..

اقترب منها القسيس وربت على كتفها بيد حنون وهو يقول فى صوت كأنه نغم مزمار.. مزمار داود: «بارك الله لك يا ابنتى»!

وطأطأت رأسها وقد استبدت بها السعادة حتى خجلت منها.. ثم انصرفت مع فتاها..

وسألته وهما فى الطريق:

– إلى أين؟

– إلى المحكمة الشرعية..

– لماذا؟..

– ألم تسمعى ما قاله القسيس!!

– لا..

– إنك لا تستطيعين أن تغيرى دينك لأنك لم تبلغى سن الرشد بعد..

– وما العمل؟..

– سأعتنق أنا الإسلام..

وتعلقت بعنقه وأخذت تقبله فى جميع أنحاء وجهه..

وقال وهو يقود سيارته:

– هذه المرة.. إنه القدر!..

وتم إشهار إسلامه.. ولم يكن الأمر لديه يتعدى مجرد شكليات يفرضها عليه المجتمع، ومجرد ورقة يوقعها إرضاء للحكومة.. إن ما بينه وبين الله فى قلبه وفى سريرته لا شأن للمجتمع ولا للحكومة ولا للمشايخ ولا للقسس به. والله ليس فى حاجة إلى هذه الإجراءات ليعرف إيمانه، وهذه الإجراءات أيضاً لن تبدل شيئاً مما بينه وبين الله..

أشهر إسلامه وهو لا يشعر بشيء إلا شعوراً أشبه بالتحدى... تحدى قومه وتحدى قوم فتاته... وربما ارتجفت شفتاه وهو يتلو الشهادتين، وربما ارتعشت يده وهو يوقع الأوراق، ولكنه كذّب رجفته وانكر رعشته وأقنع نفسه بأنه يؤدى واجباً يفرضه عليه النبل، والشهامة، والحب.. وكلها صفات من صفات الله..

وكان عليه بعد ذلك أن يذهب إلى شقيق الفتاة ليخطبها منه إلى نفسه.. وكانت هذه الخطوة أصعب عليه من تغيير دينه.. بل إنه لم يحس أنه قد خرج عن دينه إلا وهو جالس إلى شقيق الفتاة كالتلميذ المرتبك أمام لجنة الامتحان.. يحاول أن يتذكر كل ما اختزنه فى رأسه فلا يذكر منه شيئاً..

وقال الأخ الكبير فى هدوء:

– إنى لا أستطيع أن أعترض، فأنت تملك جميع صفات الزوج الكامل ولكن..

وسكت الأخ قليلا، وتعلقت أنفاس الفتى بشفتيه..

واستطرد الأخ قائلا:

– هل تجيبنى بصراحة لو سألتك؟!..

– سأحاول..

– هل أشهرت إسلامك إيمانا منك بالإسلام، أم لمجرد الزواج من شقيقتى.

وسكت الفتى طويلا.. واحتقن وجهه.. وأخذ يضغط بيده على الأخرى.. ثم قال وهو يختار كلماته بدقة حتى لا يخطىء، وكأنه يختار مواضع قدمه فى طريق مليء بالأشواك:

– الواقع أنى لم أكن متدينا أبداً.. كنت قبطيا بالوراثة، وكنت أشترك فى القليل من مراسم الدين بحكم العادة وبحكم وجودي بين أفراد عائلتى.. ولكنى لم أحاول أبداً أن أعى الديانة وعياً كاملا أو أومن بالدين إيماناً مفصلا.. إنما كنت دائماً أومن بالله إيماناً مطلقاً مجرداً، وأخافه، وأتقى غضبه. وكنت أومن بالصدق والأمانة وبقية المثل العليا دون أن أربط هذا الإيمان بالدين.. فإذا كان هذا حالى وأنا قبطى، فلا تنتظر منى أن أقول إنى أومن بالإسلام كدين مفضل، بل إنى أعترف لك أنى لا أعلم من الإسلام إلا أنه دين سماوى.

– إذاً فأنت لا تؤمن بالإسلام.. ولا بالمسيحية!!

– إنى أومن بالله.. وكل الأديان لله!!

– إن الإيمان يحتاج إلى قواعد يرسو عليها، وإلى خطوط تحدده حتى لا يكزن إيماناً مائعاً يخضع لهوى النفس ولأطماع البشر.. والله عندما فرض علينا الإيمان به فرض علينا أيضاً صور هذا الإيمان

وتفاصيله، وربط نواصيه ربطاً محكماً حتى لا يترك فيه ثغرة يدخل منها المجادلون وبصحبتهم الشياطين ليضللوا العباد باسم الله سبحانه وتعالى..

– إني أحسدك على إيمانك، وهو نوع من الإيمان يحتاج إلى قوة روحية لا أملكها.. ولكني لا أريد أن أتزوج شقيقتك في الآخرة، إنما أريد أن أتزوجها في الدنيا.. والدنيا لا تتطلب مني كشرط لزواجها إلا أن أكون قادراً على إسعادها، فاكتف بهذا وأنت تحاسبني، ودع الله يحاسبني على الباقي.

– إن الإيمان شرط لحياة الدنيا وحياة الآخرة.. والله يحاسبك في الدنيا والآخرة.. وأنا أحاسبك باسم الله، وبكتاب المسلمين وكتاب الأقباط..

– إني أحبها.. والله مع الحب!

– إن الحب إيمان.. والإيمان يبدأ بالله والدين!

– إن الله جمع بين قلبينا، وأنت تريد أن تفرق بيننا.. إنك تتحدى الله.

– أستغفر الله.. ولو كان الزواج هو مجرد الجمع بينكما، لتركتكما لله يصدر فيكما حكمه.. ولكن الزواج هو الأولاد وهو المجتمع.. وأنا لا أستطيع أن أغمض عيني عن جريمة ترتكب في حق أولاد لم يولدوا وفي حق المجتمع.. تصور أولادك عندما ينشأون وهم لا يدرون إن كانوا مسلمين أو أقباطاً.. لا يعرفون نبيًّا يقدسونه، ولا يعرفون قديسين وأولياء يتشبهون بسيرتهم،

ولا يسمعون هذه القصص الدينية التى تبدو ساذجة، ولكنها تترك فى نفوس الأطفال خطوطاً عميقة تنمو معهم وتصون مبادئهم، ولا يمارسون هذه التقاليد والطقوس الدينية التى تبدو فطرية تافهة ولكنها تحيط القلوب الصغيرة بأغلفة من السمو الروحانى وتقطر فيها الإيمان قطرة فقطرة حتى تصبح قلوباً كبيرة محصنة أمام الشر وأمام الخطيئة..

وسكت الأخ الكبير كأنه يقيس وقع كلامه على الفتى، بينما الفتى منكس الرأس يدق الأرض بقدمه دقات خفيفة متوالية كأنه لا يريد أن يسمع ولا يريد مزيداً من الكلام..

واستطرد الأخ قائلا:

– انظر إلى نفسك، إنك فتى صالح. أتدرى سر صلاحك وقوة خلقك؟ إنهما فى طفولتك وفى نشأتك.. لقد نشأت وأنت تعرف دينك، وتعرف نبيك، وتربت مخافة الله معك، وشربت الصدق والإخلاص وبقية المثل العليا مع لبن أمك، حتى لو أنك اليوم تنكر الدين، وتنكر تفاصيله، وتنكر طقوسه.. إنى أريد أولاد أختى أن يكونوا مثلك ومثلى، لا أريدهم حيارى بين أم تؤمن فى قرارة نفسها بالإسلام، وأب يؤمن فى قرارة نفسه بالمسيحية، وكل منهما يخاف أن يفصح عما فى قرارة نفسه خوفاً من إغضاب الآخر، وكل منهما يخاف أن يروى لأولاده قصص دينه، ويمارس أمامهم تقاليده وطقوسه.. ثم المجتمع.. و..

وقاطعه الفتى وهو يصفع ركبته بكفه فى حركة عصبية:

– يبدو أننا لن نتفق. وقد كدت أيأس !

– خير لك أن تيأس..

– إذاً، فلن توافق على الزواج..

– وسأمنعه بكل ما فيّ من قوة..

– وتتركنا للعذاب!!

– إني أوفر على أختي عذاباً كبيراً..

– وتظن أن الله يرضى عنك؟

– إني أتقى غضب الله !..

وانتفض الفتى واقفاً، ومد يدا باردة إلى الرجل، ثم اتجه نحو الباب.. وفي البهو الخارجي التقى بالفتاة واقفة وبين عينيها سؤال متلهف، قرأت جوابه في وجهه المربد وعينيه الغاضبتين وشفتيه المزمومتين حتى كادتا تختفيان من وجهه.. فشهقت ووضعت كفها فوق شفتيها حتى تكتم شهقتها وارتفعت في عينيها نظرة فزع وألم كأنها رأت قلبها يذبح أمامها..

ووقف الفتى قبالتها برهة، ينظر إليها ولا يتكلم ولا يمد لها يداً.. ثم نقل عينيه إلى أخيها.. ثم خرج!!..

وفي الليلة نفسها صحب الأخ شقيقته إلى عزبته، ومعها دموعها..

وهناك مرت بها الأيام وهي في كل يوم تفقد شيئاً من نفسها حتى خيل للناس أنها فقدت عقلها..

جفت حتى أصبحت كعود الحطب لا يرويه ابتسام ولا ترويه دموع.. وشرد كل ما فيها حتى لم يعد فيها شيء.. ولم تعد تتكلم، ولم تعد تسمع شيئاً مما يقوله لها أخوها، ولم تعد تحس

بجوع أو بشبع، ولا بظمأ أو ارتواء، ولم تعد تقف أمام مرآتها، أو تضع الطلاء على وجهها، أو تمشط شعرها، أو تبدل ثوبها.. أصبحت كياناً مذهولا يطوف كالخيال بين أربعة جدران..

لم يعد فيها إلا شيء واحد علامة الحياة.. عيناها.. كان فيهما دائماً بريق خاطف وكانتا دائماً مفتوحتين، وكانتا دائماً تبحثان عن شيء.. ربما شيء في عقلها أو شيء في قلبها، أو شيء وراء الحياة..

ثم بدأت تميل إلى امرأة معينة من نساء العزبة.. تدعوها دائماً إلى صحبتها ولا تتناول شيئاً إلا من يدها، ولا تتكلم إلا معها.. وأحبتها المرأة، وحنت عليها ودللتها، وأخلصت في خدمتها..

وجلست يوماً تكتب خطاباً.. خطاباً قصيراً.. بضعة كلمات مرتعشة:

«حبيبي..»

«لم أعد أحتمل.. إني أحس بالجنون يزحف فوق صدري.. سأذهب إلى الله.. ربي وربك.. ربما التقينا هناك!»

وأعطت الخطاب إلى المرأة لتلقيه في صندوق البريد في خفية من أخيها.. ثم أرسلتها بعد يومين لتقف عند باب العزبة في انتظار موزع البريد، ربما يأتي إليها برد..

وجاءها الرد.. قصيراً.. بضعة كلمات مرتعشة:

«حبيبتي..»

«لا تذهبي وحدك.. انتظري، سأذهب معك.. اخبريني كيف تذهبين ومتى تذهبين.. التاريخ والساعة بالضبط، حتى نصعد سويًا فلا يضل أحدنا طريقه إلى الآخر.. إن الله موافق على زواجنا والملائكة يعدون حفل الزفاف..»

وفي يوم معين في ساعة معينة، ارتفعت صرختان من ألم في وقت واحد.. إحداهما في عزبة شكري بكفر صقر والثانية في شارع شيكولاني بحي شبرا..

وخرجت سيارة من عزبة شكري تطوى الأرض نحو المركز لاستدعاء طبيب، وكان الطريق طويلا والطبيب متكاسلا، وعندما عادت به السيارة إلى العزبة، كانت الصرخة قد سكنت.. إلى الأبد!!

واستدعى الطبيب القريب في حي شبرا فجاء سريعاً.. واستطاع أن يطرد الموت من حول الفتى وأن يسترد السم من أمعائه قبل أن يفتك بها..

كانا قد اتفقا على كل شيء.. اليوم، والساعة، ونوع السم.. ولم يبق أمامهما إلا الزفاف إلى السماء..

ولكن الله أرادها وحدها.. وتركه في الدنيا وحيداً مع عذابه في انتظار زفافه إليها.. إنه يعيش منذ عامين يستجمع شجاعته ليحاول اللحاق بها مرة أخرى.. والطريق صعب، وقد جربه مرة، وذاق أوله، فلم يستطع ان يجربه مرى أخرى..

إنه يعيش هيكلا متداعيا من ذكريات حبه.. هيكلا يضم من الروح نسمات هافتة.. ويضم من الموت فراغاً كبيراً هائلا..

يعيش وهو ينثر العذاب من حوله.. فقد عرفت الفتيات القبطيات قصته، وحاولت كل منهن أن ترد له الحياة وتبعد عنه الموت، فلم تنل منه إلا أن تعذبت معه وبه..

ابعدوا عنه.. إنه معذب ينثر العذاب !..

ولكن.. أين الأخ الكبير الجليل ؟..

إنه يصلى !!..

• نجيب محفوظ

عنبر لولو

قام الكشك فى الوسط من الحديقة الجنوبى. كشك مصنوع من جذور الأشجار على هيئة هرم تكتنفه أغصان الياسمين. وقف فى وسطه كهل أبيض الشعر نحيل القامة مازال يجرى فى صفحة وجهه بقية من حيوية. جعل ينظر فى ساعة يده ويمد بصره إلى الحديقة المترامية مستقبلا شعاعاً ذهبيًّا من الشمس المائلة فوق النيل نفذ إلى باطن الكوخ من ثغرة انحسرت عنها أوراق الياسمين. ولاحت الفتاة وهى تتجه نحو الكشك سائرة على فسيفساء الممشى الرئيسى. أحنت هامتها قليلا وهى تمرق من مدخل الكشك القصير، ومضت نحو الكهل بوجهها الأسمر وعينيها الخضراوين. تصافحاً. ثم قالت بصوت ناعم ونبرة اعتذار:

– إنى خجلة!

فقال الكهل برقة:

– يسرنى أن ألقاك.

– لا يحق لى أن أنهب وقتك.

– لا يعد ضائعا وقت نمنحه لعلاقة إنسانية.

– شكراً لطيبة قلبك.

أشار إلى الأريكة داعياً إياها للجلوس فجلست ثم جلس. وقالت:

– لـم تسعفنى الجـرأة على طلب مقـابلتك إلا لأنى فى مسيس الحاجة إلى رأى حكيـم.

– كل إنسان عرضة لذلك، غير أن من يراك فى الإدارة لا يتصور أنك تحملين هما !

– دعك من المظاهـر!

فهز رأسه موافقاً فـواصلت:

– وتساءلت طويـلا إلى مـن يحسن بى أن ألجـأ، حتى هـدانى التفكير إليك.

–أستغفر الله.

وتريثت لحظات ثم قـالت:

– إنك لا تعـرفنى إلا كزميلـة فى إدارة السكرتاريـة.

– بلى.

– فعلى أن أقدم نفسى الحقيقيـة..

– أهلا بها.

– هى نفس مقضى عليها بالسجن المؤبـد فى شقـاء دائـم..

– أرجو أن تتكشف بعد تبادل الرأى عـن مغـالاة عاطفيـة..

– بل هى حقيقة واقعيـة..

تجلى الاهتمام فى عينيه وهو يقـول:

– إنى مصغ إليك..

فقالت وهى تتنهد:

– حسبى أن أعرض عليك الفصل الأخير من المأساة..

فتجلى الاهتمام بصورة أوضح.

– إنى يتيمة الأبوين، لى إخوة ثلاثة صغار، نقيم فى بيت زوج المرحومة أمنا..

– وضع معقد..

– وأبعد ما يكون عن الراحة..

– لا يمكن إنكار ذلك.

– وهو رجل عنيد متعجرف.

– زوج المرحومة ؟

– دون غيرة..

– أهو عجوز مثلى ؟

– بل أكبر، وهو لا يحبنا !

– هل أنجب لكم إخوة ؟

– كلا، إنه عقيم !

– ذلك مدعاة لحب الأطفال.

– ولكنه شاذ، وقد أفهمنى عقب وفاة والدتى بأننى المسئولة وحدى عن إخوتى.

وساد الصمت مليًا حتى استطردت قائلة:

– لعله بقراره لم يجاوز العقل!

– بلى ولكنه جاوز الرحمة..

– على أى حال أنا لا طمع فى رحمته!

– مفهوم.

وهو يمن علينا بالمأوى وببعض المساعدات وإن يكن يحتسبها ديوناً مؤجلة..

هز الكهل رأسه دن أن ينبس فقالت متنهدة:

– لعلك تخيلت الصورة التى أعيش فى إطارها، والحق أنى لا أملك النقود اللازمة لملابس فتاة موظفة..

– وشابة فى عز شبابها !

– هكذا تمضى الأيام فى قسوة ومرارة، تحت رعاية عنيفة لا تعرف الرحمة، بلا أمل، أى أمل فى غد أفضل !

فقال الكهل كالمحتج:

– لا يجوز أن ننظر إلى الحياة بهذه العين.

– ولو كانت بالحال التى ذكرت ؟

– ولو كانت!

ثم تساءل وكأنه يناجى نفسه:

– منذا يقطع بما يخبئه الغد ؟!

فرفعت منكبيها زهدًا فى مناقشة فكرته وقالت وهى تتنهد:

– وإذا بى أشعر بزحف الزمن، ومن خلال حياة التقشف والمرارة أخذ الزمن يطاردنى..

– ولكنك مازلت فى مطلع الشباب.

– إنى فى الرابعة والعشرين من عمرى..

– عز الشباب !

– ولكنه فى مثل حالتى يعد مرحلة من الشيخوخة..

– لا داعى للمبالغة، إن وضعك، ليس الوحيد من نوعه فى بلادنا، ما أكثر أشباهه وإن اختلفت الظروف والأسباب.

فرمته بنظرة غامضة وقالت:

– ولكنى لم أحدثك بعد عن المشكلة الحقيقية !

– الحقيقية ؟!

– التى تتحدانى فى اليقظة والمنام !

– غير ما سبق ذكره ؟

– ما حدثتك عنه حال يمكن اعتيادها كما يعتاد المريض مرضه المزمن.

فرفع الكهل حاجبيه متسائلا فقالت:

– أصبحت أشعر بشبابى لا كفترة من العمر تتسرب فى ضياع، ولكن كقوة دافعة، قوة قاهرة، كهبة مقدسة، وحق إلهى!..

نظر الكهل فى بريق عينيها الخضراوين كالمأخوذ فقالت بنشوة وحماس:

– كم تنازعنى نفسى إلى أشياء وأشياء، إلى كل شىء، إلى الوجود كله!

ثم وهى تخفض عينيها ونبرة معتصرة بالحسرة والحزن:

– أود أن أرقص وأغنى وأمرح !

اختبأ الكهل فى صمته وهو يطبق شفتيه متفكراً. ولما طال انتظارها قالت:

– لعلى دهمتك بصراحتى !

فأصر على الاختباء فقالت:

– لم تتوقع ذلك، أصبحت الأكاذيب وجبات يومية متكررة، ولكن ما جدوى هذا اللقاء إذا لم أكاشفك بدخيلة نفسى ؟!

فتمتم الرجل بحذر:

– صراحتك مشكورة !

– وكان على أن أعلن ما فى نفسى أو أجن، ولكن كان على أيضاً ان أختار الرجل المناسب، وكنت تخطر على بالى دائماً، رجل وقور ومحبوب وذو سمعة طيبة، له تاريخ مجيد قضى عليه بأن يكون ضحية فتعلقت به قلوب الضحايا !

– أشكر لك إنسانيتك ولطفك.

– لا أنكر أن لى صديقتين حميمتين فى المصلحة ولكنى لم أفد من رأيهما ما يذكر!

– هل كاشفتهما بما كاشفتنى به ؟

– كلا ولكنى سألتهما الرأى فى مناسبات جادة وخطيرة !

– بم نصحاك؟

– بدت لى إحداهما أبعد ما تكون عن الرحمة !

– زيديني إيضاحاً.

– ليس الآن موضعه.

– والأخرى؟

– إنها غاية في الغرابة، قالت لي إن مشكلتي عامة وإن بدت خاصة وأنها لا تحل بالحلول الفردية، وأن علينا أن نغير تفكيرنا من جذوره لنحقق تغيراً عامًا وشاملا...

فابتسم قائلا:

– ليس رأيها بالجديد على مسمعي، ولكن كيف كانت استجابتك لها ؟

– لم يستمر ما بيني وبينها طويلا بعد ذلك فقد ألقى القبض عليها فجأة.

– عرفت المعنية بحديثك، أليست هي زميلتنا السابقة بالحسابات؟

– بلى، وهكذا لم أجد أحداً سواك..

فقال بلهجة أبوية:

– إنك تنظرين إلى الأمور بمنظار أسود، ونسيت أنك قد ترزقين بابن الحلال غداً أو بعد غد !

– أبناء الحلال متوفرون..

– ألم يقع اختيارك على أحدهم ؟

– كلا، إنهم موظفون شبان في مستوى مادي لا يختلف عن مستواي، وقبول يد أحدهم يعني التخلي عن إخوتي، ودعنا من تكاليف الزواج ومشاكلها !

فقال الكهل بإصرار:

– عسى أن يجيء عريس غنى يقوم بكافة التكاليف ويسمح بالنزول عن مرتبك لإخوتك !

– هذا حلم وليس عريساً !

– الأحلام توجد كما توجد الحقائق.

– أرفض أن أقيم ميزان حياتى على الأحلام، إنى أعيش فى جفاف قاتل وبلا أمل، ونفسى تتحرق إلى الحياة والسعادة، وفى كلمة أود من أعماقى أن أرقص وأغنى وأمرح..

رجع الكهل إلى حيرته وصمته فقالت بوضوح:

– هذه هى مشكلتى الحقيقية !

ولما وجدته مصرًّا على الصمت عادت تقول:

– يسعدنى أنى وجدت أخيراً الشجاعة لمصارحتك بها !

فجعل يغمغم بكلمات مبهمة فقالت باسمة:

– وطبيعى أن أنتظر منك شيئاً غير الصمت..

فجمع عزمه وقال:

– إنى بطبعى وتاريخى أرفض التسليم بوجود طرق مسدودة !

– ولكن طريقى مسدودة !

– ما تزال..

– أرجو أن نعتبرها كذلك إكراماً لى، أنا لم ألجأ إليك إلا مطاردة بسياط الجزع، وبعد كفر بالأحلام والخوارق !

فقال بوضوح:

– لا رأى عندى دون مراعاة كاملة للكرامة !

– الكرامة ؟

– أعنى السلوك الخليق بفتاة محترمة.

فقالت بتحد:

– لقد جئتك وأنا على علم غزير بالنصائح التقليدية !

– طيب، هل تتوقعين لدى رأيا آخر ؟

– نعم !

– أن أسوغ لك السقوط ؟

– نعم !

فتساءل الكهل بذهول:

– ألم تجئينى مدفوعة بما ذكرت عن تاريخى وحسن سمعتى ؟

– بلى !

– وتصورت بعد ذلك أن أبارك سقوطك ؟

– نعم !

فضحك الكهل على رغمه وقال:

– الحق أنى لا أفهمك..

– ولكننى واضحة كضوء الشمس !

– الرقص والغناء والمرح ؟

– نعم !

– خبريني عما تتوقعين منى ؟

– أن تصرح لى بأن النهل من متعة الحياة ليس سقوطاً !

– ولكنه ينقلب كذلك أردنا أم لم نرد !

– وإذن فما على أن أصبر حتى أذوى وأذبل وأموت ؟

– بل حتى تفرج..

– كلام لن يكلفك شيئاً ولكنه سيكلفنى حياتى..

فقال متحايلا للهروب من حدة الموقف:

– حدثينى عن رأى صديقتك الأخرى، أعنى التى لم تعتقل ؟

– كان الحديث لمناسبة تقدم شاب لخطبتى فطالبتنى بأن أقبله دون تردد، وأما عن إخوتى فقد قالت ليس من حق أحد أن يضحى بحياة آخر فى هذه الدنيا قصيرة الأجل !

فهز الكهل رأسه فى حيرة صامتاً فقالت:

– ولكنى أرفض التضحية بإخوتى !

– بالك من فتاة نبيلة !

– ولكن من حقى أن أحب الحياة، وأن أستمتع بهذا الحب..

– إذا فقدنا الكرامة فإنه لا يطيب لنا شىء.

– من الذى خلق الكرامة ؟

– خلقتها السماء كما خلقتها الأرض..

– ألم تسمع عما يقال عن الفتاة الأوربية ؟

– إنها تنتمى إلى حياة أخرى فى أوربا ولست أملك المعرفة ولا أملك الحكم عليها..

– ولكنها أثبتت لنا أنه من الممكن الاستهانة بالتقاليد الموروثة دون التضحية بقيم إنسانية باهرة !

– قلت إنى لا أملك الحكم عليها..

– هل تهرب من مواجهة الحقيقة ؟

– بل أتكلم بما أعلم..

– أخشى أن تعدنى مسئولية ثقيلة اعترضت طريقك الهادئ ؟

– بل أود مساعدتك بكل قلبى..

فقالت برجاء:

– إذن قدم لى نصيحة مبتكرة..

– مبتكرة !!

– أجل، لم أعد أومن بالماضى، لقد ورثت تعاستى عن الماضى، لذلك أكره كل ما يمت إليه بصلة، هبنى نصيحة مبتكرة ولو هزئت فى النهاية بما سميته بالكرامة !

– ولكنى صارحتك بما أومن به.

– إنك رجل غير عادى، لابد أن تنبع منك أفكار مبتكرة، أفكار لا تستمد سدادها من قول سلف أو من عادة أثرت..

– من حقى، ومن واجبى، أن أكون مخلصا لطبعى أبداً.

فقالت وهى تنظر فى عينيه بجرأة:

– أحياناً يخيل إلى أن شراً عصرياً أفضل من خير بال !

– أى ثورة تنطوى عليها جوانحك الرقيقة الجميلة !

– الحياة توشك أن تفلت من بين أصابعى تحت شعارات متهرئة، ترددها ألسنة محتضرة..

– هذه انعكاسات أزمة كفرت بحكمة الصبر..

– صدقنى فإن حياتنا وقف قديم متهدم تتحكم فيه وصايا الأموات..

– كل ذلك لأنك تودين أن ترقصى وتغنى وتمرحى؟

– لأنى أود أن أعيش حياتى.

– وربما تودين غداً أن تقتلى الأنفس وتشعلى الحرائق وتهدمى الجدران ؟

فضحكت قائلة فى حبور:

– أود حقًا أن أقتل زوج أمى، وأن أحرق من يتطاول على رمسى بالسقوط وأن أهدم جدران الإدارة !

ابتسم الكهل وهو يرمقها بحنان أبوى وقال:

– لعله الحب ؟

– هه ؟

– لعله حب يائس الذى أضرم فيك نار الثورة !

– لا يوجد حب معين الآن، أحببت مرات وخبت مرات، أما الآن فأنا أحب الحب وحده !

– لا شك أن للحب عندك قصة !

هزت منكبيها فى استهانة وقالت:

– أنت تعرف حب المراهقة ومصيره المحتوم.. ذاك واحد، وحلمت يوما بحب ممثل، وكان كلما تقدم لى خاطب أبدى قلبى استعداداً طيباً للحب لا يلبث أن يذهب بذهابه..

– لا قصة حب الآن ؟

– أكبر قصة حب، حب الحب نفسه !

وتبادلا نظرة طويلة. ثم سألته:

– بم تنصحنى يا سيدى النبيل ؟

فقال باسما:

– أنصحك بالرقص والغناء والمرح والقتل والتحريق والهدم..

– أتسخر منى يا سيدى..

– معاذ الله، بل إنك تغرينى بالتعلق بك !

– حقًا ؟

– ما أكثر أوجه الشبه بيننا !

– فيم ؟

– فى التعاسة على الأقل ؟

فقالت باستطلاع:

– لقد سمعت عنك الكثير..

فلاحت فى عينيه نظرة حالمة وقال:

– كنت يوما ذا شباب يافع ومستقبل مرموق.

ثم وهو يتسم :

– وذات يوم قررت الانضمام إلى الجموع الثائرة.

وسكت لحظة ثم تمتم :

– ولم أكتف بذلك فجازفت بالعمل فى السراديب..

ثم واصل وهو يضحك ضحكة موجزة :

– ثم قضيت من حياتى خمسة وعشرون عاماً فى السجن..

– أول ما لفتنى إليك حديث بعض الزملاء فى المصلحة عندما أشاروا إليك وقالوا هذا الرجل بطل من أبطالنا القدامى !

– وقد خرج البطل من السجن بعد أن جاوز الخمسين، وبعطف من البعض ألحقت بالوظيفة، بمرتب مبتدىء، وعما قليل سأترك الخدمة دون أن أستحق معاشاً، وقد فاتنى الحب والزواج والأسرة، وإن امتد بى العمر فلا مفر من التشرد والجوع..

– يا للبطولة !

– لذلك قلت إن بيننا أوجه شبه..

– لكنك بطل !

– لا يذكرنى اليوم أحد !

ترامت إليها فى الكشك ضحكات هامسة وهى تقترب. مرق إلى الداخل فتاة وشاب سرعان ما تبادلا عناقا حارًا. أسلمت الفتاة رأسها إلى كتف الشاب وأغمضت عينيها. قلبت رأسها، ولما

فتحت عينيها وقع بصرها على الكهل والفتاة السمراء ذات العينين الخضراوين. إبتسمت بلا ارتياب يذكر ثم سحبت فتاها من يده وغادرا الكشك. ضحكت السمراء وابتسم الكهل. وسألته:

– لم اخترت هذه الحديقة مكاناً للقائنا ؟

– كنت أتردد عليها فى الزمان الأول..

– لا علم لك بما يدور فيها اليوم ؟

– كلا، كنا نتخذها أحياناً مخبأ ننقض منه على أعدائنا..

فقامت برشاقة آخذة إياه من ذراعه، فمضت به إلى جدار الكشك. مدت بصرها من الثغرات بين أوراق الياسمين داعية إياه إلى النظر. نظرا معا وهما شبه متلاصقين حتى فغر الكهل فاه. وهمست فى أذنه :

– انظر إلى الحديقة !

ثم وهى تكتم ضحكة:

– كم أنها مرصعة بالعشاق !

– فوق ما يتصور العقل..

– العقل يستطيع أن يتصور كل شىء لو تخلت عنه القبضة الخانقة..

فقال فى انفعال ظاهر :

– انظرى إلى هذه الفاجرة !

– يالها من سكرى بالحب !..

– أهذه حديقة عامة ؟

– لا عيب فيها إلا أنها تشبه الجنة..

– إنها فى عمر الورد ؟

– الحديقة ؟

– الفاجرة !

– يخيل إلى أنه لا زوج أم يرهبها ولا سجن يهددها !

رجع الرجل إلى مجلسه وهو يلهث. تراجعت الفتاة إلى وسط الكشك. وقفت كأنما تستعرض جسمها الرشيق.

دارت حول نفسها مرتين كأنما تشرع فى الرقص. سألها وهو لا يتمالك نفسه :

– لم وقع اختيارك علىّ بالذات ؟

– لأنك الرجل الذى قضى زهرة عمره فى السجن.

– كيف ظننت أنك واجدة رأياً جنونيًا عند رجل مثلى ؟!

– تخيلت أنه لن يتشلنى من الموت إلا رجل كان الموت لعبته !

– يا له من مزاح !.

– قلت لنفسى سأجد عنده رأياً جديراً ببطل !

فتردد قليلا ثم سألها :

– ألم تخشى أن أغازلك ؟

– ليس ثمة ما أخشاه فى ذلك !

هز الكهل رأسه مغلوباً على أمره فعادت إلى مجلسها إلى جانبه وهى تسأله :

– أليس فى حياتك جانب لهو ؟

فأجاب دون اكتراث:

– أقرأ بانتظام، وأذهب إلى السينما بين حين وآخر.

– تعيش وحدك ؟

– نعم، لا أقارب لى فى القاهرة.

– ولا أصدقاء لك ؟

– منهم من قتل فى الثورة ومنهم من تبوأ يوماً الوزارة فبعد ما بينى وبينه..

– والنساء، أليس فى حياتك نساء ؟

– ولّى موسمهن فى عمرى..

ففكرت قليلا وقالت :

– أود أن أعترف لك بسر !

فى تلك اللحظة ترامى إلى سمعيهما صوت رصاص ينطلق بقوة وغزارة. بهت الرجل وارتجفت الفتاة. تساءلت :

– ما هذا ؟

– رصاص من بندقية سريعة الطلقات..

– كيف ؟.. لم..

– لا أدرى..

– غارة ؟!

– ولكن صفارة الإنذار لم تنطلق، لعله تمرين.

وسكت الضرب. لبثا يرهفان السمع ولم يزايلهما القلق تساءلت:

– هل يعود ؟

– لا علم لى..

– هل تستأنف الحرب ؟

– من يدرى!

– الكلام عن ذلك لا ينقطع.

– وهو ينتهى حيث يبدأ.

– أتفكر فى ذلك كثيراً ؟

– إنه ظلنا ومصيرنا.

وفصل الصمت بينهما طويلا. حتى قال :

– إن الرصاص يحرك غرائز فى أعماقى، لقد زلزل كيانى فى هذه اللحظة القصيرة.

– يؤسفنى أننى كدرت صفوك.

– لنعد إلى ما كنا فيه، أكنت تتحدثين عن سر ؟!

فابتسمت قائلة :

– أجل.. هناك سر..

فرمقها بنظرة مستطلعة فقالت :

– ثمة رجل فى حياتى.

– حقًا ؟

– شاب غنى من طنطا !

– ها هو الحلم يتحقق..

– كلا، إنه متزوج.

– ما مهنته ؟

– تاجر.

– أتقبلين أن تكونى الزوجة الثانية ؟

– لكنه يمقت فكرة تعدد الزوجات.

– هل سيطلق زوجته ؟

– ويمقت فكرة الطلاق.

– وماذا يريد إذاً ؟

– إنه يحبنى !

– كذاب !

– أعتقد أنه صادق.

– هل.. هل..

– تقابلنا فى مشرب شاى مرتين..

– ماذا يريد ؟

– يريد أن أقابله مرة ثالثة..

– لا كرامة فى ذلك.

– رجعنا إلى الكرامة !

– واضح أنه يريد العبث بك.

– أو أن أعبث به !

– كونى بريئة بقدر ما أنت صغيرة..

– وحدثنى عرضا عن شقة يملكها فى الهرم !

– الداعر !

– لم أقطع برأى بعد.

فهتف بحدة:

– الرقص والغناء والمرح.

– لا أحب لك أن تغضب..

ومالت نحوه فلثمت جبينه. وجعل ينظر إليها باهتمام وتوقد. سألته برجاء :

– ألا تريد أن تمن على برأى ؟

– عليك أن تصبرى حتى يجىء الفرج كما أن على أن أصبر حتى يجئ الموت !

فقامت وهى تقول:

– شكراً، وإذاً فيجب أن أذهب..

هتف باستنكار:

– تذهبين..!

– لم أجىء لأقيم هنا.

– أنت ذاهبة إلى الشاب الغنى من طنطا..

– كلا، ليس موعده اليوم..

– لا يمكن أن تذهبى..

– آن لى أن أذهب..

قام إلى جدار الكشك ورمى ببصره إلى الخارج ثم قال بعصبية:

– الحب لا يتوقف لحظة واحدة..

– متع بصرك..

تحول إليها وهو يقول بانفعال:

– كأنك ابنتى!

ومال نحوها فلثم جبينها وهو يقول:

– لا تذهبى إلى مشرب الشاى.

– ليس اليوم..

– إنه يريد عشيقة !

– لم يصرح بذلك.

– أنت ساذجة ؟، أنت ماكرة.. ما أنت ؟

– أنا مصممة.

– أنت جميلة، وأنت فاتنة، اصبرى..

– يجب أن أذهب.

– إنه يرفض أن يطلق، ويرفض أن يتزوج زوجة ثانية، لماذا ؟ لعل زوجته غنية، لعلها رأسماله الحقيقى، وغير بعيد أن تكون أكبر

منه سنًا، لذلك جهز شقة للعبث، يجيء إلى القاهرة باسم التجارة ليمارس الدعارة، هذه هى الحقيقة.

– أشكرك، ولكن آن لى أن أذهب.

قبض على يدها، ثم على ساعدها، وقال وهو يزداد انفعالا:

– لن تذهبى..

ابتسمت قائلة:

– لقد تأثرت لحالى أكثر مما يجوز..

– لا حدود لما يجوز فى ذلك.

– شد ما أزعجتك.

– أكثر من سبب يشد أحدنا إلى الآخر.

– ولكن الوقت يسرقنا وزوج أمى رجل شرس..

– فلنسحق رأسه ولكن لا تذهبى إلى الشاب الغنى من طنطا.

– إنى راجعة إلى البيت.

ففرقع بأصابعه وقال:

– جاءتنى فكرة طيبة.

– فكرة ؟

– إنك مشغولة بالحياة، ولا خوف عليك من كهل مثلى، فلنذهب سويًا إلى عنبر لولو.

– عنبر لولو ؟

– حديقة فى صحراء سقارة، فى المركز منها بركة مترامية من ماء الورد، وتنتشر بها المقاصير المغطاة بالأزهار، وشعارها غير المكتوب افعل ما تشاء.

فاتسعت عيناها دهشة وقالت:

– أنت تدعونى إلى ذلك ؟

– مع آمن رفيق!

– لا أصدق!

– لا يعز شيء على التصديق.

– ولكن .. ولكن ليس الوقت مناسباً.

– كل وقت فهو مناسب لزيارة عنبر لولو!

– لم أسمع بها من قبل.

– إنها جنة الأحلام، كل حلم فهو واقع فى عنبر لولو.

– إنك تتكلم بصوت جديد، وعيناك تنطقان بمعان جديدة.

جذبها من يدها إلى جدار الكشك فنظر من الثغرات داعياً إياها إلى النظر وقال محموماً :

– انظرى، جميع هؤلاء حمقى لأنهم لم يعرفوا الطريق إلى عنبر لولو.

– تلك الحدائق النائية عرضة للخطر!

– إنها ترقد فى حضن الأمان وآى ذلك أنه لا يوجد بها شرطى واحد!

– وماذا تفعل هناك ؟

– كما تهوين، لا أحد يرى الآخر فى عنبر لولو.

– انظر إلى هذه الفتاة الفاجرة !

– إنها فاجرة لأنها تلهو بعيداً عن عنبر لولو.

– إنك تخيفنى!

– لا ظل للخوف فى عنبر لولو.

تراجعت عن الجدار فلحق بها فى نشاط غير معهود وهو يشد على يدها. وتساءل:

– ألم تجيئى لتسمعى نصيحة من كهل ؟

– إنى أمقت النصائح !

– اذهبى معى إلى عنبر لولو.

– رباه.. إنى أتراجع، لعل حديثك الحكيم أثر فى أكبر مما توقعت !

– حديث عنبر لولو ؟

– حديث الصبر والكرامة !

– إنك لا تؤمنين بالألفاظ الصفراء.

– ولكنك تؤمن بها ؟

– إن ربع قرن فى السجن خليق بأن يخل الميزان.

– إنك تخيفنى.

– كلا، ولكنها حيلة نسائية بالية !

– اهدأ، فلنجلس، أود أن أعترف بسر جديد.

– اعتراف آخر ؟!

عادا إلى مجلسهما وهو يلهث. وقبل أن تفتح فاها تدافعت أقدام مهرولة تند بين ضحكات شابة متوثبة. اندفعت إلى الداخل فتاة يطاردها شاب. لمحا وجود الكهل والفتاة ولكنهما لم يلقيا إلى ذلك بالا. مضت تحاوره وهو يتحين غفلة للانقضاض عليها. وفجأة وثبت الفتاة فوق الأريكة الوحيدة التى يستقر عليها الكهل وصاحبته وتخطت الرجل فاختفى لحظة بين ساقيها ثم قفزت إلى الباب، ومنه إلى الحديقة والشاب فى أثرها. سوّى الكهل هندامه وتمتم كأنما يناجى نفسه:

– ما أجمل أن يذهبا إلى عنبر لولو !

ثم قال لفتاته بضيق:

– نحن نضيع وقتاً ثميناً لا يعوض !

فقالت تذكره :

– ولكن ثمة إعتراف جديد !

– لا قيمة الآن لأى إعتراف !

– أود أن أعترف لك بأن حكاية الشاب الغنى من طنطا مختلقة من جذورها ولا أساس لها فى الواقع !

– حقًّا ؟

– بالصدق أعترف لك.

– ذاك يعقد الأمور ولا يبسطها !

– وعلىّ أن أذهب الآن.

– كلا، لن تـذهبى.

– لا شىء يدعونا للبقـاء.

– بل علينا أن نفهم الأسبـاب التى دعتك إلى اختـراع الحكايـة.

– لا أهمية لذلك ألبتـة.

– كلام غير علمى، فالحلم لـه أسبابـه كالواقـع سواء بسواء.

– أكرر ألاّ أهمية لـذلك.

فهز رأسه مفكراً وقال باهتمام :

– دعينى أفكر.

ومسح على جبينه واستطرد :

– شاب.. تاجر.. غنى.. من طنطا.. شقـة خـاصة فى الهـرم.

– كدت أنسى تلك التفاصيـل.

– لا يمكـن أن تنسى.

– أنت ظريف ولكنك عنيـد.

– أصغى إلى، شاب، تخيلته شابا، الشبـاب رمـز الجنـون، يحب الحياة، وأنت تهيمين بحب الحياة لحـد الجنـون.

– لكنى تغيرت.

– كذب، لم يمر وقت يسمـح بالتغييـر.

– يخيل إلىّ أنى عـاشرتك فى هـذا الكشك عمـراً.

– أصغى إلىّ يا عزيزتى،.. تاجر.. ما معنى تاجر؟، إنه نقيض الموظف، الموظف رمز الروتين، التاجر رمز الحركة، الموظف ظل الأخلاق التقليدية، التاجر ظل الإنطلاق واللاأخلاقية.

فتساءلت ضاحكة :

– أترانى حلمت بقرصان ؟

– وأكثر يا عزيزتى، إنك تدعيننا للإيمان بإبليس كما آمن إبليس بنفسه، إنك تنبذين آدم مخلوق الخطيئة والاستغفار، وتعشقين إبليس مخلوق الإبداع والكبرياء، إنك تعيدين للنار كرامتها حيال التراب.

– سامحك الله.. أنت خفيف الروح.

– وما معنى غنى؟، الغنى هو الذى يملك المال والقوة، ولكننا لم نعد فى عصر الأغنياء، أى غنى اليوم هو كاللص الذى لم يهتد إلى أثره بعد، ستطبق عليه يد العدالة فى المساء أو عند منتصف الليل، فالحلم يريد شابًّا، غنيًّا، لفترة محدودة، إنه يخشى المعاشرة الطويلة، يخشى أن ينكشف مع الزمن عن شخص حقير شرس مثل زوج أمك، فأنت ترغبين فيه وتكرهين فى الوقت نفسه فكرة دوامه، سوء ظن مكتسب من ماض تعيس..

– أتقرأ الفنجال أيضا ؟

– من طنطا !.. ماذا يقول الحلم؟، طنطا هى مثوى السيد البدوى، صاحب الكرامات والمعجزات، الذى كان يجىء بالأسرى من الأعداء.. فهمت يا عزيزتى ؟!

– فهمت يا سيدنا الشيخ.

– وشقة الهرم؟.. الشقة مفهومة ولكن لماذا فى الهرم؟. الهرم فى ظاهره قبر ولكنه فى حقيقته يشكل تحديًا للزمن.. للموت.

– تفسير مسل وجميل، ولكن يجب أن نفكر فى الذهاب.

– ابصقى هذه النية من فيك وهلمى إلى عنبر لولو.

– بل إلى البيت..

– ماذا فى البيت مما يغريك بالعودة إليه ؟

– هو بيتى على أى حال.

– سيتغير طعمه ومذاقه عقب زيارة لعنبر لولو.

رمقته بنظرة ارتياب وسألته:

– ما علاقة كهل وقور مثلك بعنبر لولو ؟

– فيه خلوة للعجزة، كل شىء فى عنبر لولو.

– ترى.. ترى أأنت جدير بالسمعة الطيبة التى تتمتع بها ؟

– أنسيت رأيك فى الوقف القديم ووصايا الأموات ؟

– لكنى تعلمت أشياء جميلة من معاشرتك الطويلة هنا !

– لا تسخرى من رجل قضى زهرة عمره وراء القضبان.

– اغفر لى فأنا لم أجاوز الأربعة والعشرين ربيعا من عمرى !

– ولكنه فى حالتك يعتبر مرحلة من مراحل الشيخوخة !

وقامت متجهمة فقام فى أثرها بحال توحى بالاعتذار، وقال :

– لا معنى للغضب بعد أن تعارفنا على خير وجه !

فقالت بنبرة ساخرة :

– شيدت قصراً ولكن على الرمال !

– حقًا ؟

– الشاب الغنى من طنطا حقيقة من صميم الواقع !

– بل خيال فى خيال !

– حقيقة من صميم الواقع.

فقبض على ساعدها بعنف وهو يطلق على عينيها نظرة من نار. وتوثب ليقذفها بسيل من الكلمات التى انصهر بها شدقاه ولكن شخصاً غريباً اقتحم الكشك على غير توقع. اقتحمه وكأنما ألقى به إليه. مشعث الشعر، أغبر الوجه، يتصبب عرقا. رفع بنطلونه وحبكه حول وسطه. ضرب الأرض بقدميه بشدة ليزيل عن حذائه ما يطويه من طين. بادلهما النظر صامتاً دون أن ينبس. مضى إلى طرف الأريكة وارتمى عليها فى إعياء. جعل صدره يرتفع وينخفض ورائحة عرقه تنتشر. حل بالكشك صمت كالشلل. لكن الفتاة كانت أول من خرج منه. خلصت يدها من قبضة الكهل وقالت:

– أستودعك الله، إنى ذاهبة.

فقال الكهل برجاء :

– انتظرى، يجسن بك ألا تسيرى وحدك فى الطرقات الخالية فى هذه الساعة من الأصيل !

وإذا بالشاب الغريب يقول :

– ليست الطرقات بالخالية !

فرماه الكهل بنظرة مغيظة متسائلة فقال الشباب :

–جميع الطرقات مطوقة برجال الشرطة !

فتحول غيظ الكهل إلى دهشة وسأله :

– لم ؟

فسأله الشاب بدوره :

– ألم تسمعوا طلقات الرصاص ؟

– بلى، منذ وقت غير قصير، ظننته تدريباً عسكريًا.

– لم يكن تدريباً عسكريًا.

فسألته الفتاة :

– أكان غارة جوية ؟

– لم يكن غارة جويـة.

فسأله الكهل :

– هل بلغتك عنه أنباء صادقة ؟

فهز الشاب رأسه بالإيجاب، وأجاب النظرات المتسائلة قائلا :

– صعد شخص إلى قمة البرج وأطلق الرصاص من بندقية سريعة الطلقات.

– ما هويته ؟

– لا يدرى أحـد.

– وما الهدف الذى أطلق عليـه الرصاص؟

– أطلقه على كافة الجهات، على جميع الناس !

– ياللخبر، وكم عدد الضحايا ؟

– لم يصب أحد !

– غير معقول.

– يبدو أنه أراد أن يطلق الرصاص لا أن يصيب أحداً.

– حادث غامض.

– إنه لكذلك.

– هيهات أن يثبت عدم الشروع فى القتل.

– ذاك واضح، ولكن ربما صفحته خالية من السوابق !

فقال الكهل باستياء:

– ليس خلو الصفحة من السوابق بالشهادة الطيبة دائماً، ولا العكس بالصحيح.

– قول لا يخلو من حكمة.

– أهنئك على حسن إدراكك.

– شكراً.

– لكن لنعد إلى مطلق الرصاص، لعله مجنون ؟

– كلا..

– إنك تتحدث عنه بيقين !

– بل أردد ما تناقله الناس فى الطريق.

– ولكن لم يطلق النار فى جميع الجهات دون أن يقصد إصابة أحد ؟.

– ذاك بعض السر الذى يسعى وراءه رجال الشرطة.

فقالت الفتاة :

– لعله مجنون بالشهـرة.

– لا يبدو كـذلك.

فعادت تقول :

– لعله كان فى حاجة ملحة إلى الترفيه !؟

فابتسم الشاب قائلا :

– لا أظن الأمر كـذلك.

وسأله الكهل :

– ماذا يقول الناس عنه أيضاً ؟

– يقال إنه كان ضمن وفد دعى إلى زيارة الجبهـة ومعسكـرات اللاجئين.

– حقًا !.. لعل أعصابه اهتزت فوق ما يحتمل.

لكنه لم يفقد توازنه قط وإلا لقتـل النـاس بـالعشرات.

– أطلق النار وهو فى كامل وعيه !

– وكامل عقله !

– ياله من حادث غامض !

وقالت الفتاة :

– كـم أود أن أراه.

فقال الكهل :

– سترينه فى جرائد الغد، كذلك تجرى الأمور منذ قديم !.

ثم التفت إلى الشاب وهو يقول كأنما يقدم له نفسه:

– أنا أيضاً ولعت يوماً بإطلاق النار!

ثم بنبرة إعتزاز:

– ولكن الرصاص انصب على الأعداء !

فقال الشاب بامتعاض :

– يقال إن صاحب البندقية المجهولة هتف قبل أن يختفى «ليستقر الرصاص فى قلب العدو الأكبر».

فقال الكهل فى حيرة :

– حتى القتل أصبح غامضاً رغم أنه أوضح فعل فى الوجود!

– ليس ثمة غموض ألبتة..

فتساءل الكهل بغيظ:

– أكان العدو الأكبر يسير فوق رءوس المارة ؟

– أو خلفهم أو أمامهم أو تحت أرجلهم !

فقالت الفتاة بانفعال:

– واضح أو غامض، لا يهم، كم هو جميل أن يطوف إنسان بالجبهة وبمعسكرات اللاجئين ثم يصعد إلى برج القاهرة ليطلق النار فى جميع الجهات !

فسألها الكهل :

– هل وضح لك ما غمض علىّ ؟

– نعم.

– ولكن كيف ؟

– إنى أفهم بطريقتى الخاصة !

وسادت لحظات من الصمت ارتفعت خلالها ضجة فى الخارج. ثم تبين على وجه اليقين أن ثمة ضجة تجتاح الحديقة.

هرعا إلى ثغرات الياسمين فرأيا العشاق يتجمعون فى الممشى وقد تولاهم الوجوم والارتباك. ثم رجال الشرطة وهم يحتلون الأركان. قالت الفتاة بانفعال.

– أصبحنا فى قلب الحدث..

فقال الكهل :

– وقد يقع صدام دام.

والتفتت الفتاة نحو الباب وقالت له :

– واضح أن رجال الشرطة يعتقدون أن صاحبك المجهول فى الحقيقة معنا !

فقال الشاب بهدوء :

– وهو فرض محتمل !

فقال الكهل:

– ولم يعد ثمة مجال للهرب..

فقال الشاب:

– إن من يقدم على ما أقدم عليه لا يمكن أن يركن إلى الهرب إلى ما لا نهاية.

فقال الكهل وهو يحدجه بمودة :

– وعليه فخير سبيل أن يذهب إليهم بنفسه..

– أتظن ذلك؟

وابتسم. ثم قام بهدوء. حياهما بإحناءة من رأسه قائلا :

– إلى اللقاء..

ومضى نحو باب الكشك فمرق منه إلى الحديقة وهما يردان وراءه..

– إلى اللقاء !

واقتربا من باب الكشك متلاصقين وراحا يراقبان ما يحدث فى الخارج ولبثا وقتا غير قصير ثم رجعا إلى مجلسهما فيما يشبه الإعياء والحزن. وقال الكهل وكأنه يناجى نفسه:

– فاتنى أن أستوضحه بعض الأمور، كان الوقت قصيراً وحرجاً!

فقالت الفتاة :

– وفاتنى أن أدعوه إلى شىء من اللهو !

فقال لها معاتباً:

– ما زلت قادرة على المزاح !

– أنسيت هيامى بالرقص والغناء والمرح ؟

فقال بامتعاض:

– آن لك أن تذهبى إلى شابك الغنى من طنطا !

فضحكت قائلة :

– دعنى أعترف لك بأنه حلم لا أساس له فى الواقع !

فهتف بغضب :

– لقد أرهقتنى إعترافاتك المتضاربة..

– فقالت بتسليم :

– هلم بنا إلى عنبر لولو !

ونهضت قائمة. لكنه جذبها برقة من يدها فأجلسها مرة أخرى وقال وهو يحنى رأسه :

– دعينى أعترف لك بأن عنبر لولو لم توجد بعد.

فاتسعت عيناها دهشة وتمتمت :

– ماذا قلت ؟

– كانت مجرد مشروع !

– مشروع ؟!

– أجل.

– ماذا تملك لتنفيذه ؟

– رسمنا له خطة عظيمة فى غيابات السجن !

– السجن ؟!

– كان حياتنا الحقيقية، أنا وبعض الزملاء، وقد اشتققنا اسمه من عنبر السجن وأضفنا إليه «لولو» على مثال هونولولو..

– وماذا عن تمويله ؟

– فكرنا فى ذلك بطبيعة الحال، وبالإجماع اتفقنا على وسيلتين لا ثالث لهما وهما السرقة والقتل !

فضحكت متسائلة :

– وماذا أخركم عن التنفيذ منذ تم الإفراج عنكم ؟

– الخيانة !

– الخيانة !

– إذا بالزملاء يتوبون إلى الله ويؤدون فريضة الحج فى عام واحد!، هكذا تعطل مشروع عنبر لولو !

– يا للخسارة..

– العين بصيرة واليد قصيرة !

وفرق بينهما صمت واجم ثقيل حتى قال الكهل :

– آن لنا أن نذهب ولكن لا يجوز أن نفترق !

– حقًا ؟

– ألا ترحبين بذلك ؟

– من المؤسف أنك لن تحسن الرقص ولا الغناء ولا المرح..

– ولكنى صاحب مشروع قيم !

– عنبر لولو ؟!

– أجل..

– لكنه لا يمكن تنفيذه بمجهود فردى ؟

– إذا اتفقنا أمكن ان نصنع شيئاً ذا بال..

– وماذا فى وسعى أنا ؟

– أصغى إلى، نحن نملك مواهب لا تقدر بثمن..

– ما أريد إلا أن أرقص وأغنى وأمرح.

– لن أطالبك بأكثر من ذلك.

– ماذا تعنى؟

– عنبر لولو، جنة الأحلام، ما قيمتها بلا رقص وغناء ومرح ؟

فابتسمت الفتاة بأمل وتساءلت :

– وأنت ؟

فقال بفخار :

– أنا مولع بالقتل منذ قديم الزمان..

قام فقامت. أعطاها ذراعه فتأبطتها. مضيا نحو باب الكشك وهو يقول :

– سأطلق الرصاص فى جميع الجهات وسنرقص ونغنى ونمرح..

• كتب الأستاذ نجيب محفوظ هذه القصة صيف عام ١٩٦٧، بعد هزيمة ٥ يونية، ونشرها فى جريدة الأهرام، ثم أعاد نشرها فى مجموعة قصصه التى تحمل عنوان: «حكاية بلا بداية ولا نهاية»، ونشرت الطبعة الأولى منها عام ١٩٧١، مع ملاحظة أنه نشر قبلها مجموعتين من القصص القصيرة، أولاهما: خمارة القط الأسود، ونشرت عام ١٩٦٩، والأخرى: تحت المظلة، ونشرت فى العام نفسه.

• أمين يوسف غراب

العوالم السفلى

عندما يقبل المساء، وتزدحم شوارع القاهرة الرئيسية بالعابرين وتمتلىء أرصفة شارعى سليمان وفؤاد بالفارغين من الناس الذين حرموا موارد الامتلاء، فراحوا يبحثون عنها فى وجوه بعضهم البعض، وفى عيون الحسان، وخلف زجاج الفترينات وألوان المرايا التى تصور لهم سرابهم البعيد ماء زلالا وجدولا عذباً تكاد تمتصه شفاههم الجافة، ويصوره لهم الجوع طعامًا شهيًّا تلعقه عيونهم النهمة ونظراتهم الظامئة، كما تصوره لهم أحاسيسهم تصويراً لذيذاً لما يجب أن يكون، فيزيدهم هذا تمسكاً بما هو كائن.

ويظلون كالقطيع يروحون ويجيئون ويلفون ويدورون حول الأمريكين، والاكسلسير ومامبو، كما يلف الثور المغمى فى الساقية يقطع آلاف الخطوات وهو فى مكانه، وينظر إلى الدنيا بأسرها ولكن من فوق قبة عينيه المعصوبتين.

فى هذا الوقت بالذات، وفى مغرب كل ليلة، يبدأ (أبو خطوة) عمله بعد أن يكون قد شرب قدحا كبيراً من القهوة السادة الممزوجة بالأفيون، وتناول ساقه الخشبية وثبت تكأتها المبطنة باللباد تحت إبطه، ولف ذراعه عليها كما يلف الثعبان نفسه على فرع شجرة ميتة، وأمسك بأصابع هذه اليد نفسها ما يزيد على العشرين ورقة من أرواق اليانصيب القديمة التى مرت عليها شهور، بعد أن يكون

قد لوثها، قبل أن يحملها بتراب الطباشير أو الحبر، وهو يمسك بها فى هذه اليد بالذات لأنه لا يملك يداً أخرى.

ذلك لأنه فقد ساقه اليسرى وذراعه اليمنى فى حادث سقوطه بين عجلات الترام، حينما كان يحاول نشل نقود أحد الريفيين منذ عشرين عاماً.

ويذهب أبو خطوة إلى منطقة نفوذه، وهى المنطقة التى يحددها غربا فندق الناسيونال، وتمتد شرقاً إلى ناصية الأمريكين، وتنتهى عند نهاية مبنى محكمة القضاء العالى.. ويسقط أبو خطوة وسط هذا الزحام كما يسقط الحجر فى الخضم المتلاطم فلا تعرف له أثراً، ويروح يتفرس فى وجوه العابرين والذين يدورون فى الساقية ويقطعون آلاف الخطوات وهم فى مكانهم لا يبرحونه.

وكانت له قدرة عجيبة فى معرفة الناس من مجرد النظر إليهم، فهو بنظرة واحدة يستطيع أن يعرف إن كان هذا الأفندى ريفيًّا أم حضاريًّا. وإن كان هذا موظفا أم تاجراً، وهل هو زير نساء أم مدمن مخدرات. وهل هو ثرى يحمل نقوداً أم مفلس يتظاهر بالثراء، وكان ذكاؤه خارقاً فى سبر أغوار نفوسهم ومعرفة ألوان الطعام الذى يشتهونه، فيخاطب كلامنهم برائحة الشواء الذى يحبه، فعندما يشعر أن هذا الرجل «مثلا»، يشتهى رائحة الأنثى، يقترب منه وكأنه يعرفه من زمن بعيد، ويهمس فى أذنه وهو يشير إلى رزمة أوراق اليانصيب التى فى يده ويقول:

– حاجة لوز.. ورقّة.. ملبن.

فيجيبه زير النساء على الفور، مدركًا بأحاسيسه كل شىء:

– بس أوعى تكون (دبة).

– فشر، وشرفك (غزالة).

ثم يضحك وهو يغمز له بعينه ويتمتم:

– والسحب الليلة.

– فين ؟

– قدام الإسعاف.

– يعنى انتظر ؟

– ما تتحركش.. عيب !

ويتركه أبو خطوة. بعد أن يكون قد خط على كتفه أو ذراعه، دون أن يدرك، خطًا أو أكثر بأرواق اليانصيب الملوثة بالطباشير.. ثم يغيب بقدمه الواحدة كما يغيب الدب فى الظلام، تاركاً الرجل ينتظره. وهو مطمئن إلى أنه سينتظره حتى ولو يقضى الليل كله، ثم يروح يتفرس فى وجوه الآخرين، إلى أن يرى وجهاً تصطرع فى عينيه ثورة المراهقة، وتتقد على شفتيه قيلولة الظمأ، فيتسلل إليه يخاطب نفسه :

– آخر طبعة من باريس.

فيدرك الشاب على الفور، ويقول فرحاً ناسياً نفسه:

– ورينى..

فيهمس أبو خطوة، وكأنه يهمس بأمر خطير:

– وطى صوتك ٦ أو ١٢ أو ٢٤.

فيقول الفتى فرحاً:

– دبل..

– كله دبل. بقول لك آخر طبعة من باريس.

فينطلق الفتى وكأن أحاسيسه هى التى تنطلق:

– ٢٤ .

– حيلك.. ح تدفع ٣ جنيه.

ثم ينظر إلى الفتى، وإلى الأسى الذى ارتسم سريعاً على عينيه ويقول:

– ومع ذلك انتظر. سأرسل لك من يحملها.

ثم يتركه أبو خطوة فى مكانه مسمراً، ويغيب بقدمه الواحدة فى زحمة الناس. ويظل يسير حتى إذا ما اكتفى بصيد ثالث، ورأى عينيه مظلمتين محمرتين تشبهان عينيه هو تماماً، بعد أن يشرب القهوة السادة الممزوجة بالأفيون، اقترب منه ودندن مغنياً وكأنه يطرب نفسه:

– أنت وبس اللى حبيبى.

فيفهم على الفور رجل المخدرات المدمن اصطلاح هذه الشفرة المتعارف عليها، ويحييه على الفور، وكأنه يحيى معه أحاسيسه المحترقة، وهو يبتسم ويتلفت حواليه هامساً فى خوف:

– والعذال ؟!

– نعكنن عليهم.

ثم يروح أبو خطوة فى ذكاء ولباقة يطمئن الرجل، حتى إذا ما اطمأن، تفاهم معه فى آخر ما ورد من بضاعة. وآخر ما وصلت

إليه من جودة، وما تعرف عليه من اصطلاح، وكيف أن (ليه خليتنى أحبك) تختلف عن (دليلى احتار)، وكيف أن (والله ما أنا سالى) تزيد فى الطرب عن (يا امه القمر ع الباب) ثم بعد أن يتفاهم معه أبو خطوة على ما يريد يتركه على أنه سيرسل له صبيه بالبضاعة، دون أن يعقد معه أية صفقة. وأبو خطوة لا يعقد صفقات مع أحد ولا يأخذ شيئاً من أحد، وكل الذى يقوم به هو التعرف على شخصيات الزبائن واكتشاف ميولهم، ثم يتركهم بعد ذلك لصبيانه يفعلون بهم ما يشاءون وهم يتعرفون عليهم من خطوط الطباشير التى يرسمها على أكتافهم أو ظهورهم.

وبعد أن ينتهى من جولته هذه التى لا تستغرق ساعة أو بعض ساعة كل ليلة، يذهب إلى ذلك المنحنى المظلم الذى يفصل بين مبنى محكمة القضاء العالى ونادى القضاة، حيث عصابته من الصبية والغلمان والفتيان والفتيات، وهى تتخذ لنفسها فى الظاهر صفة التسول أو بيع أوراق اليانصيب أو جمع أعقاب اللفائف.

وأبو خطوة يعرف أفراد عصابته معرفة جيدة. وقدرة كل منهم على امتصاص دم الفريسة. والصبى يعرف الفريسة على الفور ويدرك ميولها أيضا من خطوط الطباشير التى خطها (المعلم). إذا كان خطًا على الكتف فهو ينتظر آخر طبعة من باريس، وإذا كان الخط على الظهر، فهو ينتظر ذات الحسن، وأما الزبون الذى يتوسم فيه أبو خطوة الذكاء، ويعرف أنه صعب المراس، وليس من السهل القضاء عليه سريعاً.. هذا الزبون يكلف به (زبدة) وهى فتاة رائعة الجمال، بدأت حياتها جامعة أعقاب فى عصابة أبو خطوة..

كانت وظيفة (زبدة) فى أول الأمر التلصص على رجال الشرطة وقت الإيقاع بالفريسة، ثم تخصصت بعد ذلك فى النشل، وقد برعت فى ذلك براعة فائقة. وكانت لها قدرة عجيبة على تجريد راكب أو راكبة السيارة من كل شيء فى لحظات خاطفة، عندما يتعطل المرور وفى اللحظة التى تمد فيها يديها الجميلتين بعقد الفل داخل السيارة. وكان يساعدها على ذلك جمالها وفتنتها وأنوثتها الصارخة التى تفجرت وراحت من خلف الثوب البالى والسروال الممزق تشع نوراً يخدر الزبون بمجرد النظر إليه.

ولما توسم فيها أبو خطوة هذه المهارة الفائقة وهذا الذكاء النادر، وخفة اليد التى لا نظير لها، ادخرها للصعب من الأمور، فإذا جاء هذا الصعب، وخرجت زبدة للقنص، خرجت مزودة بأسلحتها التى تعرف جيداً كيف تستخدمها. فهى تحكم على جسدها الثوب الممزق، وتضع ثقوبه دائماً فوق النقط التى تمزق الثوب من أجل إبرازها، فثقب على الكتف من أسفل بحيث يبرز تثنية الإبط لامعة باهرة تتشوق لها العين، وأخر فى مكان معين فوق الصدر، بحيث يكون متأرجحاً لا هو فوق الثدى ولا هو فى منحدر، وإنما بين بين بحيث يستمد نوره دائما من مجرى القمتين. وآخر بجانب الخصر الأيمن، بحيث يجاور تماماً فتحة الجيب، وهذا الثقب بالذات يضيق ويتسع حسب رغبتها هى، فإن أرادت أن تلقى طعما كثيراً للقنص، بحيث توقعه فى الشباك سريعاً ودون عناء، وضعت يدها فى جيبها وضغطت قليلا فيتسع الثقب ويكشف عن تثنيات الخصر النزق المرن الذى تتموج بشرته الناصعة البيضاء،

وتثنى مع همسات أنفاسها الدافئة التى تخدر بها أعصاب محدثها، ولذلك كان النجاح حليفها دائماً، لأنها كانت تستطيع مطمئنة ان تفعل كل شيء وتأخذ كل شيء، والفريسة لاهية بالنظر إلى هذا الثقب أو ذاك، وكان أبو خطوة يعرف ذلك جيداً، ولذلك كان لا يفرط فيها إلا إذا تأزمت الأمور.

وذات يوم تأزمت الأمور، واقترح (مطوة) و (شقرة) و (دبوس) و (شلفط) وهم فتيان أبو خطوة الذين لهم الرأى.. اقترحوا ضرورة خروج (زبدة) لهذا القنص، والسفر خلفه إلى بنها للقضاء عليه هناك، لأن التجارب العديدة أثبتت أن صيده متعذر فى القاهرة. ووافق المعلم على الخطة التى وضعها شلفط ودبوس، وزود زبدة بتعاليمه، كما زود غيرها بتعاليمه أيضاً ثم تركهم كالكلاب المفترسة، كل يذهب إلى فريسته ويصنع بها ما يشاء، أما هو فإما أن يذهب إلى بعض الأحياء الأخرى كالسيدة، أو شبرا، أو العتبة، حيث يوجد بعض الزبائن والعملاء.. وإما أن يذهب إلى وكره فى حى معروف، حيث يكون (القط) وهو خادمه الخاص قد أعد له القهوة الممزوجة بالأفيون، وزجاجة الكونياك، ثم عشاءه المفضل المكون غالباً من الفطير المحشو بالدجاج، وهناك تكون فى انتظاره إحدى محظياته.

ومحظيات أبو خطوة كثيرات ومعروفات وهن لسن من أتباعه أو أفراد عصابته، فهو دائماً يفرق بين نفسه وعمله، ويعتقد أن الجمع بين الاثنين عمل لا تستقيم معه الأمور، ولذلك فمحظياته دائماً من طبقة غير طبقته، ومن أحياء غير حيه أو منطقة نفوذه.. فهذه من السبتية وتلك من القللى، وثالثة من زينهم. وهن معروفات

لدى عصابته جميعا، ولدى منافسيه أيضاً، ومع أنه كان يختارهن من صفوة الجميلات اللواتى تهفو إليهن العين ويتمناهن القلب، إلا أن أحداً كان لا يجرؤ حتى على مجرد التطلع إليهن، لأن من يفعل ذلك مصيره الموت بطريقة لا تتغير، وهى أن يغمد أبو خطوة سكينه التى يعلقها فى رقبته من عشرين عاما فى صدره ببساطة، وكأنه يغمدها فى عنق دجاجة !

بيد أنه فى هذه الليلة لم يأمر القط، كالعادة، أن يهيىء له إحدى محظياته، وهو أيضا لم يذهب إلى حى آخر من تلكم الأحياء التى اعتاد أن يطوف عليها من حين إلى آخر، وإنما شعر بشىء من القلق على (زبدة) التى سافرت من الصباح إلى بنها ولم تعد، كما أحس أيضا بشىء من القلق على (شلغط) الذى ذهب مع الزبون إلى أمبابة ليجهز عليه هناك.. لكنه أمر القط أن يعد له العشاء فقط وزجاجة الكونياك، ريثما يجىء خلفه. وبعد حين كان يدق الأرض بقدمه الواحدة كالدب الأعرج فى الظلام، حتى بلغ حى معروف، ومن ثم تسلل إلى حارة درب النعناعية، وعرج منها على زقاق الزناتى، وهو زقاق ضيق مسدود من نهايته، يبدو فى الليل أشبه ما يكون بمخزن للظلام الأسود الكريه فلا تستطيع أن ترى قدمك، ولا ترى حتى الطريق الذى تسير عليه من كثرة الأوحال والمياه القذرة العفنة ذات الرائحة الكريهة. وظل يدق فى الظلام والليل بقدمه الواحدة حتى بلغ نهاية الزقاق، ومن ثم أسند جسده على الحائط، ومد يده الواحدة إلى الخيط المعلق فى رقبته ومنه تتدلى السكين ذات النصلين، تناول من جانبها مفتاحاً حديديًا كبيراً وفتح

باباً صغيراً، ثم دلف منه إلى دهليز مهجور كان فيما مضى طاحونة وأصبح الآن مأوى ووكراً لأبى خطوة وعصابته، وبعد ذلك تسلل فى الظلام إلى سلم خشبى مرتكز على حائط الدهليز المهدم، وراح يصعده بمهارة فائقة. وما أن بلغ نهايته حتى أحس به القط ففتح له باب الوكر الذى يسكنه ويقضى فيه أسعد لياليه. وهو عبارة عن كشك من الخشب القديم الأسود، وضع به دولاب حديدى كان أبو خطوة قد سرقه فيما مضى من مخلفات الجيش الإنجليزى، وأمامه على الأرض مرتبة من القطن ملوثة ببعض حروق من أعقاب السجاير وفحم الجوزة، وعليها بطانية من الصوف الخشن الأسود، ثم حول المرتبة امتلأت الأرض بزجاجات الخمر الفارغة، وأوراق «الحسن كيف» الفارغة أيضاً.

أما على الحائط، فوق المرتبة، فقد علقت جوزة وثلاث غابات وضعت على هيئة سيوف متعانقة، ثم طبلية أمام المرتبة من الخشب تآكلت أطرافها وشوهتها جمرات الفحم التى تركت آثارها السوداء عليها، أشبه ما تكون بآثار الجدرى على الوجه.. ونزع أبو خطوة فردة حذائه الواحدة، وألقى بساقه على المرتبة، وهى جلسته المفضلة عندما يتناول عشاءه الشهى الذى يعده له القط. ثم أخذ يلتهم الطعام ويحتسى الخمر. وأمامه القط يأكل معه حيناً، ويحتسى الخمر حيناً أخر،ويشغل نفسه مرة بالنار التى يعدها للجوزة. كل ذلك وهما يتحدثان أحاديث متفرقة، تارة عن أفراد العصابة والمهام التى تلقى على بعضهم، وأخرى عن قلق المعلم الزائد على زبدة، وكيف أنها لو ضبطت أو فقدتها العصابة، تكون قد فقدت ركناً

هامًا يعتمد عليه، وتركت فراغاً ليس من سبيل إلى ملئه، إلا أن يخرج أبو خطوة بنفسه من جديد للقنص، لأن هناك من الأمور مالا يمكن أن يعتمد فيها على شلفط مثلا، أو مطوة. وانتهز القط الحديث وشجعته الخمر التى لعبت برأسه على أن يتحدث إلى المعلم فيما لا يستطيع أن يتحدث به إليه وهو متمالك قواه، ومن ثم راح يحدثه عن غرامه بزبدة، وحبه الزائد لها، وكيف أنه لا ينام الليل من أجلها. وكأن هذا الحديث كان مفاجأة كبرى للمعلم لأنه التفت فى دهشة كبيرة وسأله :

– كيف.. أتضن عليك زبدة بجسدها ؟

– أبداً ولكنها تعطيه لى كما تعطيه لمطوة وشقرف وشلفط تمامًا.

– وما الفرق بينك وبينهم ؟

– إننى خادمك.

فازدادت دهشته وقال :

– وهم، ما وظيفتهم إذن ؟

فارتبك القط ولكنه قال :

– خدم لك. ولكنى أكثر منهم صلة بك. إننى أعد لك الطعام والشراب، وأحمل مفتاح بيتك، كما أحمل أيضاً أكثر أسرارك..

فصمت المعلم برهة ثم قال :

– وماذا قالت هى فى ذلك ؟

– فى النهار تعدنى، وفى الليل أفتح عينى على الدهليز فأراها كالكرة، تتقاذفها أحضانهم جميعاً.

فأطبق أبو خطوة يده الواحدة على عنق الزجاجة التى أمامه ورفعها إلى ثغره وشرب منها طويلا، ثم أعادها إلى الطبلية وهو ينظر إلى القط بعينيه المحمرتين ويقول:

– والبنات الأخريات؟

– الذى يهمنى زبدة فقط.

فصمت أبو خطوة حيناً. وبعد أن التهم ورك الدجاجة مسح على شفتيه الملوثتين وقال:

– وشقرف أيضاً يتقاذف معهم الكرة ؟

– أجل.

– وأنت معه ؟

فنكس القط رأسه وقال فى خجل :

– لقد حاولت أن أقطع ما بينى وبينه.

فضحك أبو خطوة حتى كاد يستلقى وقال :

– وانقطعت ؟

فصمت القط ولم يجب، وضحك أبو خطوة مرة أخرى وهو يتناول الزجاجة التى فرغت ويقذفها ويتناول زجاجة أخرى، ثم أراد أن يقول شيئا وهو يبعد عن وجهه بيده الواحدة أمواج الدخان الأسود الذى لفظته الجوزة والمفحمة وتكدس فى الكشك، بيد أنه سمع باب الدهليز يفتح ويدخل منه أفراد العصابة بعد أن عادوا من جولاتهم، وراح شقرف وشلفط ومطوة ودبوس وبعض الغلمان يتسلقون السلم الخشبى فى الظلام أشبه بجرذان الليل، ثم دخلوا

على المعلم وكره محيين فى أدب جم، واحترام زائد، وكل يتقدم خطوة ويضع أمامه فوق الطبلية ما ظفر به من غنيمة، حتى اكتظت الطبلية أمام المعلم ببعض النقود، وعدة أكياس مختلفة الأحجام، وثلاث ساعات ذهبية، وخمس نظارات ثمينة. وعدة أقلام أمريكانى غالية.. إلا أن المعلم لم يلتفت إلى شيء من هذا كله، وإنما نظر إلى ساعة واحدة ورأى عقاربها وقال فى ضيق شديد :

– وزبدة.. ألم تحضر بعد ؟

وقبل أن يتم كلمته كان الباب قد فتح فجأة ودخلت زبدة كما يدخل النور والإشراق، لكنها كانت مجهدة، لذلك ما إن دلفت إلى الكشك حتى ارتمت بجوار المعلم على المرتبة وهى تخرج من صدرها منديلا وتضعه أمامه على الطبلية، وقد جمعت أطرافه على حزمة أوراق كبيرة من النقد تزيد على الخمسين جنيهاً، ولم يكد المعلم يرى ذلك حتى تهللت أساريره وأطبق على الزجاجة من عنقها وأفرغ ما يقرب من نصفها فى جوفه. ثم مسح شفتيه وهو يهدر كما يهدر الحيوان الضخم،ونظر إلى زبدة التى مازالت بجانبه على الفراش، وانحنى عليها ليقبلها وهو مخمور يترنح، فرأى شيئاً كأنه لم يره من قبل.. رأى ذلك الثقب الذى فوق الصدر يتأرجح ويستمد نوره القوى من القمتين معا، وكأن النور بهر عينيه فوقف عنده قليلا، ولكنه فجأة وكأن شيئاً أفزعه أطبق على عنق الزجاجة ثانية، ولم يرفعها إلى ثغره كالعادة، وإنما قدمها إليها وأمرها فى عنف أن تشرب، ثم راح ينظر إليها وهى تشرب من الزجاجة، فلما دقق النظر رأى ثانية ذلك الثقب الذى فوق الصدر،

ورآه فى هذه المرة كثقب صغير جدًّا فى نافذة يزدحم خلفها نور كثير، وكأنه اشتهى أن يرى النور كله، لأنه فجأة رفع يده الواحدة ومد أصابعه الخشنة المتحجرة إلى الثقب ثم هبط به إلى أسفل فانشق الثوب كله. وكانت هذه مفاجأة لزبدة. ومفاجأة أيضاً للجميع، وكانت فوق ذلك أمراً إليهم بالانصراف، فانصرفوا جميعاً، ومن خلفهم (القط) الذى حرص قبل أن ينصرف أن يغلق الباب عليهما.

ونظر أبو خطوة، وهو متكور فى مكانه بساقه الواحدة، كما يتكور الكلب الأجرب على الأرض.. نظر إلى القوام الفارع الذى أمامه. ولم تخف زبدة ولم تضطرب، وإنما غمرتها فرحة كبيرة وهى واقعة أمامه على الأرض، وقد غرقت أقدامها بين الزجاجات الفارغة المكدسة حولها، تماماً كما غرق جسدها فى الدخان المتراكم فى قلب الغرفة، فغدت فيه وهى عارية، أشبه بغانية من غانيات الأساطير تسبح قبيل الفجر وراء الغمام. وقالت ضاحكة:

– ماذا تريد ؟

فقال وهو يئن أشبه ما يكون بحيوان مذبوح :

– أريدك.

– الليلة فقط ؟

– كل ليلة.

– إذن سأكون محظيتك.

– والمفضلة عليهن جميعاً.

ثم مد يده الواحدة، وهو يلهث كالثور، وأنشب أظافره الخشنة المدببة في شعرها، وأمرها أن تأتي له بزجاجه ثالثة. فنهضت متخاذلة وقدمت له الزجاجة فراح يشرب وهو ينظر إلى عينيها وصدرها فرحاً ويقول:

– حدثيني إذن. ماذا فعلت في بنها اليوم. وكيف أوقعت فريستك في الشرك.

فقالت مبتهجة وذراعها مازالت على كتفه :

– أهم شيء فعلته في بنها هو أنني زرت قبر أمي.

فقال في دهشة وهو يجاهد نفسه ليفتح عينيه اللتين بلون الدم:

– أمن بنها أنت ؟

فقالت ضاحكة :

– يقولون ذلك.

– إذن نحن من بلدة واحدة. أنا أيضا من بنها.

– كلها بلاد الله.

فقال، ولكن بعد حين، وهو ينظر إليها وسط الدخان المتكاثف. وكأنه ينظر إلى خيالات تتراقص أمام عينيه من بعيد:

– وكانت لك أم ؟

فضحكت حتى استلقت وهي تقول :

– وهل هناك من لا أم له ؟!

– هؤلاء جميعاً الذين تعيشين في وسطهم لا أم لهم ولا أب أيضاً.

ثم مسح على شفتيه واستطرد ولكن دون أن ينظر إليها:

– ولذلك يسمونهم بأبناء السبيل..

فقالت وهى تتناول الثوب المشقوق، وتضعه على جسدها العارى:

– ليتنى كنت كذلك.

– أعذبتك أمك ؟

– لم أرها...

– ماتت وأنت طفلة ؟

– ماتت وعندى عشر سنين.

– وكيف إذن لم تريها ؟

– ولدتنى وهى فى السجن، وماتت وهى فى السجن أيضاً.

فقال مفكراً فى صمت، كمن تذكر شيئا بعيداً. وكأنه يخاطب نفسه :

– فى السجن ؟

– أجل.

– لماذا ؟

فقالت دون اكتراث، وهى تضع طرف الثوب على فخذها التى مازالت عارية :

– يقولون إنها قتلت أبى.

فأحس فجأة كأن شيئاً مخيفاً يقترب منه، وكأنه يطبق بأنيابه على قلبه. فاضطرب وجحظت عيناه جحوظاً مخيفاً وهو يصرخ فى وجهها:

– ما هو اسم أمك ؟

فلم تجب، لأنها صمدت فى مكانها خائفة تنظر إليه. فغرس أظافر يده الواحدة المدببة سريعاً فى ذراعها العارية، وهو يصرخ ثانية كالمجنون:

– قولى ما اسم أمك ؟

فتمتمت خائفة ترتعش، وهى تنظر إلى عينيه الجاحظتين، وشعرات رأسه التي تصلبت فوق جبهته كالحراب تماماً:

– ماذا أخافك ؟

فصرخ وهو يطيق على عنق الزجاجة ويريد أن ينهال بها على رأسها:

– قلت ما اسم أمك ؟

فقالت سريعاً وكأنها لا تدرى ما تقول:

– اسمها مازنة حسنين.

فتخاذلت ذراعه وسقطت الزجاجة من يده وهو يغمض عينيه رويداً ويرتمى فى مكانه ناشباً أظافره فى الحشية القذرة الملوثة التى دفن وجهه فيها وهو يتلوى فى ألم شديد ويتمتم بصوت مبحوح مختنق أشبه بفحيح الأفعى:

– إنها أمى.. إنها أمى.

فانفرجت شفتاها المرتعشتان عن صرخة مكتومة وهى تنظر إليه:

– أمك.. أمك.

فلم يجب وإنما فتح عينيه فانفرطت منهما الدموع غزيرة جدًّا وظل يبكى والدموع تنهمر. كل ذلك وهو ينظر إلى أشياء كثيرة لا يرى منها شيئاً، ويتمتم بألفاظ مضطربة متقطعة.. لا يعرف لها معنى.. شقرف.. مطوة.. ويروح ينظر إلى الجوزة ودخانها الذى تمتلىء به الغرفة.. الزجاجات الفارغة المكدسة أمامه على الأرض.. الطبلية وما عليها من أشياء غالية.. ساعات ذهبية.. ثمينة.. أقلام حبر كثيرة.. نقود متعددة القيم والأحجام. منديل جميل ضمت أطرافه على رزمة كبيرة من أوراق النقد تزيد على الخمسين جنيهاً، ثم رأى ثقباً صغيراً على صدر جميل يرسل نوراً باهراً، ثم الأصابع الخشنة التى مزقت الثقب وهبطت به إلى أسفل، ثم رن فى أذنه حديث قصير، قصير جدًّا. بنها.. السجن.. مازنة حسنين.. الزوج الذى قتل.. الابنة التى ضلت.. الأخت التى ذلت.. الأخ الذى..

وفجأة جحظت عيناه مرة أخرى. وراحت نظراته فى جنون غريب تعربد بكل شىء.. الجسد العارى الذى أمامه. الحشية الملوثة التى يجلس عليها.. الزجاجات الفارغة التى حوله.. ساقه الخشبية الملقاة هناك.. الدخان الذى يكتم أنفاسه.. ثم رأى مع ذلك كله شيئاً لم يكن قد رآه، مع أنه طول العمر يحمله على صدره، فطرب سريعاً لرؤيته حتى لكأنه يراه لأول مرة، وأطبق عليه أصابع يده الواحدة سريعاً، وفى عنف شديد حتى لا يفلت منه، وفجأة أيضاً وفى نفس السرعة وبنفس الضعف الشديد أغمد الخنجر فى صدره وارتمى عليه بجسده الثقيل حتى تساعده قواه جميعاً على الوصول به أيضاً إلى المكان الذى يريد، ورأت هى ذلك،

وأرعبتها رؤية الدم الذى انبثق من صدره على الحشية كالرقعة الحمراء، فانفرجت شفتاها عن صرخة مدوية قفزت على أثرها الجماعة التى تنام فى الدهليز، وتسلقت السلم سريعاً كالجرذان الهلعة، وفتحت الباب وازدحم الكشك بالجميع. شقرف.. ومطوة.. والقط.. وشلفط.. ودبوس.. وأم سنة.. وكيداهم.. وما إن رأوا ما رأوا حتى وقفوا ذاهلين، ينظرون إلى المعلم والسكين التى فى صدره، والدم الذى يتفجر منه ويسيل دافئاً تحت أرجلهم، ثم ينظرون إلى زبدة وقد وقفت عارية كتمثال من الحجر.

وفتح أبو خطوة عينيه، ونظر إليهم جميعاً، وإلى الخنجر الذى فى صدره، والدم الذى يتفجر من حوالبه، ثم إلى زبدة وتمتم وكأنه يلفظ مع بعض الكلمات أنفاسه أيضاً:

– أتعرفون.. زبدة.. زبدة التى كانت محظيتى هذه الليلة..

وأراد أن يقول شيئاً آخر، بيد أن زبدة لم تجعله يتمم، إذ انقضت عليه سريعاً مربدة السحنة كما تنقض الصاعقة تماماً، وفى سرعة خارقة سحبت الخنجر من صدره وأغمدته فى عنقه، وقالت وهى تجهز عليه قبل أن يلفظ السر الكبير:

– لقد أراد بى سوءاً فقتلته.

ثم أطبقت ذاهلة عن كل شىء إلا العنق الذى مازال فى يدها تجهز عليه، وتجثته من جذوره لتجتث معه سرها.

ومنذ تلك الليلة التى ذهبت فيها زبدة إلى السجن حتى اليوم، وشلفط.. ومطوة.. وشقرف.. ودبوس.. والقط.. يتساءلون فيما بينهم عن هذا السوء الذى كان المعلم يريده بها.

• محمد عبد الحليم عبد الله

طريق شجر الكافور

كانت عيادة طبيب الأسنان فى هذا البندر الصغير مزدحمة بالمرضى هذا المساء. والصالة الصغيرة ملأتها رائحة العقاقير حيث جلس الرجال على مقربة من حجرة الطبيب. أما استراحة النساء فكانت عند نهاية الممر وعلى مقربة من مرافق الشقة. وتجمع فيها عدد من النساء من مختلف الأعمار والألوان، لكن طابعاً واحداً كان يجمع بينهن كلهن وهو طابع الطبقة الدنيا.

وكان اللغط السائد فى الحجرة أشبه شيء بلغط الدجاج. ومع الأمهات صبيان لا يكفون عن المطالب. وفى زاوية الغرفة سيدة متقدمة فى السن تحكى عن ظلم زوجة ابنها لها، فى الوقت الذى كانت فيه إحدى الشابات فى الركن المقابل تصف ظلم حماتها، والبلاء الذى تصبه على رأسها فى الصبح، إذا ما أحست أن ليلتها الماضية كانت هنية !

وهناك سيدة فى منتصف العمر كانت تنظر إلى الجالسات ولا تتكلم.. وكان فى عينيها قلق من مرور الوقت، وعلى ملامح وجهها ألم ينتابها على موجات. وحين يبلغ الذروة كانت تضم شفتيها أو تعض السفلى بثناياها. وفى خدها الأيسر ورم خفيف، يدل على أن ضرسها يهددها بخراج. عليها ثوب من الحرير أسود اللون، عبرت سذاجة خياطته عن طبقة صاحبته، فهى ريفية الأصل، انتقلت

مع زوجها إلى أحد البنادر، تفرق شعرها من الوسط ويتحدث حالها عن أن زوجها من ذوى الصناعات، أو هو على الأكثر مستخدم فى مصلحة حكومية.. تقف بين فخذيها طفلة بنت خمس سنوات، ذات شعر أكرت يميل إلى الصفرة، تأخذها بين الحين والحين سنة من النوم فتميل برأسها على جسم أمها، وإذا استيقظت قطمت قطعة من البسكويت فى يدها، ونادت أمها برجاء وتكاسل: «ماما.. ماما.. مش خلاص؟!»

وكانت الأم تنتظر دورها، وتنظر إلى الخارجين من حجرة الطبيب عند نهاية الممر، وقد كست وجوههم جميعاً تعابير من الألم. على أنها كانت خائفة كأنها مقدمة على عملية خطيرة، لأن أمها ماتت بسبب خراج فى الفم، ظل ينقلها بخداعه الناعم من مرحلة خطر إلى مرحلة أخطر حتى انتهى كل شىء.

وكانت قد ذكرت هذه القصة لزوجها قبل مجيئها إلى البندر، فأرسلها إلى الطبيب بحمية وحماسة ولولا عمله الليلى الذى لا يقبل تأجيلا لصحبها إلى هناك. لكن سفر نصف ساعة فى إحدى السيارات العامة ليس أمراً صعباً على كل حال.

ولم يوصها بنفسها لأنه يعلم مقدار غيرتها عليها، فقد عاشرها سبع سنوات لم يربه منها شىء. وهى وإن كانت بادية الأنوثة، فإنها سريعة التقلب إذا دهمها خطر، شأن كل فتاة وجدت نفسها مكلفة بالدفاع عن نفسها، بعد أن مات أبوها فى عنفوان شبابه، وتزوجت أمها فوجدت الفتاة نفسها وجهاً لوجه أمام عاديات الزمن وإغراء الرجال.

وكان الوقت يمر وهى تتململ، فهى تريد أن تسافر قبل أن يتقدم الليل. ثم تنفست الصعداء حين قطع الممرض العجوز سؤالها عن الساعة، ودعاها إلى الدخول، فهرولت تقطع الممر إلى حجرة الطبيب، وقلبها يخفق إلى مدى ربع ساعة، ثم خرجت أيضاً وعلى وجهها تعابير الألم.

وفجأة تحول الألم إلى صرخة عندما فطنت إلى أن الطفلة لم تكن معها ساعة دخولها إلى الطبيب. وفطنت أيضاً – كأنها تفسر حلما – إلى أن الطفلة كانت فى آخر لحظاتها بعيدة عنها تلعب مع بنية تقاربها فى السن، فى حجرة استقبال الحريم، فلما هرولت إلى هناك لم تجد أثراً لها. وكان اللغط لا يزال سائداً على الصورة التى تركته عليها.

وقالت بعض الجالسات فى شىء من الرثاء: «لقد خرجت وراءك».. واستفسر بعض الرجال الجالسين فى الصالة عن لون جلباب البنية ثم أكد لها أنه رآها تخرج من هذا الباب.. هذا الباب.. باب العيادة !

وليس فى استطاعة أى أم إلا أن تفعل نفس ما يفعله الظمآن الأحمق، حين يلقى بنفسه فى البئر، كأنما قبل أن يفوت الأوان ويحيق الخطر. وكما نفتش بلهفة عن شىء ثمين سقط فى التراب، فندفنه بأيدينا، أخذت الأم تعدو فى الشارع الرئيسى الذى تقع فيه العيادة وهى تنادى على «فوزية».. وكلما ابتعدت عن المكان خيل إليها أنها على وشك أن تلقى بنتها.

ومن خلال الغطاء الكثيف الذى سقط على إحساسها فجعله كإحساس السكارى، رأت تجمع الناس حولها وسمعت إلى مشورة كثير منهم. وكانت تشرع فى تنفيذ إحداها، ثم تعدل بسرعة، لتأخذ بمشورة أخرى، فى ارتباك وفوضى وجزع... وكلمات الرثاء تثير دمعها، أما النظرة الجامدة من بعض الوجوه فكانت تشعل النار فى قلبها.

وكانت تفحص وجه كل طفلة وتكاد تلمس كل شعر مجعد. وخيل إليها أنها على وشك أن تلقى زوجها فى أحد الشوارع، بل لعله لاح لأوهامها فى النور بوجهه المستطيل الأصفر، وشعره الحالك السواد، وشاربه الرفيع المسبسب وألهبت هذه الصورة مخاوفها، واشترك الحنان والخوف فى إلقائها فى النار، فصارت تصرخ بأعلى صوتها: «فوزية.. فوزية».

وأحست أن يداً قوية تمسك بمعصمها، ونظرت فإذا رجل ضخم فى ثياب بلدية، يبدو عليه أنه من التجار، يدعوها بصوت غليظ منخفض ألا تضيع وقتها، وأنه يحب أن تذهب إلى الشرطة فتبلغ عن ضياع بنتها.

ونظرت إليه بعينين زائغتين، ولكنها لم تجد ما تقوله. وانصرف الرجل وظل صوته عالقاً فى أذنيها كأنه بقايا أزيز. وفطنت الأم إلى ألم ناوشها فى فكها، وصداع يحتل رأسها كله، وجفاف فى حلقها ومرارة. ثم فطنت إلى أنها عادت من حيث أتت، وإلى أن اللافتة التى تحمل اسم الطبيب ظهرت فى مواجهتها معلقة على الشرفة المستطيلة ذات الحديد المصنوع على هيئة كئوس.

وكأنما كان هذا المنظر نذير فشل، فخيل إليها أنها فرغت من الجولان فى كل الأزقة، وأنه لم يبق إلا اليأس، بدليل أنها عادت إلى نفس المكان! فصرخت بحلقها الجاف تنادى على بنتها. وعندئذ جاءها صوت خائف ملهوف: «نعم يا ماما..».

وتلفتت الأم وهى تجمع ما تشتت من حواسها، لتفرق بين الحقيقة والوهم. ولكن ذلك لم يكن وهماً بل كان حقيقة. فهذه «فوزية» فى يد الممرض تنتفض من الخوف، وتقف الدموع على أهدابها، وحبات العرق على جبينها الصغير. ولم تسأل الأم أين كانت بنتها، فقد كان المهم هو أن تراها فى الوقت الذى أخذ فيه الرجل الضعيف البصر الذى جاوز الستين من عمره، يصف لها كيف أنه وجدها نائمة فى دورة المياه الملاصقة لاستراحة الحريم، بعد ما انصرف المرضى وكان هو فى سبيل إغلاق العيادة.

* * *

ولم تكن تدرى كم مر من الوقت، فإن الحوادث قد سرقتها. واتجهت من فورها نحو الطريق الزراعى لتعود إلى بلدها، وكان الوقت صيفاً والليل بادى النداوة،خصوصاً على شجر الكافور.

وأخذت نفساً طويلا حين صافحها النسيم، وتذكرت وجه زوجها وقلقه عليها، ثم تذكرت ثقته فيها عندما تصل بالسلامة وتحكى له حوادث الليلة وتوقعت بعض الملامة، فأخذت تجهز الإجابة والأعذار.

لكن مشكلة جديدة مالبثت أن لاحت على الأفق، فقد طال انتظارها لسيارة الأوتوبيس، التى تعتبر المواصلة الأولى على هذا

الطريق. ولما ضاع الوقت أخذت توازن بين القلق الصاخب، والقلق المكبوت اللذين عانتهما فى هذه الليلة.

وبهر عينيها على بعد ضوء أحد الكشافات، فرفعت يدها تشير بالوقوف لكن حركة الاندفاع نحو الأمام كانت تدل على أن السيارة لن تقف ووقعت الأم والطفلة فى نطاق النور ثم حاذتهما السيارة ثم جاوزتهما وعبرت ثم توقفت بعد ذلك !

ولم تتحرك الأم من مكانها حين رأتها إحدى سيارات النقل التى تمر أحياناً على الطريق. لكنها سمعت صوتاً يناديها: «ياست.. ياست.. تعالى ياست» !

وتقدمت آلياً بلا إرادة، كما نعانق الأخطار لفرط خوفنا منها. وكان الصوت لا يزال يناديها آمن النبرة هادئاً فيه خمول النوم. تقدمت الأم بعد ان وازنت بسرعة بين كل الأخطار. فنحن فى طرفة عين نصدر أحكامنا بطريقة غريزية لا عقلية إذا هددتنا المخاوف. على أن المرأة تذكرت أن شخصاً ما سينقذها على الطريق.. حتما.

ووصل إليها الصوت من مقعد السيارة.

– لأجل خاطر الطفلة.. تفضلى.. وإلى أين أنت ذاهبة ؟

– عند محطة (...) أنزلنى.. لكن.. كم تطلب أجراً ؟

فانخرط فى ضحك هادىء ولم يردّ وأخرج الثقاب ليشعل لفافة، فرأت وجهه المكتنز الأسمر، وذقنه غير المحلوق. ولم يكن صغير

السن ومن الممكن أن يطمئن القلب إليه. ونفخ أول نفس من اللفافة وقال وهو يفتح الباب.

– أجرة؟! من يأخذ أجرة على إنقاذ الغريق؟! أليس من الجائز أن تظلى واقفة حتى الصباح!؟.. اصعدى من أجل الطفلة.

وفى الدقائق الأولى كان الصمت ثقيلا. وكانت الطفلة بينها وبين السائق ورائحة البنزين وحرارة الجو وصوت المحرك وألم فى الفم وترقب الكلمة الأولى، كل هذه الأشياء كانت أشبه بإصبعين تضغطان على حلقها.

ومرت دقيقتان، وتنهد السائق فى الوقت الذى كانت هى فيه تقدر سرعة السيارة بمرور أشباح الشجر إلى الوراء، وكأنها تقدر خطورة القفز إذا اقتضى الأمر. ثم تنهد السائق مرة أخرى ثم قال للطفلة بعد أن مال نحوها قليلا: « ما اسمك يا عروسة ؟».

وضحك بصوت عال، إذ لم ترد عليه، ثم حول الكلام نحو الأم:

– لماذا لا ترد؟ لعلها خائفة منى. سأبحث إذاً عن عروسة أخرى!

ولم يجئه جواب من أحد، فقد كان يفتح باب الحديث بخبث ثم عاد يسأل الأم:

– على فكرة.. ما اسمها ؟

فأجابت بصوت متهالك من الألم وصل إلى أذنه على صورة ظنها إغراء :

– اسمها فوزية.

فهتف بسرعة:

– فوزية؟!. يا لها من عجيبة. تصورى أن حبيبتى الأولى كان اسمها فوزية! فوزية.. فوزية!

وسكت ولم تتكلم المرأة فعاد بعد وهلة يقول:

– آه.. فوزية.. فكرتنى بالذى مضى (ثم وجه الكلام إلى الأم) ولكن ما الذى أخرك فى البندر حتى نصف الليل ما دمت ذاهبة إلى هذه البلدة ؟!

– كنت.. كنت.. فى زيارة أخى.

– هل هو فى البندر؟

– لا.. فى السجن.

– يا ساتر! ولماذا هو مسجون؟ فلم تجب. فمال على البنية وقبلها بصوت عال ثم طلب الجواب فقالت المرأة:

– اتهم فى جريمة قتل.

– قتل ؟! يا ساتر!

وسكت، وعاد أزيز المحرك إلى أذنها ولامست قلبها فرحة الطمأنينة حين استطاعت – كما تعلمت من زوجها – أن تسارع بإلقاء الرعب إلى قلب من يريد تخويفها. ومضت فترة قال بعدها السائق:

– هل تعلمين أننى لا ألوم القاتل أحياناً لأنه قد يندفع إلى الجريمة بلا وعى ؟

– ولا أنا.

فضحك فى شىء من السخرية. ثم سكت. ثم قال بعد فترة:

– ولأننى أنا شخصيًا قد قتلت زوجتى وأنا شاب صغير!

فأمسكت المرأة أعصابها ونظرت إلى أشباح الشجر وهى تجرى إلى الخلف، ورأت أنواراً متتابعة لسيارات فى طريقها المضاد نحو البندر فحملت إليها شجاعة جديدة، وبما أنها كانت تلفق الأكاذيب فقد رجحت أنه هو الآخر يكذب فعادت تقول وكأنهما فى مزاد:

– لابد أنك كنت تحب زوجتك فأنا أعرف امرأة قتلت زوجها من حبها فيه.. من الغيرة عليه.. دست له السم.

فهتف مسرعاً:

– امرأة وتقتل ؟! إن جرائم النساء أفظع من جرائم الرجال. يا ساترا! هل كانت جارتك مثلا ؟

– أقرب.

– صديقتك ؟

– أقرب.

– قريبتك ؟

– أقرب.

– أختك أو أمك مثلا ؟!

– أقرب.

– أقرب؟!.. ها. ها. ها. إذاً فأنت التى قد قتلت زوجك؟ هل من الممكن أن يجتمع قاتلان على كرسى فى سيارة نقل بمحض المصادفة أيتها الكاذبة ؟!

وانخرط فى الضحك لأنه كان كاذباً فى كل ما قاله، ثم استطرد:

– وما دمنا متشابهين فلماذا لا نتزوج؟! أليس هذا مناسباً ؟!

– ليس عندى مانع. تعال معى إلى بلدنا لتخطبنى من أخى.

فأجاب بسرعة من رأى خطراً لم يكن على باله:

– ليس هذا مهمًّا الآن. المهم الآن أن تعرفى أننا سنقف بعد دقيقتين عند (نقطة مرور) وعندما أسأل عنك، سأقول إنك زوجتى وهذه الطفلة التى يعاكسها النوم ابنتى، لأن لوائح المرور تحرم علينا أن نركب أحداً معنا. هل فهمت؟ ثم.. أليس هذا فألا حسنا. لا تنسى أنك زوجتى !

وظلل الصمت. وعاد أزيز المحرك ورائحة البنزين وألم الفم تسيطر على مشاعر المرأة. على أنها كانت أكثر سعادة من أى لحظة مضت فقد قرب الوقت، وسينزاح الكابوس.

ووقفت السيارة أمام النقطة. وخرج من المبنى أحد رجال الشرطة وتقدم نحو المقعد الذى جلسوا عليه فى اللحظة التى كانت البنيّة فيها تقول بأعلى صوتها: «أشرب يا ماما. أشرب يا ماما».

– هل تريدين أن تشربى يا فوزية؟! تعالى يا حبيبتى.

ونظرت الطفلة نحو رجل الشرطة الذى كلمها وغيرت نداءها فوراً.

– «أشرب يا بابا.. أشرب يا بابا» !

وفى هذه اللحظة فتح باب السيارة ونزلت الأم فى تهالك شديد واحتضن الأب الطفلة وقبلها ومال نحو السائق يقول له قبل أن يمشى.

– أشكرك. هذا فضل لن أنساه لك.

وتحركت السيارة وكلمات سائقها تتناثر على الطريق.

– هذا أقل واجب.. ربنا يديم المعروف.

ثم سابق الريح !

* * *

وعندما أخذ الزوج يستوضح الأمر قالت الزوجة فى إعياء شديد:

– إنها حكاية طويلة.. ستعرفها فى البيت.. صب على وجهى حفنة من الماء.

● يوسف إدريس

أبو سيّد

الدنيا كلها سكون، والصوت الوحيد الذى يتسرب إلى الحجرة كان ينبعث من «وابور الجاز» وهو يون من بعيد فى ضعف مستمر واهن وكأنه نواح طفل عنيد مسلول، ولا يقطع الون الشاحب البعيد إلاّ زحف «الكوز» على أرض الحمام، ثم صوته وهو يتلع الماء ويصبه بعد ذلك فى ضوضاء مكتومة...

واستمر الوابور يزن، والكوز يحف ويتلغ وينصب ماؤه، وصفيحة الماء تقرقع. استمرت الأصوات كلها تتضارب وتحلق كالوطاويط فى سماء الحجرة، حتى جاد الوابور بآخر أنفاسه وانطفأ، وأعاد المكان إلى سكون الدنيا الثقيل.

ومضى وقت طويل قبل أن يفتح باب الحمام، ويسمع رمضان نقيق «القبقاب» على البلاط وهو يقترب، ويعلو وهو يقترب، حتى دلفت امرأته إلى الحجرة، وأحس بنفسها الذى ليس غريباً عليه يملأ الجو.

وظل «القبقاب» رائحاً غادياً، وضوء الصباح ينتقل من مكان إلى مكان، وهمهمة حزينة خافتة تنحدر وتعلو من فم امرأته مع اقتراب الضوء وابتعاده.... ظل هذا يدور ورمضان مغلق عينيه، ومصر على إغلاقهما. ولم ينتفض ويفتحهما إلا فى قطرات من الماء البارد تلسع وجهه.

وجمّده قليلا مشهد امرأته وقد وقفت منكوشة الرأس، والمشط الخشبى فى يدها تدكه بين غزارة شعرها الأكرت، ثم تشده بكل ما تستطيع ليحرث طريقة بين الجذور والسيقان، وقد زمت وجهها السمين الخمرى اللامع، وارتسمت دقائق التجاعيد حول أنفها السهل الفاطس، وبان النور من عينيها اللتين ضيقتهما فى فروغ بال بينما رذاذ الماء تدفعه جذبة المشط فيتساقط هنا وهناك، وعلى ثوبها الشيت النظيف ذى الورود الكبيرة الباهتة.

وانتهى جمود رمضان، ثم عاد إلى نومته وقال فى شىء من التحدى وهو يغلق عينه:

– مش تحاسبى يا وليه.... قزازة اللمبة حطق من الميه...

وردت المرأة بكلام مضغوم لم يفسره، ولم يهتم به، فقد عاد يتنفس بعمق، ولكن رجله لم يفردها، ويشخر بمطلق إرادته، ثم قرر أن ينام.

وحين كان يجذب اللحاف فوق أكتافه، وارب عينيه، وألقى نظرة أخيرة على زوجته التى كانت يدها تمتد إلى المصباح تمسيه، وشعرها قد تم نظامه، وازدادت لمعته، ووجهها قد ابيض حتى كادت تختفى تجاعيده فى تلك الابتسامة الكبيرة الرائعة التى احتلت وسطه..

وارتعش رمضان، وأسرع يصفق عينيه فى عنف، فقد كان يعرف من زمان سر هذه الابتسامة... فاليوم يوم الخميس... والليلة ليلة الجمعة...

وأحس الرجل بالسرير ذى الأعمدة الرفيعة يهتز، ويزيق، ثم بامرأته تستوى على السرير، وتدخل تحت الغطاء، وعبقت فى الدنيا التى يصنع اللحاف سماءها رائحة المرأة مختلطة برائحة ثوبها الشيت، ورائحة الصابون الرخيص الذى دعكت به جسدها.

وكح رمضان وكان لابد أن يكح، وطال سعاله، وقالت امرأته ووجهها إلى الناحية الأخرى فى صوت حنون ذليل:

– مالك ياسى رمضان...

ثم سكتت قليلا قبل أن تقول فى همس خافت ملىء بالإثم:

– اوعى سيد يكون صاحى...

ولما لم يرد، تنهدت فى حرقة تصاعدت من كبدة قلبها، واهتزت أعمدة السرير وهى تستدير لتكمل آهتها، حتى أصبح وجهها يتدفأ بكثير من الحرارة والخشونة المنبعثة من رمضان.

وكان الرجل ساعتها يلهث، ولفح أنفاسه يحملها بعيداً... إلى حيث لا يراهما أحد، ثم يلوكها فى نشوة ويدغدغ ضلوعها فى حنان ومدت يدها وملّست أصابعها على جبهته اللزجة بالعرق ثم أرسلت تتحسس رقبته الغليظة النافرة العروق، وقالت فى صوت خنقته وأطالت فيه حتى غدا كمواء قطة جائعة:

– اسم الله عليك يا خويا.... اسم النبى حارسك يا ضنايا...

وكح رمضان، وكان لا يريد أن يكح، وزام من خلال فمه المطبق، ثم اهتز السرير وهو يستدير ليعطيها ظهره...

* * *

وما كانت هذه أول ليلة يستدير فيها، ولا كانت هذه أول مرة يكح فيها ويزوم ويعبس.. وهو لا يذكركم شهراً مضى، وهل بدأت المسألة عقب أيام العيد الصغير أم قبله، وهناك ضباب كثيف بينه وبين البداية، فما فكر فى الأمر أبداً ولا اعتبر ما حدث - يوم حدث - بداية لأية نهاية.... تماماً كما لم يتبين جاره سى أحمد الكمسارى فى شركة الأوتوبيس أن السخونة التى أصابت ابنته ممكن أن تكون البداية لنهاية يعزيه فيها الناس على البنت.

والناس على هذه الحال، وكذلك رد ما أصابه فى تلك الليلة إلى نوبة البرد التى ألمت به، ومرت أيام، وراح البرد من جسده، وحين استيقظ ذات صباح ووجد العافية قد ردت إليه، قرر أن يفعلها فى نفس المساء.

وانشرح خاطره لقراره ومضى إلى الميدان يردد فى انتعاش مطلع الموال الوحيد الذى يعرفه. وتسلم صرة الميدان كما تركها، ووقفت العربات لإشارته كما اعتادت أن تقف، ويده قوية فى قفازها الأبيض القديم كما كانت طول عمرها، وبدلته بزرائرها الصفراء اللامعة محبوكة عليه، تبرز أكتافه وتضيق فوق كرشه فتكوره وتجعله كالبطيخة أمامه، وقبعته يلمع فوقها الدهان الذى لا يفلح فى إخفاء كل ما فيها من قذارة وبلى، وقلمه الثابت الثقيل فى يده يلتقط نمرة العربة فى سرعة الواثق من يومه وأمسه وغده ويدونها بخطه الواضح الذى كان يفخر بجماله... كانت الدنيا هى الدنيا... الدنيا التى هنا والتى هو ملكها، كانت لا تزال بخير، ولا يزال يتربع على عرشها، ويحكمها بصفارته، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء فقط متى لوح بقفازه.

وحين كان يكتب أول مخالفة كان عقله سارحاً فى الليلة التى سينفض فيها عن نفسه خمول المرض الذى لازمه أسبوعاً، ولكن أمور اليوم شغلته، وعيونه الزائغة هنا وهناك تنقر المخالف من تحت القبعة، هذه العيون ألهته عن الخاطر. ولم ينتبه له إلا هناك.. حين كان يجاهد فى خلع حذائه الميرى الثقيل وقد ألقى بجسده المنهوك على «الكنبة» وامرأته تلقى إليه بتحيتها الوادعة، ثم تتربع على الأرض وتقول فى حماس أطفأت العادة جدته:

– عنك أنت.

وطوقت يدها اللينة قليلا سمانة رجله بينما مقدمة حذائه أصبحت مدفونة بين أقدامها. وحينئذ نقر الخاطر فوق رأسه...

ولم يعتبر ما جاء فى باله عملا صبيانيًا، فراح يزغزغ المرأة بحذائه الثقيل العريض وهى تضحك، وتشدد من قبضتها على عضلات رجله، وترخى القبضة فى بطء، وهو قد استمرأ اللعبة، وانتشى وهو يعب من صوت امرأته التى كانت تمطه، وترفعه ثم تحيله همساً، ونصفها يضحك، ونصفها يتدلل، وكلها تريد وترغب.

* * *

فى ضباب البداية يذكر رمضان هذه الليلة ولا ينساها، فقد حاول فى كل دقيقة منها وسالت عليه بحور العرق، وقد أصم شعوره عن العالم، وأصبح هو وامرأته والفراش كل دنياه وتفكيره.

فأزاحته المرأة مرات ومرات، ولعن أباها آلاف المرات، والمعركة تدور وتدور لا تهبط إلا حين يتململ الصبى حتى يكاد يستيقظ، وتبدأ حين يعود إلى غطيطه ويعود اللعاب يسيل من جانب فمه...

وهجعت المحاولات قرب الفجر، ونامت المرأة، ولم ينم رمضان.

وليلتها مضت، وليلة أخرى جاءت، وصراع جديد نشب، وثقة رمضان فى نفسه ورجولته تستميت وهى تدافع عن نفسها، والواقع وما يحدث يسلب هذه الثقة كل ما تملك.

وأخيراً سلم رمضان بعد ليال، وقال لنفسه فى صباح يوم بصوت لا يدرى أكان مسموعاً أم غير مسموع:

– لا حول ولا قوة إلا بالله... واللاضعت يا رمضان واللى كان كان.

ولم تكن أول مرة يتحاشى فيها امرأته وهى تقدم له الفطار، وإنما كان يود أن يزيحها فى هذا اليوم من أمامه، ثم يسرح ويخبط رأسه فى الحائط عله ينفلق، كان شىء غريب يدور فيه، فبالقوة والعافية والعرق والليالى الطويلة كان عليه أن يصدق أنه لم يعد رجلا وكان هو يأبى أن يصدق، ويكابر هذه الحقيقة وهو مكسوف خجل كما لو كانوا يزفونه فى البلد فوق الحمارة وهو عارى الجسد وعلى رأسه كومة طين.

ويعود من جديد يقول وكأنه يتلو آية الكرسى ليطرد جنية من الجان:

– واللاضعت يا رمضان، واللى كان كان.

ويصمت ثم يقطع لقمة كبيرة من الرغيف ولا يأكلها، ويقوم، وينظر من النافذة ثم يكح ويبصق بصقة كبيرة على العشش التى فوق السطوح أمامه ويعود إلى جلسته أمام الطبلية. ويسرح فى

صمت طويل آخر وهو يحدق فى الطعام ويمضغ صمته حتى يشبع فيرتدى البدلة وكأنه يخلع كل ملابسه ثم يتسلل من البيت كحرامى النحاس وجسده هارب منه وأطرافه لا يعثر عليها....

وحين يقف وسط الميدان، والعربات تزدحم حوله، والأرض والسماء تتحرك، وهو وحده الواقف الهامد الضائع.. حينئذ يشعر بتفاهة هذه المملكة التى له، ويضايقه القفاز الأبيض، ويحس بالقبعة وكأنها حجر الطاحونة يكتم أنفاسه.. ويومها لا يقيد محضراً واحداً، وما له هو والمحاضر والمخالفات، فليدع من يخطىء يخطئ، ومن يتحطم يتحطم، ومن يقتل يقتل.. وهل هو الذى ينظم الكون... لعن الله العربات وأصحاب العربات والمرور وكل ما يمت إلى خلية النحل التى يلسعه دويها وصرخاتها.

ولأول مرة فى حياته كره بيته، ووجه امرأته النحس، ولم يعد توًّا إليهما..

وفى خطوات لا يهمه وقعها، ولا أين تقع، راح يدق الشارع بحذائه الثقيل، وقد كفأ القبعة فوق جبهته، وامتلأت أخاديد وجهه بالاشمئزاز واليأس، وفك حزامه العريض، وتمنى أن ترحمه عربة نقل وتأكله، ووصل أخيراً إلى باب الإنسان الذى لا يصادق فى المدينة إنساناً سواه. وطرق الباب – ونادراً ما كان يطرقه – ولم يفاجأ طنطاوى وإنما رحب به وسأله عن الصحة وكالمعتاد عن البلد والقرايب والنسايب والذى مات والذى عاش ومن تزوج. ولكنه فوجىء فعلا حين قطع رمضان أسئلته وقال فى جد:

– اسمع يا واد يا طنطاوى.. عايزين تعميره..

ولم يكن رمضان يشرب الحشيش كثيراً ولكنه شرب هذه المرة حتى أن طنطاوى لم يأتمن الطريق عليه فأصر على مرافقته، ولم يرفض رمضان، ولم يقبل، ولم يرد على أسئلة صاحبه عن السر الذى يكمن وراء سكوته.

وفى الطريق سرح رمضان بعيداً، وأوغل فى الزمان والمكان، حتى وصل سكينة جارتهم فى بيتهم على الترعة، ثم السنوات القليلة التى أعقبت بلوغه... وكان رمضان يتوقف عن السير، ولا يدرى لماذا، ثم تجذبه ذراع طنطاوى فيمشى ويسرح ثم يتوقف، حتى خطر له خاطر قاله فى انبهار:

– يكونشى يا ولاد الحشيش ينفع؟!

وانفجر ضاحكاً وقد كف عن المشى وغمغم طنطاوى وهو يهز رأسه فى رثاء:

– الجدع انسطل والنبى.

وهم رمضان أن ينطق، وكادت الكلمة تغادر فمه، ولكنه لحق نفسه، وابتلع الكلمة، وابتلع معها ريقه الجاف. وحين جره طنطاوى من يده عاد حذاؤه يقرع الطريق مرة أخرى..

* * *

ولم ينفع الحشيش.... أبداً.

وعاش رمضان بعد لياليها صامتاً.. ولا يتحدث إلا حين يمد إنسان يده فيستخرج من جوفه كلاماً كالعصارة الفاسدة لا نكهة لها ولا معنى، وإنما هو مزيج من الضجر والتبرّم يعكره سخط

غامق بليد، وامرأته تتكلم، وتكثر من الكلام، وهو لا يتحرك وعمله في الميدان أصبح علقماً يشربه في بطء الساعات التي يقضيها نصف واقف وتحيته التي طالما انتفض بها لرؤسائه في مرورهم تضاءلت ووهنت وأصبح ينتزعها من جسده كما ينتزع الناب الفاسد، وأصبح يتخبط في حبل طويل من الأكاذيب التي يقصها على الطبيب فيمنحه اليوم أو اليومين إجازة يقضيها حيث لا يقضيها.

وعمره ما عاد لبيته إلا ويده مشغولة بشيء. ولو بربطة فجل فصار يعود ويده خاوية تتأرجح بجانبه وكأنها ليست من جسده.

وفي ذات عودة، سلم على حماته وكانت قد حضرت لتوها، وتندّى جبين امرأته لبروده وعدم مبالاته، وأكلت النيران قلبها وحديثه لأمها لا يخرج عن: ازيك.. سلامات، ثم صمت طويل من صمته البارد. تعقبه سلامات أخرى حتى ضاقت الضيفة فلم تكد تلهف صلاة العشاء حتى تمددت على السرير وهي تئز بآهاتها وتشكو من مفاصلها.

ولم تمض ساعة حتى كان ممدداً بجانب ابنه وامرأته على الحصيرة تحت أقدام الفراش. وأيقظته حماته حين عثرت به لما قامت تتوضأ قبل الفجر، وحين كانت تخطىء كعادتها وهي تقرأ الفاتحة بصوتها الخشن، كان يسأل نفسه بعدم اكتراث، ترى ما الذي جاء بها؟...

وكان الجواب ينتظره في المساء حين تنحنحت الحاجّة بعد العشاء وقد تربعت على الأرض وأسندت ظهرها إلى الحائط وانتهت من إحاطة نفسها ورقبتها وصدرها بالمحرمة الكبيرة البيضاء، وبدأت تقول بصوتها المبحوح:

– بقى يا بنى ما خبيش عليك....

والحق أنها أخفت عنه الخطاب الذى أرسلته لها ابنتها من ورائه، وإنما راحت تسوق له القصة فى حنكة العجائز، وكان صمته هو الذى شجعها على أخذها دور أمه وأخته ثم ناصحته حين قالت:

– وكل عقدة وليها يابنى حلاّل.... ألف حلاّل....

عقدة ماذا؟ وحلال إيه؟! وماذا جاء بك؟! وما لك أنت وما أضناك يا بنت المركوب؟! وبدأت اللعنات التى تنهال من داخله إلى داخله تصنع بصابيص النار التى ألهبت ثورته. فحتى هذه اللحظة لم يكن قد أدخل امرأته فى المسألة، ولم يعترض وجودها وشعورها ورأيها طريقه وهو يترنح فى الخرابة وحده، إنه ليس وحده.... ومن يدرى كم معه الآن ؟

وشبت الثورة فى حريق هائل قلب الطبلية وأطفأ المصباح وسمع الجيران طقطقة حطبها حين علا صوته فى زئير مرتفع:

– علىّ الطلاق ما انتى نايمة فى بيتى.

وباتت الحاجّة وابنتها عند الجيران وقبل الشروق كان القطار يحمل الأم وحدها إلى البلد ولو كان للبنت مكان فى دار أخيها لحملها هى الأخرى...

كان رمضان فى نفس الوقت يتسرب من الحارة وهى يتلفت حوله حتى لا يراه أحد.وقابله أبو سلطان وصبح عليه، غمغم بتحية قصيرة، ورأسه منكس، فأقدامه تسعى فى عجلة حتى يتوارى عن الأنظار. وكذلك فعل مع عبد الرازق بائع الجرائد والحاج محمد

الفوال، وكل الوجوه التى يعرفها والتى لا يعرفها، وكانت أقل حركة فيها سره، والكلمة الواحدة فيها إشارة واضحة، والضحكة فيها سخرية منصبة عليه... كل الناس يعرفون حتى الواقف بجانبه، المتعلق معه فى عامود الترام، حين زغده بعينه والترام يميل، كان يعرف هو الآخر.

ومضى إلى صرة الميدان كالريخ وهو يتمنى أن يشف حتى لا يراه أحد.

وبدأ العمل...

ومن لحظتها بدأ يحس أنه واقف فى الوسط كالواجهة الزجاجية يتطفل عليه كل غاد ورائح. ويحاول كل محدق وناظر أن ينكش سره البائع، وخيل إليه وهو يحاول ضم ضفتى نفسه ليحكم إغلاقها أن الناس يضعون عيونهم وأنوفهم بين ضفتيها حتى تبقى مكشوفة مفتوحة. ودعاه فشله إلى صب جام غضبه على الناس. وقضى اليوم بطوله يدون المخالفات ويهدر بأوقح الألفاظ ويزور مركز البوليس جانيا ومجنيًّا عليه وكان يومه حافلا....

وتلقف الميدان من ساعتها رجلا كئيباً غريباً لا يفك وجهه الأسمر الجاف إلا ليعقده، ولا ينكسر صمته بكلمة تائهة عابرة إلا ليعود إليه الصمت بلون سمرته، ويرتعش له شاربه الذى نماه وشوشه حتى غدا كحزمة متنافرة من عشب شيطانى.

وميدانه تحول ميدان رعب. وهو أصبح «بعبع» السائقين... تخفق قلوبهم وهم يمرون أمامه – وما أقل ما يمرون – ويتندرون بينهم وبين أنفسهم على الجاويش الأسمر أبى شوارب، وخشونته وسلاطة

لسانه، وحقده المرير على كل امرأة سولت لها نفسها أن تقود عربة أو حتى تعبر الميدان.

واعتاد التأخر فى العودة بعد أن أدمن على باب طنطاوى، وعاد مرة فى شيخوخة الليل وارتدى جلبابه الأبيض وأحكم طاقيته الصوف فوق رأسه وفرش جسده المنهك المخدر فوق السرير، وأصوات اليوم تطن فى أذنه، وحديث طنطاوى ينبثق فى مخيلته ثم يختفى...

وتبين بعد أن خف الطنين وغاب طنطاوى أن امرأته لا زالت مستيقظة.... ليس هذا فقط بل إنها تنهنه بنحيب مبتل، وكان رمضان ليلتها قد بلغ به الأمر منتهاه. ووصل إلى حافة مقاومته، فظل بكاء المرأة يتساقط على الحاجز الجامد الذى وضعه بينهما فيلعقه. الحاجز يرق، حتى لم يعد يفصله عنها إلا اللحاف. وظل ينصت لبكائها، وهو لا يملك إلا الصمت حتى انهار، وقال وكل جزء من جسده ينشج بغير دموع :

– بس قوليلى يا نعيمة... أعمل إيه...

ولم ترد وإنما كانت تحملها شهقة وتضعها شهقة وقد انخرطت فى بكاء عال.

وهزها رمضان فى حنان ذليل وعاد يسألها، وما كان ينتظر منها شيئاً وإنما ألحف فى سؤالها ليغلب عجزه ويشرك إنساناً على الأقل فى حل لغزه.

* * *

وبدأ البحث عما يفعله الناس، وبدأ السؤال. وفتح رمضان الكتاب، والتمس حل عقاله عند أصحاب الحل والربط، أسياد البلد

كلهم، وأطعمته نعيمة الحمام والمنجة من توفيرها. ومص زعازيع القصب، وترنح على دقة الطار فى الزار، واستيقظ مع الفجر مرات ليرمى العمل فى البحر، وسوت له امرأته الفطير مختلطاً بدمائها، وتجرع من العطار كل ما عند العطار...

وفى كل مرة كان يعود وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا...

ثم عرف رمضان الطريق إلى المستشفى السرى، وتعرف فى طابور المرضى على رفاقه، وآنسته الصحبة بقدر ما امتلأ الكيس الذى خيطته له نعيمة بزجاجات الدواء، وفرغ الكيس وامتلأ، وانغرزت الإبر فى عروقه وفى عضلاته ودخل المستشفى وخرج...

وجاءت حماته ومعها بعض النقود، وراحت النقود كما راحت غيرها، ولم يفرغ من مشورات الحماة ونصائحها ولا آراء الأهل وأطراف الأهل...

واستمر رمضان يفتش عن رجولته فى كثير من اليأس، سائلا كل من يلقاه، جاريًا وراء كل مثير، متبعاً كل أصبع، وحديثه أثناء ذلك لا يدور إلا عن البحث الذى وهب له نفسه... والحديث يدور فى صلاة الجمعة، وعلى القهوة وفى سوق السمك، وعلى محطة الترام، ومع تومرجى المستشفى، وحتى مع حضرة الضابط، كل هذا... والحال مثل الحال...

* * *

كان الحديث يدور بين رمضان ونعيمة فوق السطح والشمس تدفئها فى ذلك اليوم من الشتاء، وكأحاديث الضحى الدافىء كان الكلام يشرق ويغرب فى كسل هادىء، والوقت يمضى، ورمضان

فى يوم راحته لا يسأل ولا يُسأل، ونعيمة قد اشترت «سردين» الغداء من الصباح وتمددت فى استسلام فاتر. ودار الحديث ودار. كانت لهجة رمضان أرق ما يكون، فلعله فكر كثيراً فى امرأته، وأنب نفسه كثيراً حين فكر، فاختار هذا اليوم بالذات، وهذه الساعة نفسها ليقول كل ما يثقل ضميره...

واقترب مما يريد، وطأطا كلامه وكأن حديث الضحى لا زال يدور وهو يقول:

– اسمعى يا نعيمة...

– خير....

وتردد رمضان ثم أسلمه تردده إلى سكون راح يخلص نفسه من حرجه ويتملص منه ليقول:

– مش... مش أحسن أخلص ذمتى من الله و...

وحين نظرت إليه فى كسل وبشائر ضحكة تكاد تهب منه لحديثه المتعثر... استمر هو يتهته:

– أحسن.. أحسن.. أطلقك يا نعيمة..

واعتدلت المرأة حتى واجهته ودبت على صدرها وقد اربدت ملامحها، وبان فيها عتب كثير:

– يا عيب الشوم يا رمضان.. إيه الكلام ده.. دانت أبويا وخويا وتاج راسى.. دانت فى عينى من جوه.. هو أنا أسوى الأرض اللى بتمشى عليها.. دانا خدامتك يا حبيبى.. بقى ده كلام.. مقصوصى شاب.. وشعرك ابيض ونعمل زى العيال.. دا.. دا.. يصح. يا بوسيد..

ولم يسكتها إلا موجة البكاء التى أوقفت لسانها، وسحبت المنديل من فوق رأسها وضمدت به دموعها حين قامت هالعة تهبط السلم وهى تتعثر على درجاته.

وتركت وراءها رمضان يتحسس تجاعيد وجهه، ويملس على رأسه التى كادت تخلو من الشعر، ويمر بيده على بطنه المتكور، ويشد شعر رجله الكث الذى ابيض أكثره، وينظر إلى ابنه سيد. وتأمل الصبى وكأنه يراه لأول مرة منذ سنوات!

كان الصبى يرقد أمامه وقد غطى رأسه بكراسة الحساب. وظل الرجل يلتهم الولد بعينيه ويتوه، ثم يعود إليه غير مصدق... لا حول ولا قوة.. أيكون قد نسى سيد فى زحمة البحث عن رجولته ؟. أيكون قد نسى حتى أن له ابناً ؟. أبو سيد ينسى سيد ولا يذكر من الدنيا إلا نفسه !

كيف حدث هذا ؟! كيف ؟!

– سيد.. يا سيد.. اقعد هنا جنبى.. أيوه كده.. يا بنى يا حبيبى.. باسم الله ما شاء الله.. وكبرت يا سيد.. بقيت طولى.. خلينى أبوسك يا سيد.. هه. وكمان مرة.. يا نبى.. أنت كنت فين.. وأنا فين وكبرت يا سيد.. وحتبقى راجل.. وأجوزك يا سيد.. سيد.. حجوزك واحدة حلوة.. لا.. أربعة حلوين عشان خاطرك.. وتبقى راجلهم فاهم.. فاهم يعنى إيه راجلهم يا سيد... معلهش.. بكرة حتفهم. وتخلف.. سامع يا سيد حتخلف.. واشيل خلفتك بايدى يا سيد.. بايدى دى.. فاهم يا سيد.

[مايو ١٩٥٢]

• محمد أبو المعاطى أبو النجا

ذراعـان

تباعا كانت الأضواء الهادئة تختفى فى حديقة سينما الكرنك، وهبت نسمات رقيقة اهتزت لها الأشجار التى تصنع سوراً أخضر حول الصالة يخفى وراءه السور الحجرى الحقيقى، واهتزت خلالها تلك المصابيح الملونة التى كانت ترسل ضوءاً لا يتجاوز الممشى المجاور لها، قبل أن يسود الظلام صالة العرض.

خف قليلا إحساس بحرارة الجو، الجريدة المصورة تطوف حولنا خلجان العالم وتصف كيف يصيدون الأسماك بينما تحجب قامات الذين يبحثون عن مقاعد خالية صورة السفينة الضخمة التى يركبها الصيادون، المقاعد حولى لا تزال خالية ولن يمر وقت طويل حتى تمتلئ، وأحرم من تلك الجلسة التى أمد فيها قدمى وذراعى بحثاً عن نسمة عابرة، قائد السفينة يشبه كثيراً أستاذ التاريخ الذى دفعتنى محاضراته إلى هذا المكان، بعد أن ظللت أستذكرها طوال النهار، أستاذ التاريخ يختفى، والرحلة حول العالم تمتد، والمقاعد تمتلىء، وبجوارى تجلس فتاة كانت تتقدم الأسرة الصغيرة التى أحتلت المقاعد الأربعة عن يمين، كان من الضرورى أن أعتدل فى جلستى، خاصة وأننى أرتدى قميصاً بنصف كم، وجارتى تلبس فستاناً بلا أكمام، والمقاعد من النوع الذى يفصل بين كل مقعدين فيه مسند واحد، لا يتسع إلا لذراع واحدة أو ذراعين صديقين!!

كانت مجرد فتاة مجهولة، وكان وجودها بجوارى.. مجرد وجودها يعتبر مصادفة طيبة، لا ينبغى أن أغامر بفقدها، ولهذا تعمدت ألا أتصرف بطريقة تجعل جارتى تفكر فى تغيير مقعدها، وأسعدنى أن اللحظات قد مضت دون أن تصدر الجهات المسئولة والموجودة بجوار الفتاة أى تعديل فى الأوضاع!

ومع أننى لم أحاول أن ألتفت ناحية الفتاة خلال هذه اللحظات فقد كنت أحس بها تتسلل إلى وجودى المتحفظ الرزين، كأن النسيم يحمل إلى عطرها الهادئ، وصوتها الذى يشى بعمرها فى هذا الظلام بأكبر مما تستطيع ملامحها، كان واضحاً أنها تحب مغامرات «توم وجيرى» التى بدأ عرضها، كانت تضحك من قلبها وتضرب الأرض بقدميها، فأبصر برغم تحفظى شعرها وساقيها، وأحس بهذا التحفظ وهو يهتز مع كل حركة مرحة تصدر عنها، من المؤكد أنها فتاة بسيطة وطبيعية، وأننى لم أكن أخشى سوى مخاوفى، ومن الطبيعى أن أتصرف ببساطة.. على الأقل مثلها وبدأت أمارس واحداً من حقوقى.. أبسط هذه الحقوق.. أشرت إلى (الجرسون) الذى كان يمر قريباً منى وطلبت زجاجة «كوكاكولا» كانت فرصة مشروعة ليتحرك ذراعى من المكان الذى حددت فيه إقامته ليأخذ الزجاجة ويرتفع بها إلى فمى فى مرات عديدة بطيئة وفى إحدى المرات اصطدمت ذراعى بذراعها، فاكتشفت لحظتها فقط أن جارتى قد اعتبرت المسند الوحيد المشترك حقًّا خالصاً لها فأسندت ذراعها إليه، كيف لم ألاحظ هذا من قبل؟، لم أكن قد مارست حق الالتفات إليها بشكل كامل، وحين وقع ذلك

الصدام الذى لم يستغرق سوى لحظة عابرة تركزت حواسى كلها حول مكان الحادث فى انتظار قلق لرد الفعل، ومع اللحظات الحاسمة التى تلت ذلك الصدام، تحول الانتظار القلق إلى شعور عميق بالراحة حين لم تستجب جارتى بما يعبر عن ضيقها بما حدث، كانت الذراع الرقيقة الناعمة لا تزال تحتل مكانها على المسند المشترك، لا شك أنها فهمته كحادث عرضى لا يعنى شيئاً، لم أعد أشك فى أنها فتاة عاقلة، وأن ذراعها – وبالتحديد الجزء الذى لمسته منه – أرق وأنعم شىء لمسته فى حياتى، وبدأت أحس بذلك الجزء الآخر من ذراعى الذى تلقى هذا الإحساس، كشىء مغاير لى تماماً. شىء ينتمى إلى ذلك الكيان الرقيق الناعم الذى يجلس بجوارى ويشيع من حوله جواً من البهجة والسعادة لا يستطيع كائن بشرى أن يقاومه، ولم أستطع أن أقاوم رغبتى فى الالتفات إليها التفافاً كاملاً هذه المرة، يستطلع هذا العالم الذى غمرنى سحره، لا شك أن هذا واحد من حقوقى أيضاً.

وفوجئت بها مشدودة إلى الشاشة، لا تكاد تحس بى، مما ضايقنى لأول وهلة، ولكنه أتاح لى أن أكتشف شيئاً هامًا جدًّا، كانت ذراعها لا تحتل من المسند المشترك سوى نصفه الخلفى، فقد كانت تستند إليه بكوعها فقط، بينما بقى النصف الأمامى خاليًا، ومن الممكن لو تقدمت، قليلا فى مقعدى أن أستند إليه دون أن يلتصق ذراعانا وحتى لو حدث ذلك فسيكون محض صدفة.. ربما لم تعرها أدنى اهتمام كسابقتها، لماذا تبدو اللعينة كأنها لا تحس بى؟ بينما يعذبنى الخوف من إزعاجها، سأمارس كل حقوقى حتى

لو أغضبتها، فهذا أفضل ألف مرة من أن تبقى هكذا غير شاعرة بى!

واستندت بمرفقى على الجزء الأمامى من المسند مطمئنًا إلى أن ثمة حاجزاً من الفراغ يفصل بين ذراعينا..!

«توم وجيرى» يواصلان مغامراتهما على الشاشة فيثيران فى الصالة عاصفة من المرح، تنساب مع نسمات الصيف التى تخرج بين العطور والضحكات والأصوات التى تفقد ملامحها فى هذا الظلام الرقيق!!

وفى لحظة أحسست أن حاجز الفراغ الذى كنت أستند إليه قد تلاشى تماماً، وربما كانت عاصفة الضحك هى المسئولة عن ذلك، كانت الذراع الناعمة قد مست ذراعى فى رفق، وأشاعت فى كيانى كله يقظة مفاجئة، ولم يلبث حاجز الفراغ أن عاد يفصل بين ذراعينا، ولكنه هذه المرة كان رقيقاً جدًّا يتلاشى مع كل عاصفة مرحة يهتز لها جسد جارتى الذى أحسست به قريباً منى!

حتى هذه اللحظة لم أحاول أن أختلس من جارتى أية نظرة، كنت أجلس فى مقدمة مقعدى، وكانت تجلس فى مؤخرة مقعدها، وكانت أية نظرة تحتاج إلى أن أدير رأسى إلى الوراء بشكل يلفت نظر الجهات المسئولة، والواقع أننى شعرت أن علاقتنا قد انحصرت فى هذا الحاجز من الفراغ الذى أصبح يربط بين ذراعينا أكثر مما يفصل بينهما!

كيف فكرت أن جارتى يمكن أن تضيق بشىء كهذا؟ صحيح أنها حريصة على ألا تستمر لحظة اللقاء تلك، وألا تخرج عن

كونها شيئاً يقع دون قصد، وأنها دائماً تسحب ذراعها إلى الوراء قليلا فى كل مرة تحدث ولكن من المؤكد أنها ليست حريصة على ألا تحدث.. فبمقدورها أن تسحب ذراعها من على المسند لو أن ذلك كان يضايقها !!

مغامرات «توم وجيرى» توشك أن تنتهى، وعواصف المرح تهدأ ولحظات اللقاء بين الذراعين تتباعد، وحاجز الفراغ يستعيد صلابته ولكن.. اللحظة الأخيرة من هذا اللقاء تبطئ، وتفقد معناها كلحظة.. وتيار عميق وهادىء من النشوة يتسلل إلى كيانى كله عبر ذلك الجزء من ذراعى التى تلتصق بعضدها، وأصبحنا فى تلك اللحظة الممتدة صديقين !!

لست أشك فى أنها كانت تحس بى فى تلك اللحظة أكثر مما كانت تحس بأمها التى لا تكف عن الثرثرة معها !

لا، لم أكن فى حاجة إلى أن أنظر إليها، ولا حتى أبادلها الحديث، فهناك تفاهم عميق يوشك أن يتم بين ذراعينا، وحتى حين بدأت تسحب ذراعها من على المسند المشترك، مع أول ضوء لمع فى الصالة، كان هذا السلوك جزءاً رائعاً من الحوار الصامت الذى بدأ، بل كان أكثر الأجزاء روعة، وكان ردى عليها أننى سحبت ذراعى أنا الآخر حتى لا ترى الأم بين مقعدينا سوى الفراغ، ولم يكن لهذا كله من معنى سوى أننا قد اهتدينا إلى الكلمات الأولى فى لغة بسيطة وعميقة لن يفهمها أحد سوانا فى هذا المكان !

* * *

مع أننى كنت أنتظر بصبر نافذ لحظة الضوء هذه لأرى كيف تبدو جارتى، فإننى لم أتعجل النظر إليها، كنت مستريحاً لهذا التفاهم الذى تم بين ذراعينا دون كلمة أو حتى نظرة، وكنت أحس أن الضوء قد يزيدنا تفاهماً، وأيضاً يلغى ما وصلنا إليه، كما كنت أخشى أية نزوة قد تؤدى إلى تغيير الأماكن فى فترة الاستراحة. ولكن جارتى أعفتنى من محاولة التعقل هذه، حين وقفت، ودارت برأسها فى جميع الجهات تبحث عن بائع المثلجات ثم تشير إليه، وتنحنى على أمها، وتضحك، وتعابث أخاها الصغير وهى تناوله زجاجة الليمون، وخلال ذلك كله لم أكن أشك فى أنها تفحصنى، وبطريقة عجزت أنا نفسى عن ضبطها مرة واحدة !

وفى الحقيقة أنها بدت فى الضوء رائعة جدًّا، حتى لقد حسدت نفسى لأننى كنت منذ لحظات صديقاً لهذه الفتاة الرائعة، وأن ذراعها كانت تلتصق بذراعى، لا أظنها أتمت العشرين ربيعاً، عيناها سوداوان تظللهما أهداب ثقيلة دون أية زينة، شعرها قصير ناعم تحركه أقل اهتزازة من رأسها الذى لا يكف عن الحركة، فتبدو فى كل لحظة فى صورة جديدة وجميلة معاً، فستانها غامق الزرقة يفضح بشكل حاد بشرتها الناصعة، ويتم من خلال فتحاته عن جسد بديع، يعبر فى كل حركة عن ضيقه بما يحيط به من قيود حريرية ناعمة !

لم أشعر بالراحة إلا بعد أن عادت إلى الجلوس فى نفس المكان وبدأ العرض !

كنت أعتبر مجرد بقائها فى نفس المكان نوعاً من النجاح، ورحت أتابع العرض فى هدوء لم يقلقه اكتشافى ان المسند المشترك

بيننا لا يزال خالياً، كنت أعتقد أن هذا نوع من المناورة ليس غير، وأنه لا يجب بحال أن يسبق ذراعى ذراعها إلى المسند!

– تبدين خائفة كأن الرجال نوع غريب من المخلوقات!

– هذه أول مرة أجد نفسى مع شخص مثلك، كنت مع أبوى فى منطقة صحراوية لاستخراج البترول، وهذه أول مرة أركب فيها سفينة وأتحدث إلى شاب غريب.

– إذن فأنا أول شاب يسعده الحظ برؤية هذا الجمال ؟

– لست أدرى كيف ينبغى أن أتصرف، ولا ماذا أقول ؟

– أجمل شىء ألا يعرف الإنسان ماذا ينبغى أن يفعل ؟ بل أن يفعل فقط ما يحب !

– أحب أن أراك.. وأن.

– هنا كل ليلة سأنتظرك على ظهر السفينة !

– دون أن أخبر أبوىّ ؟

– لا.. سآتى معك الآن لنخبرهما معاً !

المسند بيننا لا يزال خالياً.. ربما شغفها الحوار بين البطل والبطلة فنسيت وجودى، وربما لم تكن هناك مناورة، لم يكن الحوار بين ذراعينا سوى حديث نفس واهمة.. بينما جارتى لا تحس بى !

«جون وماري» يلتقيان كل ليلة على ظهر السفينة ويكتشفان روعة البحر والليل والحب والحياة، بينما يتحول المسند بيننا إلى مجرد حاجز خشبى وموجة سخط هائلة تحمل ذراعى إلى المسند الخالى، وإذا كانت جارتى لا تحس بى فلماذا لا أستعمل حقى

فى هذا المسند؟ ولتتضايق، ولتغير مكانها فهذا أفضل من هذه اللامبالاة التى لم أعد أحتملها..!

– ومتى ستتزوج يا جون ؟

– حين أعود من تلك الرحلة التى أتسلق فيها قمة «الأنديز».

– ليتك لا تذهب يا حبيبى!

– سأعود بطل العالم فى تسلق الجبال !

– أحبك هكذا، أما أنت فتحب أن تكون بطلا !

– لا أرضى أن تكونى زوجة لأقل من بطل !

* * *

آه يا عزيزتى.. لا أدرى كيف أعتذر لك عن ظنونى القاسية. صحيح أنك لا تعرفينها، ولكن كيف أغفر لنفسى أننى ظننتك لا تحسين بى؟ كانت لحظة رائعة تلك التى أحس فيها ذراعى بذراعها يعود إلى المسند المشترك... يعود هذه المرة فى ثقة.. عارفاً مكانه.. كطائر لا يضلله الظلام عن عشه.. مستريحاً خلف الذراع الذى ظل ينتظر..! كانت لحظة لقاء حقيقى بين صديقين لا أحد يعرف تاريخ صداقتهما وكأنه لم يعد ثمة مجال للتردد أو حتى انتظار الأسباب..!

والغريب أن لحظة اللقاء بين ذراعينا تأتى مع اللحظة التى يفترق فيها «جون ومارى» فى الميناء !

وفى إحدى مزارع كاليفورنيا حيث استقرت أسرة «مارى» نحس بوجود «جون» فى كل مكان، فعلى المائدة لا تتحدث «مارى» مع

أبويها إلا عنه، وفى الصحف لا تقرأ إلا أنباء المسابقة المنتظرة فى تسلق الجبال، والأزهار التى يعشقها تربى فى أحواض خاصة – تتعهدها هى – ليجدها حين يعود قد نمت، والمهارى الصغيرة التى يهوى ركوبها تدرب فى انتظاره، وحتى «كلارك» الذى يشرف على تربية الخيول فى المزرعة، والذى يكتم حبه «لمارى» كما يكتم حلمه بأن يصبح كاتباً مشهوراً، يجد نفسه فى النهاية ولا عمل له سوى الاستماع إلى أحاديث مارى عنه، أما الرسائل التى تصل منه، فقد سمعتها الطيور والأشجار والخيول فى المزرعة كما سمعتها مع جارتى، وأحسست أن دائرة سحرية تنبعث من كلماتها الحارة لتخترق جسدينا معاً، وتتصل الدائرة عبر ذراعين تشدهما خيوط غير منظورة، وأحس فى لحظة أن ما بينى وبين جارتى ليس مجرد مصادفة أو وهم، ما الذى ينبغى أن يحدث لكى يحدث الحب، لا شىء أكثر من أن يلتقى شاب وفتاة، ثم تخلق المبررات خلقاً، ولا أعتقد أننا فى حاجة إلى كلمات، كل شىء يقع من تلقاء نفسه، وأروع ما وصلنا إليه أننا اكتشفنا معاً لغتنا تلك التى لا يحسها أحد سوانا !

ربما كان هذا هو ما تفكرين فيه..! ها نحن معاً، وبين ذراعينا مكان لا يستطيع الهواء أن ينفذ منه.. وأروع الألحان يعزفها لنا أمهر العازفين، وكاتب لا نعرفه... يعرف ما فى قلبينا، ويكشفه لى ولك ولأبويك وللناس الذين نخافهم، ومزارع كاليفورنيا الشاسعة الجميلة تستدرج أحلامنا خارج حدود المكان، والخطوة القادمة يجب أن أبدأها أنا... منذ البداية كنت رائعة وبسيطة، ولا أظنك سعيدة بى وأنا أكلم نفسى طوال الوقت، يجب أن يحدث شىء

ينتمى إلى هذا العالم الرائع الذى أصبحنا جزءاً منه، فالحقيقة الباردة أننا لا نزال نحتمى بالظلام، وبالمسند المشترك وبالمصادفة! وامتدت يدى هذه المرة لتلمس يدها فى رفق وحنان، لم أتصور لحظة أن يدها ستختلج فى يدى للحظات خاطفة وكأنها ترددت خلالها قبل أن تسحب يدها من على المسند كله...؟!

لقد مرت لحظات كنت خلالها عاجزاً عن تقدير الموقف!

أى جنون قادنى إلى هذا السلوك؟ كان كل شىء رائعاً..! دون حاجة إلى هذه الحماقة التى دمرت كل شىء، كنت أحس تردد أنفاسها! وشعرها يكاد يلمس وجهى، وذراعها ملتصقة بذراعى..! ولكن كان كل شىء يبدو وكأننا غير مسئولين عنه !! أما الآن ؟

مستحيل أن يكون وهماً كل ما يحدث! لقد أحسست أنها ترددت، أجل ترددت قبل أن تسحب يدها من يدى، لست واهماً هذه المرة كأنها لم تفاجأ بيدى! كأنها كانت تنتظرها. وربما خشيت أن ترى أمها يدينا مشتبكتين! يكفى أنها سحبت يدها فى هدوء دون أن يشعر أحد، ويكفى أنها لا تزال بجوارى، كانت دائماً فتاة عاقلة ولكن سهول كاليفورنيا أفقدتنى صوابى، وحتى فى هذه السهول تقع أحداث جديدة...!

– مستحيل يا ابنتى أن تبقى هكذا لا تأكلين ولا تنامين لأن جون لم يعد يكتب لك... ربما لم يكن جادًّا فى علاقته بك !

من السهل أن تنسيه لو أردت ذلك !

– نعم يا ماما... ولكنى لا أريد ذلك !

– أنت صغيرة يا عزيزتى لا تعرفين الناس والحياة!

– وأنت يا ماما لا تعرفين جون، أنا واثقة من أنه سيعود.

– لماذا لا يكون لك بعض هذه الثقة فى نفسك وفى أبيك وفى !

وتصرخ «مارى» وهى تخرج وقبل أن تصفق خلفها الباب :

– أحبه أكثر من نفسى ومنك ومن أبى !

وبلا شعور وجدتنى ألتفت إلى جارتى، لأضبطها هذه المرة ملتفتة إلى ولأول مرة أحس أن الدائرة السحرية تتصل من جديد.. وبرغم الظلام أبصرت فى عينيها الرائعتين نظرة نفذت إلى قلبى.. لا.. لست واهماً هذه المرة، ولست آسفا لأن الذراع لم تعد إلى مكانها، كانت النظرة السريعة الخاطفة النافذة أكثر رقة وصلابة فى نفس الوقت من ملمس ذراعها الناعمة..!

وحتى حين عدنا نستمع إلى الحوار كنت أحس أننا نسمعه معاً.

– مكالمة خارجية لك يا مارى !

وتهرع مارى فى جنون، لا بد أنه جون فليس فى العالم الخارجى أحد سواه.

– من... جون ؟

– لا، أنا والده، من أنت ؟

– مارى، أين جون ؟

– يا ابنتى..! لدى أخبار لك عنه !

– ماذا ؟ قل.

– لقد فقد كلانا جون يا ابنتى... سقط من فوق الجبل... كان، يعتزم الحضور لو أنه عاد!

.....

.....

. . جون لن يعود إذن.؟ لم يعد ذلك فى مقدوره فما الذى يمنعها من أن تذهب هى إليه؟ أجل يجب أن تذهب إليه! يجب..! ولا ينقذها من الموت غير «كلارك» الذى لا يزال يكتم حبه لها!

– يا ابنتى، يا روحى.. لازلت صغيرة.. والزمن سيمحو جراحك وستجدين فى الحياة مسرات كثيرة.

– الحياة بدونه لا تساوى شيئاً يا ماما !

– لماذا لا تفكرين لحظة فى حياة أبويك بدونك؟ إنك تريدين قتلنا يا مارى دون أن يعيد لك هذا جون !

– كنت يا ماما تظنينه وغداً! يجب أن تأسفى لذلك! الموت هو الذى منعه من المجئ..! لا شىء غير الموت كان يؤخره !

وتلتقى نظراتنا من جديد، كأنها على موعد... لا لست آسفاً على هذه الحماقة، قبلها لم يكن من حقى أن أجد فى هذه النظرات أى معنى! أما الآن و«مارى» تمنح الحب كل هذه القداسة، وملامح جارتى ترق وترتعش... وشىء ما يسقط من يدها تحت قدمى، فتنحنى للبحث عنه، وأنحنى معها لأعيد لها المنديل، فتلتقى يدانا وعيناانا فى لحظة ذاهلة، أحس خلالها أنها غفرت كل شىء دون

كلمة.! لا لن أحلم بما هو أكثر..! يكفى أننا عدنا صديقين حقيقيين هذه المرة... لن أترك شيئاً ما يفسد الأمور بيننا..!

لست مستعداً لأن أخسر هذا الشعور الرائع بأن هذه الفتاة التى لا أعرف لها اسماً قد عادت صديقتى!..

كنت أتابع مبهوراً قدرة الحياة وقدرة «كلارك» على أن يأسو جراح «مارى» حين أحسست بذراع جارتى تعود إلى المسند..! تعود هذه المرة لتتمدد بجوار ذراعى تماماً وتلتصق بها.! ودون أن ألتفت إليها، وعيناى مشدودتان إلى الشاشة، كانت أصابعى تمر فى رفق على يدها الوادعة المستسلمة، وكانت ذراعانا قد تراجعتا معاً – كأنما تحركهما إرادة واحدة – عن مقدمة المسند بحيث أصبحتا بيناً تماماً كسر نخفيه حتى عن عيوننا، منذ تلك اللحظة لم نتبادل نظرة واحدة !

كانت كل مشاعرنا مع السر الرقيق الذى تخفيه يدانا المرتعشتان كطائر نخشى أن يموت أو ينفلت !

– ليس ما يدهشنى يا «كلارك» أنك أخفيت حبك لى منذ عرفتنى، بل إنك ظللت تحبنى برغم أنك تعرف كل شىء !

– ما أعرفه عنك جعلنى أحبك أكثر !

– لا أدرى يا كلارك كيف كانت ستصبح حياتى لو لم تكن هنا ؟ إنك لم تكتف بأن تنقذنى من الموت بل أنقذت منه «جون» أيضاً بعد أن كتبت عنه روايتك الرائعة..!

وفى اللحظة التى يضم فيها كلارك مارى إلى صدره، ترتعش يدانا وينفلت الطائر الذى كنا نخفيه بينهما!

ومع أول شعاع من الضوء لمع فى الصالة، عاد المسند المشترك مجرد حاجز خشبى، وبرز الناس فجأة وكأنهم أتوا مع الضوء، وبدونا وسطهم، صغيرين عاجزين، بدت المسافة الضيقة التى تفصل بيننا، وكأنها وجدت لتبقى..! كانت جارتى تقف خلف أمها، وتسوى ملابسها، وتتبادل معها كلمات منقطعة، وتتحاشى النظر إلى..! وكانت المسافة التى تفصل بينى وبين جارتى تفصل بين جميع الخارجين الذين كانت تبطىء خطواتهم فجأة حتى لا يخدشوها.. ! مرة واحدة التفتت جارتى خلفها قبل أن تغلق خلفها باب التاكسى الذى ركبته الأسرة أمام «السينما». كنت واقفاً على الرصيف فى انتظار تلك النظرة التى كانت آخر عهدى بتلك الفتاة! وحتى بعد أن اختفى التاكسى فى نهاية الطريق، وبعد أن أصبحت المسافة بيننا كبيرة جدًّا إلى درجة لا تصدق..! كنت أحس أنه لا فرق أبداً بينها وبين تلك المسافة الضيقة التى كانت تفصل بيننا حين برز الناس فجأة!

ليـلى والذئب

إنى خائفة.

كل ما حولى يرتعد خوفاً.

السطور فى مجلد الطب الكبير المفتـوح أمـامى ترتجـف. عبثاً أثبت نظراتى على الحروف، التى يختبىء بعضهـا خلـف الآخـر.

النور المسلط على مكتبى يصاب بإغماء أصفر، أصفـر، كأنيـاب سوف تنبت فجأة، وتنقض علىّ من مكان مـا، لسبب أجهله كمـا تجهله هى أيضاً.. إنى خائفة (يافـراس.. لـو تـدرى).

خائفة.

حتى الجمجمة الحسناء صديقتى الوحيدة فقـدت مرحهـا، بريـق السخرية فى فجوتى عينيها خبا.. مغارتـان للـرعب الداكـن أراهمـا أمامى، وفكها الأسفل يرتجف. ربمـا فى عنقهـا المقطـوع صرخـة ميتة.. الصرخة فى حنجـرتى تنطفىء فى كـوم رمـاد صدىء.

والريح.

توقفت عن العويل. ربما اختبأت فى أحد المخابـر. حتى المطـر كف عن الهطول.

كـل شىء يحبس أنفـاسه فى تـرقب متوتـر هلـع. خائفـة.. (يـا فراس.. تراك كنت تـدرى!).

حتى موسيقى (البارتى) فى قبو مسكننا الجامعى (البستانى هول) صار فيها إيقاعاً مشحوناً بالانتظار. صار فى تسارعها، وقرع طبولها، تشنج يد معقوفة الأظافر، تتحرك فى الظلام، وتطبق على عنق ما.

خائفة (يا فراس، أين يدك؟).. خائفة، رائحة باردة الزرقة تملأ عينى بأبخرتها.. تتدفق من أشباح شجر الصنوبر خلف النافذة.. ربما كانت تتدفق من حديقة الجامعة، ربما كانت أنفاس المخلوقات السجينة فى البناء الرابض فى العتمة، المقابل لغرفتى فى التل.. خائفة (يا فراس، أين يدك؟.. ربما لم تحمنى من الخوف، ربما كانت تشاركنى خوفى، لكننى أحببتها).

خائفة.. قرع الطبول يتسارع. الضحكات التى تعلو من القبو تتحول إلى ما يشبه الصراخ.. إلى ما يشبه النباح.. الزرقة تتكاثف.. أسنان الجمجمة تصطك بتواتر متسارع. برغم عويل الموسيقى عادت الأصوات الرهيبة تتسرب من ذلك البناء الغامض المخيف، عاد النحيب الممطوط الحزين... (الليلة، بعد أن ينمن جميعاً سأظل وحيدة أنصت دون أن أجرؤ على غرس سيخ فى أذنى ليتوقف كل شىء، ما دام همسك منذ الليلة لم يعد لى.. ربما يتوقف حينئذ كل شىء آخر إلا تلك الشكوى المريرة الدامية.. ربما يسكن كل شىء إلا سيل الليالى الحزينة الباردة والتى عادت تتدفق خائفة.. (يا فراس.. أين يدك، فالليل بارد وحزين؟..) خائفة.. (كان الليل حزيناً وبارداً، ونحن فى طريقنا إلى «البستانى هول»). مررنا بمبنى كلية الطب حيث أقضى أكثر ساعات النهار. كان من الصعب أن أصدق أن خلف تلك الجدران المعتمة مقاعد خشبية بريئة نلتصق

بها بهدوء، ونوافذ تنسكب منها أشعة شمس مضيئة.. فى الليل يتغير وجه العالم، وربما يستعيد وجهه الحقيقى. أحسست بأشياء مرعبة تغلى داخل البناء. الهياكل العظيمة تتحرك وتتجه نحو النوافذ المغلقة. عبثاً تحاول الهرب.. ربما يجلس بعضها فى الزوايا، ليتنحب بصمت وبراءة، من أجل أشياء لا يدرى إذا كان قد ارتكبها حقًا.

بحثت عن يدك فى الظلمة. كانت كبيرة ودافئة كسقف دار، كأيدى الآباء جميعاً.. أردت أن أقول شيئاً، برغم حفنة الرماد الصدئة فى حلقى.. ربما كنت أرتعد كطفلة يتيمة خائفة لأنك سألتنى: متى تلقيت آخر رسالة من البيت؟..

– تلقيت آخر «حوالة» منذ أيام فى موعدها المحدد، فسكرتير أمى، فى منتهى الدقة والحرص فى كل شىء!... على أية حال، لا أتوقع منها رسالة قبل انقضاء فترة الأعياد: الميلاد، ورأس السنة..

ورأيت بيتنا الكبير فى المدينة المجاورة يغلى... أمى مشغولة، مشغولة دائماً... لا أدرى كيف وجدت الوقت ذات يوم لولادتى، وربما أبقتنى فى جوفها شهراً إضافيًا ريثما وجدت لى فى زحمة مشاريعها ومواعيدها وقتاً، ولهذا فأنا مصابة أبداً بضيق خانق من الجدران.. ربما أكره المدارس الداخلية لهذا السبب...

أراها الآن بقامتها، تقف بين دوامة من الخدم الذين يزينون المكان.. وجهها على صينية لها مفرش من الدانتيل والتنتناه، وتحتها ثوب من الحرير.. من وقت إلى آخر ترسل من سيجارتها المغروزة فى «بز» من العاج الثمين الحفر، دخاناً شفافاً... إنها أبداً هكذا،

أنيقة وجميلة، كما هى فى صورها فى الصحف... أنيقة وجميلة كالصقيع النائى.. لا تتعب، ولا تذبل، كالزهور الاصطناعية.. كأهدابها الاصطناعية.. كالتماثيل الجميلة القد، لا تسمن ولا تنحف ولا تتهدل أثداؤها.. وكلما جاءت الخادمة التى أرضعتنى لتزورنى متحببة، كنت أتمنى أن أتقيأ نفسى. وبعد أن تذهب، أتجسس على أمى فى غرفة نومها، لأننى أشك فى أن لها جسداً كيقية (المرضعات) وفى أنها التوأم الآخر للتمثال المرمرى الجميل فى الصالة الكبيرة.

– ليلى.. أين أنت ؟

أيقظنى صوتك. أعادنى من غابة إلى غابة.. وتلفت. كنا ما نزال نهبط الدرج الذى يمتد على طول التلة الكبيرة، وعلى جانبيه تقع أبنية الجامعة المختلفة، وفى أسفله (البستانى هول).. أذكر أننى أردت أن أقول شيئاً، حينما بدأ نحيب ممطوط حزين متقطع، ينطلق من بين القضبان الحديدية والشبك على نوافذ البناء الذى نمر به.. ثم تلاحق النحيب وتكاثر، وتعالى، صار شبيها بعواء مئات من الرجال، المنهكين تعذيباً، والذين تسيل الدماء من ألسنتهم المقطعة..

أحسست بك تشد على يدى، ويدك تكبر وتكبر، وأنا صغيرة ووحيدة أتكوم فى ركنها، وأطمر رأسى تحت أحد أظافرها، هرباً من الأصوات الفظيعة..

– ليلى.. ما هذه الأصوات؟.. ما هذا المبنى المواجه لبنائكم الداخلى؟..

– إنه المبنى الداخلى الآخر!..

– وفيه فتيات غريبات؟.. ما هذا العويل الحيوانى؟

– إنهن أكثر وعيًا وحساسية لذا فهن عاجزات عن النوم، ويعبرن بصدق عن مشاعرهن..

– ليلى...

قالها عاتباً،

– لم أكن أمزح ولكن يبدو أنك تريد تقريراً باللغة العلمية عن هذا المكان.

– هذا أقل ما ينتظر من تلميذة طب..

– هذا هو المخبر.. فيه مجموعة من الأرانب والقطط والفئران والحيوانات الأخرى...

– لم أسمع فى حياتى صوتاً كهذا..

– فى النهار أشارك فى تخديرها وصنع التجاويف والشقوق فى أجسادها المتشنجة. تظل صامتة لا تشكو. وأحياناً ألمح فى عيونها الصامتة دهشة خائفة لأنها لا تستطيع أن تفهم، لماذا يحدث هذا كله.. وفى الليل، ربما ينحسر التخدير، ولا تبقى إلا مرارة السجن، والجراح المسمومة، والخوف، الخوف الوحش..

– هذا فظيع..

– أبداً، أحسدها. فهى على الأقل ما تزال قادرة على الأنين والعواء والعويل. ما زالت تفترض أن هنالك من يمكن أن يسمع، أو يفهم، أو يمد يده..

– هذا فظيع.. تتحدثين عنها كأنك واحدة منها.. كأنك لست من الفريق، الذى يشارك فى زرع الجراثيم والعذاب فى حناجرها وفقراتها..

وازددت تكوماً فى كفك الكبيرة، ولم أقل لك أنك ربما ستفعل بى الشىء نفسه دون أن تدرى.. مددت يدى أتحسس حنجرتى وفقراتى. قفز شىء بين الأشجار فكدت أصرخ. اكتشفت أنه (مدجج). إنحنيت أحمله بينما استسلم مرتعداً لقبلاتى. إنه خائف. لم يخطر لى أن أتساءل من قبل أين ينام؟ قدرتك على أن لا تفقد مرحك أدهشتنى دائماً. سألتنى مازحاً: من الغريم الجديد؟..

– إنه مدجج، القط الذى أتولى إطعامه.. إنه يعيش فى الجامعة مثلنا، لكنه أكثر حظًا لأنه غير مجبر على النوم فى (اليستانى هول).. إنه وحيد دائماً. لا ريب فى أن أمه سيدة مجتمع خالدة الجمال..

– مدجج؟.. هذا اسم غريب. لماذا اخترته؟..

– سئمت الحديث بالإنكليزية طوال الوقت لأن أكثر الزميلات أجنبيات. إن لفظ اسمه يتطلب منهن جهداً لم نبذله فى تعلم لغتهن بأكملها.. اسمه انتقامى منهن. أمام الباب رميت (بمدجج) إلى عتمة الغابة وأنا أحسده.

– سأتصل بك هاتفيًا بعد نصف ساعة لأقول لك مرحباً...

مرحباً..

مرحباً... أهلا... فراس... فراس... أى شىء... كان المهم أن أسمع صوتك فى الليل بعد أن تغلق الأبواب، كان جرعتى المخدرة، كان وحده يحمينى، يعيدنى فتاة سوية قادرة على النوم كأية فتاة فى شارعنا الحزين الذى يمتد على جانبيه شريط من الغرف، ولكل باب رقم، واسمى فى بيتى هذا: الرقم ٢٠٢!.. كان وحده، الصوت العميق، الدافىء، كلبن أم امتص للتو، المفعم بالحنان، كان وحده، يطغى على أصوات جيراننا فى البناء الداخلى الآخر المرعب، وكان وحده يحولنى من الرقم ٢٠٢ فى شارع اللواتى أمهاتهن سيدات مجتمع، إلى ليلى التى تفرد لها ضفيرتها قبل أن تنام وتمشط شعرها بأصابعك وترسل الغطاء عليها ثم تقبلها فى جبينها وتغلق الباب بهدوء...

– فراس.. تصبح على خير...

– ليلى.. حبيبتى.. اذهبى ونامى...

وعلى رؤوس أصابعى العارية أتسلل على الدرج عائدة إلى غرفتى. ولا أشعر بأى حقد حينما أصل إلى الممشى، شارع الغرف المتشابهة، وأرى أضواءها كلها مطفأة، وأنفاس النوم الكسولة، تنسكب من شقوق الأبواب بتكاسل أبخرة ثقيلة. وأنام..

ولا أحلم بذلك الحلم الرهيب الذى لاحقنى طيلة حياتى.. حلم الخوف.. الخوف.. خوف اليقظة.. الخوف.. إنى خائفة..).

خائفة.. الحفارة تعمل فى صدرى. النحيب يتعالى. الجمجمة لم تعد صديقة.. الرعب يتدفق من عينها... فى القبو وليمة وحشية

للصراخ... يجب أن أمسك يداً ما (يا فراس.. أين يدك؟.. بحجر كبير أهشمها وأبكى لأغسل دمها)..

التفت إلى شريكتى الباكستانية فى الغرفة، إنها ليست موجودة إلا حينما تزعجنى.. إنها نائمة.. شىء لا يصدق إنها تستطيع أن تنام هكذا... أن تفتح فمها بهذه البلاهة، أن يعلو صدرها ويهبط بهذا الانتظام... شىء لا يصدق أنها تسجن نفسها هكذا، تسجن نفسها وتسخر من (البارتى) والشبان، وتصلى من أجلى لأنها تجدنى طفلة ضالة، ثم تأوى إلى فراشها تقرأ أحد الكتب الجنسية البذيئة، التى جلدتها بغلاف كتب عليه «الأخلاق فى الحياة الدنيا والآخرة»... إنها نائمة، والعالم كله ينزف رعباً... ربما كانت ميتة.. ربما كانت ميتة... ربما ماتت خوفاً دون أن أدرى... ربما ماتت لذة وهى تقرأ وتقرأ فى كتبها.. ربما ماتت تُقى أثناء صلاتها قبل النوم..

أريد أن أنهض وأهزها، لا أستطيع أن أتحرك. أنا يابسة، يابسة. زهرة جُففت بين دفتى مجلد الطب الكبير أمامى.. أنا ضائعة.. أريد أن أصرخ (زبيدة.. هل أنت ميتة) لا أستطيع، لا أستطيع شيئاً.. كما فى الكوابيس الفظيعة.. الحفارة فى صدرى.. يد مجهولة معقوفة الأظافر تدفع بها.. الدم والحصى يتناثر على وجهى.. لولا الرماد فى حلقى لصرخت.. (يا فراس.. هل كنت تفهم معنى أن نفترق) خائفة..ببطء.. ببطء مخيف يرتجف مقبض الباب. يتحرك.. تعلو الصرخات.. يفتح الباب.. تتدفق موسيقى الوليمة فى القبو.. مَنْ.. من.. من يمكن أن يأتى الآن؟.. مَنْ صاحب اليد ذات الأظافر المعقوفة؟ تدخل فتاة أظافرها ليست معقوفة.

– ليلى.. كفاك دراسة.. كلهم يسأل عنك، تعالى قليلا، فالحفلة قد شارفت على النهاية على أية حال...

كان من الصعب أن أجيبها بالإنكليزية، وحتى بالعربية. أحسست باللغة شيء مضحك وسخيف، والحديث الوحيد الحقيقي هو انتحاب سجناء البناء الداخلي الآخر.. حديث من طرف واحد. الحوار أكذوبة.. الالتصاق وحده هو الحوار الحقيقي.. الانسكاب.. أن أنسكب من أمي.. أن ينسكب لبنها في جوفي.. أن ينسكب فراس في ارتشافي..

ولكني خائفة.. فلأهبط قليلاً.

الطرب ما يزال يهزها.. تقف وتحرك قدميها مع الألحان المتوترة من القبو.

بينما أغلق أزرار ثوب بسيط ينفد صبرها.. ربما ما يزال صديقها واقفاً في الحلبة وفاتحاً ذراعيه بانتظارها كما تركته، قالت: «إلحقي بي بسرعة».. تخرج.. ألحق بها بعد دقائق.

أهبط الدرج إلى القبو. أمرّ بالهاتف. أمسك بسماعته وأدير أرقامك كالمخدرة.. وأسمع صوتك مشحوناً بالنعاس والتأفف.. آلو.

(يا فراس كيف تستطيع أن تنام الليلة.. الليلة وقد عدت ذئباً وحيداً، وخلفتني ليلى بلا جزار)..

بكلتا يدي أقبض على السماعة، وبثقلي كله أشدها وأقطع الشريط الأسود.. الجسر الأكذوبة للالتصاق الأكذوبة.. غداً سأكون المتهمة

الوحيدة.. فأنا كما يعرف الجميع شريرة.. الشريرة الوحيدة.. كيف يمكن لامرأة رقيقة وراقية أن تنجب فتاة شرسة هكذا..

على باب القبو أقف.. عبثاً أنتمى إلى عالمهم.. الأضواء لففنها بالورق الملون وامتزج الأحمر القانى بالأزرق الخافت بأخضر الغابات المسود.. وعلى الجدران الأوراق المقصوصة.. وعلى الرؤوس الطراطير، والفتات الملونة لم تُنفض كلها عن الوجوه، فالتصقت بالعرق، والضجيج، وزملاء الدراسة يلعبون أدوارهم الحقيقية، والضحك، وقرع الطبول، والرقص والشعر المتطاير، والريح فى الخارج خائفة، واليد المجهولة ذات الأظافر المعقوفة تتخبط فى الفضاء بحثاً عن صدر تزج بالحفارة فيه، والحفارة فى صدرى، والمخلوقات السجينة فى البناء الآخر برغم كل شىء أسمعها تلهث فى أذنى (يا فراس... كان من الصعب أن تفهم، وإلا لما استطعت أن تنام)، والثياب تتطاير، وأنا أزداد التصاقاً بالباب، بحاجة إلى أن التصق بشىء ما.. الوجوه تدور أمامى، تدور، تقفز، تصرخ، تهذى، الموسيقى تعول، الطبل الطبل، فجأة أرى الأقدام عارية، الثياب مخيفة الألوان، الطبل وحده ضرباته وحشية متلاحقة، القبو المزين غابة فى الليل، والنار، ووليمة وعلى الوجوه أصباغ مخيفة، والعويل، والبناءان صارا بناء واحداً، وجوقة النحيب هناك، هنا، والسماء لوحة فولاذية ليس عليها حرف واحد، ثم كرة صغيرة ثم شحنات مجهولة تتدفق منها، ويسرى وعى مبهم بخطر فظيع، الكل يتلفت حوله، والخوف، والرقص الوحشى، وعلينا أن نرفع ضحية ما بطريقة ما لنهرب من مصير ندفع إليه،

لنهرب من تعذيب أحدنا للآخر. فقدنا القدرة على المراوغة وفى الأعلى اليد الكبيرة ذات الأظافر المعقوفة تهيمن، نطيع ونتوقف عن انتحال الأسباب وتسخير المنطق، والقرع الفظيع، والرعب، والهستيريا من الضربات العارية على الأرض، أين دبابيسى. ليخرج كل دُماه.. أين الدبابيس خائفة.. خائفة..

وأركض.. أركض.. أنا فى الغابة خائفة، أنا فى الغابة.. يجب أن أهرب.. أن أهرب.. أن أهرب، يجب أن يتوقف كل شىء بطريقة ما، أهرب مما لا أدريه إلى ما لا يوجد.. ماذا؟ ماذا؟ لا!..

ربما بعنف أغلقت باب غرفتى ورائى. زبيدة شريكتى (بالقرعة) فى الغرفة تقفز بهلع من نومها.. النور الباهت على مكتبتى ما يزال مضاء.. تصرخ رعباً وهى تنظر فى وجهى، ثم فى مشهد الدمى المشنوقة المتدلية من الجدار خلف المكتبة..

– هل عدت إلى هذه الأعمال الفظيعة.. سأقدم شكوى غداً ضدك وسأطلب نقلى من هذا الجحيم الوثنى. لا أستطيع أن أعيش فى غرفة واحدة مع شريرة. انظرى إلى وجهك فى المرآة...

ونظرت إلى المرآة ولم أر فيها شيئاً!. على الجدار يتأرجح شريط الدمى المشنوقة فى الريح.. دمية لامرأة جميلة وجهها على صينية من الدانتيلا والتنتناه وثوبها الطويل من الحرير، وفى فمها (بز) عاجى صغير، وعود يشبه سيجارة.. وعلى صدرها عَلقتْ ورقة بيضاء، صغيرة، برقية، بعشرات الدبابيس غرزتها وثبتها.. برقية تلقيتها بعد الأعياد..

... انفجرت ضاحكة أمام الموظف المشدوه.. برقية؟.. برقية من والدتى مع الحوالة النقدية؟.. قلت ربما كانت برقية تهنئة بعيد ميلادى. بعيد خلاص رشاقتها منذ عشرين عاماً من التشويه الذى أحدثته لأشهر...

وقرأت: «تم الطلاق بينى وبين والدك... اختارى أحدنا»..

وانفجرت أضحك.. نكتة حلوة سأرويها لصديقتى الجمجمة ونحن نغرس الدبابيس ونضحك..

أعطيت البرقية للموظف المشدوه وطلبت منه قراءتها.. كنت بحاجة لأن يشاركنى إنسان ما ضحكى. يشاركنى.. يبدو أنه لم يفهم النكتة.. سألنى بلطف مشفق إذا كنت بخير..

فى طريقى إلى الجانب الآخر من التل لم أتمالك نفسى من الضحك.. برغم نظرات زبائن (فيصل) و (أنكل سام) المدهوشة.. أن أختار أحدهما!!.. كيف أختار إذا كنت لا أعرف عنهما إلا أخبارهما فى الصحف؟.. ربما كانت الآن تجرى حصر الأمتعة استعداداً ليتقاسماها فيما بينهما، وحصر الفواتير لتقسيم الثروة، وتذكرانى لما وجدا فواتير المرضعة والمدارس الداخلية..

تطلب منى أن أختار أحدهما!..

خمسة عشر عاماً وأنا وحيدة، أتسول يداً كبيرة دافئة كسقف دار. خمسة عشر عاماً من جحيم إلى جحيم، وأنا دوماً النعجة السوداء الشاردة.. خمسة عشر عاماً وليلى فى الغابة بحثاً عن

الـذئب كى يـؤنـس وحدتهـا.. خمسة عشر عاماً وأنـا أينمـا حللت الشريرة الشرسة.

أن أختار أحدهما!.. كأنْ كان لى أحدهما كى أختار.. وطويت البرقية.. وفتحت مفكرتى وأنا أغادر باب الجامعة وأسير فى الجانب الثانى من التل..

واتجهت إلى مخزن «معتوق». اخترته لا لمنظر الحلويات فى واجهته ولكـن لأن اسمـه «معتـوق».. اسم عـربى كـاسم «مدجـج» فقد سئمت الحديث الدائم باللغة الأخرى.. خلـف الموظـف كـان وجهى فى مرآة.

– أريد كعكعة لعيد ميلاد الجمجمـة.

– ماذا؟..

– قلت لك لعيد ميلادى.. أريدها كهـذه الكعكـة..

– حاضر. عنـوان البيت؟

البيت! كلمة مرعبة...

– بيتى شارع طويل على جانبيه شريط من الغرف المتشابهة و...

– عفواً.. لـم أفهـم اسم الشارع..

– المصيطية.. رقم...

أعطيته عنوان دارك يا فـراس..

– والاسم ؟

– رقـم ٢٠٢ ..

– عفواً لمقاطعتك، ولكن لا حاجة لرقم الهاتف. الاسم فقط..

– بالضبط... ٢٠٢

– لم أسمع...

– فراس!.. المهندس فراس هاشم..

وخرجت هاربة. كان من الصعب أن أفسر له أن بنات سيدات المجتمع صاحبات الجمال الخالد (بلا أسماء وبلا عناوين)...

زبيدة لا تزال تصرخ. فى عينيها خوف تافه لئيم. الخوف، لو تعرف ما الخوف (يا فراس.. أحقًا أنك نائم؟.. هل استطعت أن تنام مثلها؟)..

– انزلى هذه الدمى.. الغرفة مليئة بالأرواح الشريرة.

تتثاءب من جديد.

– لم أنم ثانية واحدة منذ جئت إلى هذه الغرفة المشؤومة. تمد يدها إلى المنضدة..

– سأقرأ بعض الأدعية لأنام.

تلتقط كتابها الجنسى ذا الغلاف «أعمدة الحكمة السبعة» وتسوى غطاء فراشها مع سجادة الصلاة التى تحب أن تمدها فوق الأغطية!.. تشعل النورالصغير فوق رأسها.. فك الجمجمة يتوقف لحظة عن الارتعاد.. تصوب إلى زبيدة من مغارتَىْ عينيها أشعة سوداء قاسية.. ثم يعاود وجهها ذلك التعبير الساخر الحلو..

بحنان أتحسس عظامها..

– يا جمجمتى الحسناء.. لو كنت دافئة فقط..

تصرخ زبيدة: كفّى عن مخاطبة الجمجمة، هذه وسيلة إيضاح لدراستك وليست صديقة ثالثة فى الغرفة.. ولملمى هذه الدمى..

الدمية الثانية.. لرجل بلا وجه، أشيب الشعر منتفخ الجيب.. كانت جيوب أبى منتفخة دائماً، ولم يكن فيها قط حلوى لى. فى درجى الخاص أدفنهما من جديد

وفى الدامية الثالثة، دميتك، أدفن دبوساً جديداً..

أعض على شفتى لأمص من شفتى دمك..

قد أبكى إذا آلمتك، فأستريح..

افترقنا..

لم يحدث شيء.. أبداً كنت خائفة، أبداً كانت الغابة موحشة والليل طويلا، وأنا سجينة أنتمى إلى قافلة الاحتجاج الدامى فى البناء الداخلى الآخر.. (يا فراس.. لا ريب فى أنك لا تدرى.. لا ريب فى ذلك فقد كنت أبداً كبيراً وكريماً.. وفى لحظات الغروب كنت أحب أن أراك، لأن ظلك على الرمل كان طويلا طويلا أركض وأركض لأدرك الرأس فيه.. وتغيب الشمس ويختفى قبل أن أصل إلى نهايته العملاقة.. إنك متعب، ولا تدرى، ولهذا أنت نائم.. آسفة لأننى أيقظتك)..

تعود الحفارة إلى صدرى.. لا.. لست آسفة لست بآسفة، كان عليك أن تدرى.. لقد سمعت الأصوات ذات ليلة.. خذ، هذا دبوس آخر فى دميتك...

ربما أبكى إذا استطعت أن أولمك، فأستريح!..

(تصرخ الراهبة فى وجهى: ابكى.. كونى طفلة طيبة تصلى وتكتب الرسائل لأمها.. ابكى فالفتيات الشريرات فقط لا يبكين ولا يستغفرن..

وكنت أبكى بمرارة بلا صوت ولا دموع.. كان من الصعب أن أتعرى أمامها.. كنت أحس أنها بلا قلب، وأننى بحاجة للبكاء لأنى خائفة، لا لأنى طامعة فى قطعة الحلوى كبقية الفتيات.

سأعاقبك ولن أسامحك حتى تبكين.. أديرى وجهك للحائط وقفى على ساق واحدة.

وتحجرت.. كسرة خبز جافة للعشاء وكأس ماء.. لم آكل قطعة الخبز لكننى وأنا أشرب الماء تذكرت حلماً فظيعاً رأيته ولا أدرى كيف أطبقت بأسنانى على الكأس.

وعرفت طعم الزجاج المسحوق بالأسنان، الممزوج بدم مالح وحار).

كفت الموسيقى. ربما تعبوا. أسمع وقع خطى كثيرة على الدرج. مارسنَ تخديرهن وودعن الفرسان. وعدن إلى جحورهن.. وسوف ينمن بسلام كما فى كل ليلة، ولن يسمعن الأصوات المخيفة.. زبيدة تطفىء النور الصغير فوق رأسها. وترمى بالكتاب من يدها لتنام من جديد وهى تتمتم: لم أعرف، طعم النوم منذ جئت إلى هذه الغرفة المشؤومة..

أنا من جديد مسمرة خلف منضدتى.

خائفة، برغم أصوات الأبواب التى تفتح وتغلق وانسكاب المياه وصوت بقايا النشوة الضاحكة.. الضحك. يضحكن برغم انتحاب مخلوقات البناء الآخر المقابل، وخلسن.. رغم كابوس ليلى فى الغرفة المجاورة.. الجوع وحده هو الذى يجمعنا إلى مائدة واحدة.. لا جسر لا خيط لا حوار.. (يا فراس لا جسر لا خيط لا حوار؟.. ويدك؟ سقف سحابة؟ يا فراس.. لا يهمنى كيف ولماذا، كل ما أعرفه هو أننى لن أتكوم فى صدرك يا ذئبى الحنون وأننى أحببتك حقًا ذات يوم.. ولكنك لن تدرى ولم تدر برغم كل ما قلته وما كنت أود أن أقوله.. فالحوار ميت ما دامت الكلمات فى عالمك تعنى شيئاً آخر عما تعينه فى عالمى.. وكل ما قيل كان للرياح لأن خط الهاتف كان مقطوعاً دائماً.. اليد المجهولة ذات الأظافر المعقوفة قطعته.. كان مقطوعاً منذ البداية، لم أقطعه الليلة أنا.. غداً كيف أفسر لهم أننى لست شريرة وأن شريط الهاتف كان مقطوعاً دائماً دائماً..

ومع ذلك، كان يكفى أن أحس أنك فى الطرف الآخر من الجهاز الأكذوبة وأنك على الأقل تحاول أن تكون معى، وأنفاسك اللاهثة جسر نور مرتجف).

بدأ ضجيجهن يخفت. زبيدة غارقة فى النوم من جديد، الجمجمة صامتة وحزينة. الأصوات هدأت برهة لكننى أعرف أنها ستعود. عدت وحدى معك.. عن الجدار أتناول دميتك. أنتزع الدبابيس منها واحداً بعد الآخر.. كم أحببتك.. (يا فراس.. أعرف أنك أحببتنى كما لم تحب امرأة فى حياتك.. أعرف أنك أيضاً وحيد

وكئيب، وأن شفتيك ما تزالان تجوسان عنقى بحنانهما العجيب، لكنهما تقولان كما أقول: افترقنا.. لم يحدث شيء).

بلى.. حدث شيء فظيع، وهو أن ما حدث لن يتكرر ربما طيلة العمر.. وأننا افترقنا بلا مبرر، ولم يكن هنالك أى مهرب من ذلك.. والحفارة لم تختر صدرى بنفسها. هنالك طرف ثالث فى كل ما كان.. نتصرف كأننا وحدنا كل شيء، وننسى اليد المجهولة ذات الأظافر المعقوفة. ربما لأننا لا ندرى عنها شيئاً، لكننا نعرف أنها مادام ذلك كله يحدث، ولا يتبقى لنا إلا الخوف، وعناقنا احتماء خائف بخائف.. (يا فراس.. أين أنت أخفيك فى صدرى من خوفى). لن أقبل دميتك، أخشى أن لا أبكى فأنفجر.. يجب أن أبكى مرة ما..

– ابك. قولى أى شيء..

ظللت صامتة. كنت أعرف أن ذلك سوف يحدث. كنت أعرف أن لا مفر من أن يحدث. ظللت جامدة. تمنيت شيئاً واحداً: أن أروى لك ذلك الحلم الذى يلازمنى منذ طفولتى، منذ عرفت طعم الزجاج المسحوق بالدم.

أنا طفلة أركض باكية فى غابة مخيفة الأصوات. جائعة. جائعة لأننى خائفة. لأننى هربت من كوخ جدتى التى تتمدد دائماً فى فراش لا تنهض منه ولا يبدو منها سوى رأسها عائماً فوق الدانتيل والتنتناه، ويدها التى تمسك (بز) سيجارة من العاج المنقوش وتدخن، أو تمدها للرجال الداخلين والخارجين باستمرار فينحنون لتقبيلها..

فقد حدث أن أحسست بالجوع لأننى أحسست بالخوف.. ولما دببت على فراشها بحثاً عن صدرها لأرضع بنفسى بعد أن شاهدت إحدى الخادمات ترضع طفلها دفعتنى بقسوة لأنها مشغولة ولا وقت لديها.

هجمت عليها بأنيابى الصغيرة، مزقت ثوبها لأننى جائعة لأننى خائفة، لأننى سأموت رعباً إذا لم أرضع.. ولما طردتنى من الغرفة هربت إلى الغابة بحثاً عن الذئب لأرضع.. كنت أعرف أنه هناك، ولم أكن خائفة منه كبقية الأطفال.. كنت أعرف أنه يحبهم بطريقته الخاصة، وكنت أعرف أنه ليس شريراً، وأنه ربما سيروى لى قصته.. وينتهى الحلم دائماً وأنا فى الغابة أبحث بلهفة عن الذئب.. تمنيت أن أقول إننى لست آسفة على شىء ولست نادمة وإننى أفيض امتناناً ومحبة.. وإننى إذا رويت قصة ليلى والذئب لأولادى فسأخبرهم بأنه كان شابًا رقيقاً شفاف العينين. فى احتضانه الشرس لليلى تخدير يشبه الحنان، يشبه اغتصاب موت عنيف كاليقظة وكالفرح.. وأنه لم يعذب ليلى، وأنه أراد أن يقبلها، لكن أسنانه رُكِّبَتْ بطريقة جعلت من قبلته عضة مميتة.. وأنه حاول فى البداية أن ينسيها خوفها بعناقه الدافىء المنعش، فلما ابتسمت بنشوة طفل فرغ للتو من امتصاص ثدى أمه، تمنى أن يمنحها كل ما يملك..

لمّا سرى سمه فى جسدها لم يستطع أن يصدق.. كان يظن أنه يمنحها عسلا ورحيقاً.. مَن شوهه هكذا دون أن يدرى؟.. فصار حينما يظن أنه يبتسم، يستحيل مرعباً مخيفاً كأصوات الغابة ؟؟.. كأنه صورة حسية للأصوات البائسة..

وحينما قتل الخوف ليلى لم يدرك أحد أن ليلى كانت هى الذئب لأنها أتعسته بحبه لها، وجعلته يدرك كم هو عاجز وضعيف ووحيد.

ومن يومها انطلق الذئب فى الغابة بحثاً عن يد مجهولة لها أظافر معقوفة..

أردت أن أقول لك هذا كله.. لتعرف لماذا لم أبك ولم أناقش، ولماذا كنت أعرف أن شيئاً ما سوف يحدث.

عدت تهمس بقسوة تقسرها عن الانسكاب فى ارتجاف صوتك الحزين: ليلى.. قولى شيئاً.. ما رأيك؟.. وكان يقف خلفك أحد عمالك وبيده الحفارة الكهربائية.. ألصق نابها الذى يدور بوحشية على صدر الصخر وبدأ يأكلها والغبار الصخرى يتطاير.. كنت تقول.. ليلى.. يجب أن تفهمى أننى.. وضاع صوتك فى ضجيج ناب الحفارة الذى يدور بوحشية وينغرس شيئاً فشيئاً فى الصخر..

ربما لم يضع تماماً فقد ظللت تحرك شفتيك وتشير بيديك، لكننى لم أعد أسمع شيئاً.. لمحت لسانك يتحرك فى فمك، ثم لم أعد أرى سوى لسانك، ثم أحسستنى عارية ممدودة على الصخر فى الغابة ولسانك حفارة تعمل فى صدرى.. فولاذ لا حد لوحشية دورانه وتمزيقه.. الحفارة فى صدرى. عاجزة عن الفهم. عن المناقشة.. الأشياء أقسى من أن تكون موضوع بحث منطقى.. أردت أن أهرب لم أستطع. على وجهى يتطاير الحصى من صدرى.. كفى.. صممت الحفارة.. اقترب العامل منك ليسألك عن شىء ما.. سمعته يخاطبك: سيد فراس. فذكرت اسمك.. فراس. المهندس

فراس.. ذئبى الغالى.. التفت إليه تناقشه باهتمام كبير. لم أسمع صوتك.. لم أعد أسمع شيئاً.. أغمى على الأصوات.. ربما سرت طويلا فى شوارع المدينة التى تصادف أننى أعيش فيها.. لم أكن حزينة ولا فرحة ولا متعبة ولا مدهوشة.

افترقنا..

لم يحدث شىء.

كنت خائفة فقط كما كنت أبداً.. الخوف القديم التوأم نفسه...

توقفت عند أول بائع عصير فقد كان فمى مرًّا كما لم يكن أبداً.

كان كل ما أعرفه هو أننى رضعت فى الغابة نباتاً مر السموم.

ولا أذكر كيف ومتى.

كنت أتأمل وجه بائع العصير وأحاول أن أذكر أين ومتى رأيته... كان مألوفاً لدى إلى حد لا يصدق.. ومحبباً

مرة قلت لى: لا أطمئن إليك يا ليلى.. تتصرفين كالأطفال... ردود فعلك كالأطفال.. تحبين بسرعة وتنسين بسرعة، ولا تعرفين فى بعض اللحظات معنى ما تحسين به..

وظللت أتأمل وجه بائع العصير وشاربيه.. أين؟ أين؟.. ثم تذكرت أنه يشبه وجه قطى مدجج. لو ألصق وجهه على جسد رجل لكانت الحصيلة هكذا.. لذا تناولت كأس العصير منه وقلت: شكراً يا مدجج.. ضحك بدهشة القطط واهتز شارباه. وهنا كدت أتأكد من أنه مدجج نفسه وأردت أن أسأله إن كان سيخلع هذا الجسد

المضحك ويعود إلى الحديقة مساء وقت العشاء، وإذا كان يريد منى اليوم أن أسرق له فخذ دجاج من (الكافيتيريا) أم أن لديه فئراناً كافية.. لكن رجلا مر بنا فى تلك اللحظة، وقد حمل بين يديه بعناية لفافة صغيرة.. تمتم بائع العصير الذى لم يعد يشبه مدجج: إنا لله وإنا إليه راجعون.. جف حليب زوجته من التعب والفقر، ومات طفلهما جوعاً!..

وهنا فقط لاحظت أن ثيابه رثة وقذرة، وأنه يحمل جثة طفل ملفوف بشرشف ممزق.. وفى رأسه المنكس انكسار لا حد له.. ذل غريب فى خطواته المتثاقلة، ذل إنسان مقسور على أداء دور لا يدرى كيف ولماذا زج به.. شىء ما فى المشهد أعادنى أمامك.. عدت أسمع صوتك: ابكى... ناقشى... قولى شيئاً... عدت أسمع حديثك الضائع فى أزيز الحفارة. عادت الحفارة. لسانك. الحفارة على صدرى من جديد كلماتك لا أسمعها لكننى أشم الكارثة بالحاسة نفسها التى يدرك بها الأطفال أن عزيزاً ما فى الدار مات دون أن يفهموا معنى ما يدور. الحفارة بوحشية تدور، بوحشية تنغرس فى صدرى. أختنق. أعجز عن الصراخ، تزداد أكلا لأعصابى. هذه المرة أحسها تقسر على الانغراس فى صدرى. اليد المجهولة ذات الأظافر تدفع بها. تقسرها.. هذه المرة أحس بانكسار لا حد له فى رأسها الفولاذى.. بذل عجيب فى قسوتها، ذل آلة مجبرة على أداء دور لا تدرى كيف ولماذا زج بها فيه.. أحسست برغبة فى أن أتحدى اليد المجهولة.. فى أن أشد الحفارة إلى صدرى، أزداد التصاقاً بها.. أحسست أننى أحبك.. أنك أيضاً خائف مثلى،

ربما كنت أكثر خوفاً، لكنك كالكبار جميعاً، وكالذئاب، ترفض أن تعترف بذلك كله. أحسست أن وجهى بدا يتجعد، وظهرى ينحنى، وأسنانى تتساقط فى فمى، وأنفاسى تضيق، والرماد الصدىء فى حلقى يتكاثر، وأننى عجوز عجوز، وسيرتاع بائع العصير لو نظر إلى، فرميت بالكأس أمه، وتلمظت بطعم الزجاج المسحوق فى فمى المهترىء، وغمرنى حزن كبيرٌ كبير.. حزن أشد قسوة من الخوف ومن الغربة..

حزنت حزناً طفلاً عجوزاً ليس فيه من رياء حزن الكبار والذئاب ومكابرتهم.. دون أن أدرى لماذا وكيف سرت خلف الرجل فى جنازة الطفل الذى لم يرضع..

سرت طويلا، ويداى مشدودتان أمامى، مثقلتان بشبح جثة لا أدرى كيف أدفنها.

نظرات المارة لا تهمنى.. لو سمعوا نحيب المبنى الآخر لساروا جميعاً خلفى.. سرت طويلا.. لا أدرى كيف أدفنها).

والآن.. لا أدرى كيف أبكيها.. لا شىء يبكيها. صمت عجيب. كل شىء صامت وجامد. الخوف متصلب خوفاً.. زبيدة نائمة.. إنى خائفة. ربما كانت ميتة.

الجمجمة عادت مجموعة جامدة من العظام المتقززة، لأن الديدان ساحت عليها زمناً طويلاً قبل أن تدرك أنها فرغت تماماً ولم يبق فيها ما يؤكل..

عبثاً أحاول أن أقرأ فى كتابى المفتوح. ماتت الحروف واستحالت جثثاً ولم تعد تعبر عن أى شىء..

الأشجار ماتت خلف النافذة. لا حركة. لا صوت سقوط ثمرة على الأرض.

سكان المبنى المقابل توقفوا تماماً عن الأنين. استحال المبنى قلعة تعذيب مات هلها منذ زمن بعيد.. حتى الأعشاب السامة التى تنمو بغزارة على جدرانها توقفت فى هذه اللحظة.

مات كل شيء.. والجثث الثقيلة كلها تطفو فوق صدرى.. والخوف مات خوفاً.

جثث الرياح ممددة تحت الأشجار.. وجثث الأصوات.. والليل الوباء توقف عن الانتشار فى عروق الوجود الميتة.. والعتمة المهيمنة ليست إلا خيال اليد المجهولة المعقوفة الأظافر التى ربما تهوم فى هذه اللحظة بالذات فوق المكان. والخوف مات فيه الترقب والنبض والتشنج.. أحسه غازاً فولاذيًّا كثيفاً ينسكب ببطء من جثث الأشياء كلها ويتجمع فى الأرض ويعلو ببطء طوفان غادر الصمت ليغرق العالم.. أصرخ: زبيدة..

لا تتحرك. أخرج من الغرفة مسعورة. الممشى الطويل ميت. لا حسّ. لا حركة، لا ضوء من شقوق الأبواب. أنا وحيدة فى ساحة معركة انتهت منذ ساعات وكف الجرحى عن الأنين وماتوا جميعاً.. خائفة. (يا فراس يا فراس أين نبض عروقك؟..أريد أن أتحسسها.. أن أفرح بملمس الحياة وتوثبها).. على الدرج أركض مجنونة.. إلى الهاتف. أمسك بالسماعة وأدير أرقامك. الهاتف أيضاً ميت. الجسور كلها مقطعة.. أقفز مجنونة إلى لوحة الأزرار المائة، كل زر فيها موصول بإحدى الغرف المائة.. سأضغط عليها كلها

دفعة واحدة لتدق الأجراس فى الغرف كلها ويستيقظ الجميع.. طوفان الخوف الفولاذى يعلو ويعلو. يصل حتى ذقنى. بعد قليل أختنق، وأعجز عن ابتلاع الهواء الميت الثقيل..

ألتصق بجسدى باللوحة.. ألتصق بها بشراسة.. ألتصق بالأزرار وأضغط وأتمنى لو تمتصنى الأزرار وتحملنى الأسلاك المائة لتوزعنى على الغرف كلها ولأكون فى وقت واحد مع مئتين من المخلوقات الحية التى تنام فى الليل.. الأجراس لم تمت. تنطلق مسعورة. مائة جرس فى لحظة واحدة. ضجيج رائع.. ستستيقظ الجثث بقية الليل ولن أبقى وحيدة مع الموت الميت.. بفرح أسمع جلبتهن.. بشماتة أنصت إلى وقع أقدامهن على الدرج.. أتسلل إلى القبو لأختبىء وأصواتهن الهلعة الهابطة نحو اللوحة تطربنى.. جوارهن الفزع يريحنى.. الآن، كلهن مثلى، خائفات وحائرات وغير نائمات يبحثن عن الشبح المزعج دائماً.. القبو بشع.. بقايا الوليمة فى الظلمة لا حد لبشاعتها.. بقايا الأكل، بقايا الروائح.. أعقاب اللفافات المستهلكة، أعقاب النكات وعبارات الحب المستهلكة.. بقايا الزهور.. الكراسى الفارغة المشوشة الترتيب. الزينات الممزقة.. القبو وجه مومس عجوز ساح ماكياجها.. لماذا لم يغادروا المكان وكل شىء فى أوجه؟.. لماذا نشوه الأشياء بإصرارنا على استهلاكها حتى النهاية؟.. (ربما انتصرنا على البشاعة ولو لمرة يا فراس.. وليمتنا ما تزال فى أولها.. نكاتنا لم نقلها بعد.. أسما كنا ما زالت حارة ومكسوة باللحم، لم نعر عظامها بعد، ولن تفوح منها قط رائحة زنخة.. وزهورنا لم نقطفها، وموسيقانا لم نرقص على ألحانها، ولم نبدأ

استمتاعنا بها.. ربما لم تكن جريمة أن نفترق، ربما كانت الجريمة هى أن لا نجرؤ على ارتكابها فى الوقت المناسب.. الآن، سيظل اسمك أبداً يأكلنى حبًّا وشوقاً وحنيناً وجوعاً كلما ذكرته.. وسأظل أحلم بالساعات التى لن تصدأ لأنها لن تكون، وسأظل أستمتع بقبلاتك التى لن أسأمها لأننى لن أنالها، وستظل شفتاك حارتين بين شفتى، لن تبردا لأننى لو أطبقت عليهما لما وجدتهما).

حزن لا حد لمرارته كان سيعم فى القبو لو لم يتم الحفل.. ولو لم تفح رائحة النهاية المقرفة.. لا مفر. حزن أو قرف.. لماذا لا يسمح لنا بأن نصنع مصيراً ثالثاً ؟

كيف وأنا سجينة.. وصوت السجان الذى أحببته انطفأ.. أتسلل على الدرج. شىء لا يصدق. هدوء عجيب. عدن إلى النوم، ببساطة. كلهن راضيات بالحزن أو القرف. كأن سكان البناء الآخر من الذين لا يطمعون فى مصير ثالث.. ربما عوقبوا لطمعهم بمصير ثالث.. (يا فراس. ربما دون أن أدرى كنت أطمع بمصير ثالث لنا) لست خائفة.. لم يبق ما يمكن أن يخيفنى.. يجب أن أهرب.. الجدران تقترب منى، يجب أن أهرب.. يجب أن أطير من هنا.. (المكان بلا أفيونك لا يطاق يا فراس) أرفع رأسى إلى السقف.. لقد هربت الملائكة التى كانت ملصقة هناك.. ترى هل نبتت أجنحتى الآن بعد هذه الأعوام الطويلة.

(– لم تحاول طفلة الهرب من هذا المكان قبل اليوم.. لو لم يجدك الحارس لأكلتك ذئاب برمانا.. وبرغم غطاء الراهبة على

رأسها، رأيت شعرها ينتصب، ورأسها يستحيل إلى قنفذ شرس. فظللت أتأملها بدهشة، ورأسى يكاد لا يصل إلى خصرها.

– انظرى إلى الأرض يا طفلة الشيطان.

ونظرت إلى السقف.

وفى السقف كانت هنالك صور ملائكة لها أجنحة، رأيتها للمرة الأولى يوم جاءت بى أمى إلى هذا المكان..

أدهشنى أنها ما زالت فى السقف، ولم تغادر هذا المكان الفظيع برغم أن لها أجنحة..

وقررت.. غداً حينما أكبر وتطول أجنحتى سأهرب وأطير بعيداً بعيداً.

وكنت فى كل صباح أتحسس كتفى بحثاً عن أجنحتى التى ستطول)..

يجب أن أخرج الآن من هذا المكان. سأهرب إلى الغابة.. سأتسلل من النافذة الضيقة الوحيدة التى لا تغطيها القضبان.. ربما استطعت التسلل.. غرفة الألعاب ضيقة ومظلمة.. سوف أهرب، سوف أهرب.. ضربات قلبى مرتفعة. ربما أيقظت المديرة التى لم يوقظها قرع الأجراس المائة.. (أين همسك يخدرنى، يعيدنى إلى فراشى مهدئًا) أحمل كرسيًا وترتجف يداى وأنا أحاول أن أضعه تحت النافذة بلا صوت. أصعد عليه. أفتحها، نحيب طويل حزين ممطوط من البناء المقابل. أرفع ركبتى إلى النافذة وأنا أمسك بأحجارها من الخارج أتمدد بطرف جسدى عليها.. نحيب آخر،

ثم عشرات الصرخات من نباح حاد غريب.. ربما كانوا فى البناء الآخر فرحين من أجلى لأن أجنحتى طالت وها أنا أهرب.. بجسدى النحيل ورأسى المحنى أنزلق على النافذة إلى طرفها الآخر ويصبح رأسى ونصفى فى الخارج.. أستوى جالسة بصعوبة، نصف مثنية إلى الداخل لأحفظ توازنى.

أقفز إلى الأرض، أحسنى أطير من النافذة..

أقفز فى الغابة.. حرة..

حزينة لأننى أعرف أن لا ذئب فيها (فراس، يا ذئبى الطيب. كيف... استطعنا أن نفترق؟)..

أنا فى الغابة.. وحرة..

وماذا بعد؟..

لذة عجيبة فى أن أتحرك طليقة لمجرد أننى أريد أن أتحرك، أن أطير من النافذة وأعود ليلى حينما يكون على أن أتمدد فى فراش أمامه باب كتب عليه رقم ٢٠٢.. أقفز طليقة.. أركض طليقة وأفتح ذراعى لأضم الريح والليل والصمت المريب..

إحساس يشبه فرحاً عجوزاً يغمرنى..

يكبر يكبر فيصبح فرحاً طفلاً.

توق غامض إلى ما لا أدريه ينبض فى أجنحتى وأنا أطير وأطير.. الغابة.. أنا طليقة فى الغابة..

كلهن نائمات، يتلقين من النوم أحلامهن صدقة.. أنا وحدى أطير من بين القضبان لأكتشف أحلامى، لأصنعها..

برد برد.. تعبت من الركض.. برد على جبينى تتجمد حبات العرق.. أجنحتى تضمر.. بصعوبة أنتزع خطواتى.. بصعوبة أدب على التراب الموحل..

صمت مريب فى المجهول الذى أبحث عنه.. صمت مريب يفوح من رائحة الأغصان العملاقة والظلمة المشبوهة وظلالها اللئيمة.

الجذوع خشنة تجرح خدى.. همسات وأنين وأصوات غامضة لمؤامرات مجهولة تحاك فى الأجمات ضدى.. علي شجرة ما سوف تمتد اليد المجهولة ذات الأظافر لتشنقنى.. وحينما تهز الريح جثتى ويتعالى قرع الطبول سوف تنهال على الدبابيس والرماح، تغرس فى صدرى. وإذا بكيت فسيخيفنى صوتى لأننى سأنبح نباحاً طويلاً مسعوراً يضيع مع أصوات قافلة العذاب فى البناء المرعب.

الغابة قاسية، كالمدينة، (كالبستانى هول)، كالجانب الآخر من التل ونظرات أهله خلف زجاج مقاهيهم.

عبثاً أصرخ.. في حلقى انتحرت الأصوات رعباً، وشيء رخو سقط علي رقبتى. أحس بما يشبه الملاقط الدقيقة يتمسك بلحمى، أتقزز هلعاً..

بلا وعى أنتزعه وأرمى به.. ربما كان دودة كبيرة.. صرصاراً.. أو ربما..

آلاف الصور لمختلف الحشرات التى طالما درستها ورأيت صورها فى كتبى أحسها تتحرك الآن فى موكب مخيف.. تزحف فى القمة هابطة إحدى الأشجار وتتحرك نحوى.. آلاف الديدان

والعلق والسرطانات والهوام التى طالما شرحتها فى المخابر وثبتّ الدبابيس فى جسدها على قرص شمعى فى حوض، وغمرتها بمختلف المحاليل ومزقتها بمشرطى، كلها تزحف نحوى حاقدة نهمة، تتسلق جسدى وتنفذ إلى لحمى خلال فتحات ثوب نومى الهزيل.. أسمع صوت انسحاق بعضها تحت خفى الرقيق وأكاد أسمع انسحاق أسنانى المتشنجة.

الغابة كبيرة.. فى الليل، فى النهار، فى الشوارع، فى العيون، الغابة القاسية والهمسات المريبة والدبابيس والمؤامرات فى الزوايا وأنا وحيدة وحيدة وحيدة.. (يا فراس أين أفيونى؟)

أنا حرة فى الغابة..

ما الفرق؟.. بعد دقائق أصل أسوارها، وأمام الأسوار حراس، وخلف الأسوار غابة، وفى الصباح غابة.. لا شيء يتبدل سوى الأصوات والألوان ويظل المضمون واحداً، والهلع والبرد.

على الدرج الحجرى أصعد بصعوبة.. فى الليل يقطن العالم سكان آخرون، وعلى الدرج الذى يغلى بالطالبات فى النهار تتحرك الآن عشرات الديدان والحشرات الأخرى الفظيعة –.. ما الفرق ما دمت أبداً خائفة ومتقززة ووحيدة.. (إلا أيام كنا نهبط معاً، معك وحدك يا فراس كان الغاب ينحسر).

صرت قرب البناء الآخر..

الأصوات عادت تنطلق. قافلة العذاب بأكملها تعوى والدم يسيل من ألسنتها المقطعة على حديد أقفاصها.. والليل بارد وحزين

(يا فراس.. أين يدك؟ دافئة وكبيرة كسقف دار.. أتكوم فى قبضتها وأخفى رأسى تحت إحدى أظافرها)..

يمزقنى أن أذكر.. ربما لن أبكى ضياعى فى صدرك، دفء عناقك، نشوة انسحاقى، همجية انطفائى قطعة من الحديد المحمى تنتشى فى الماء المثلج.. يمزقنى أن أذكر يدك (يدك يا فراس دافئة وكبيرة كسقف دار.. أتكوم فى قبضتها وأخفى رأسى تحت إحدى أظافرها).

أجنحتى تتكسر..

أنها على الدرج الحجرى. فى فمى دم وزجاج مسحوق.. بين يدى أدفن وجهى.

أفقد كل قدرة على الخوف أو التفكير أو الحركة أو الموت..

أحس بالهزيمة.. بهزيمة كبيرة فى محاولة التصاقى بشىء ما.. بيد.. بثدى.. بغيمة.. بجذع شجرة.. بدانتيلا وجه أمى.. بالغابة. بالليل.. بقافلة الغرباء.. بقبيلة «البستانى هول».. بفراس..

مهزومة.. مهزومة.. راية منكسة على حافة جسر مهدوم..

شىء ما يدب ويتحرك ملتصقاً بساقى.. أحسه يروح ويجىء..

بلا خوف. ببطء. بلا مبالاة الجثث أرفع رأسى.. بعينى اللتين اعتادتا الظلمة أراه..

يروح ويجىء متمسحاً بساقى.. يهمهم، لعله عاجز عن أن يبلغنى رسالة ما..

أتحسسه بيدى.. يزداد تمسحاً وودًّا غامضاً.. أحمله إلى صدرى.. يستسلم بود عجيب.. يدفن رأسه فى عنقى.. أحمله وأنهض به عن الدرج.. يسترخى يتعب من لم ينم عصورا.. وأنا أيضاً متعبة يأكلنى النعاس.

يلتصق بى دافئاً ودوداً عجيب الألفة.. أهمس: مدجج هل أنت أيضاً خائف؟..

يزداد التصاقاً بعنقى وأنا أهبط الدرج وأنحرف فى الغابة لأتجنب حارس «البستانى هول»..

– مدجج.. هل أمك أنت أيضا سيدة مجتمع ؟

تحت النافذة المفتوحة التى هربت منها أقف.

– مدجج.. هل أنت أيضاً عاجز عن النوم ؟

هل أنت خائف ومهزوم ؟

يزداد تكوماً فى صدرى. يخفى رأسه تماماً فى عنقى، وأحس بلفح أنفاسه الحارة برغم الصقيع.

– مدجج.. تعال معى.. كن شريراً مثلى.

أرفعه إلى النافذة وأضعه على حافتها..

يربض هادئاً لا يموء ولا يتحرك. أتلفت حولى. لا شىء يمكن الصعود عليه كى أتسلق النافذة. فى الظلمة عيناه تلتمعان بما يشبه الترقب.. صرصور كبير يتحرك قرب قدمى، أضع يدى على طرف النافذة وأستميت لأرفع جسدى.. على الحجر الخشن أسمع جلدى يتمزق عند الركبتين.. أظل أكافح مسعورة لأصعد.. شىء حار

يسيل على ساقى.. أنجح فى وضع إحدى ركبتى على النافذة.. مدجج يزيح لى مكاناً بصمت. أدخل رأسى ونصف جسدى من الحديقة إلى الغرفة. يقفز مدجج إلى أرضها ويقف منتظراً. بهدوء أدلى بساقى إلى الكرسى وأقف عليه. أغلق النافذة. أهبط عنه وأبعده من تحتها. أحمله فيعود إلى استرخائه المحبب على صدرى. أصعد الدرج إلى غرفتى. أمر بغرفة المديرة وأسمعها تصرخ بى كما ستصرخ غداً: ستكون عقوبتك كبيرة..

• عدت إلى صنع الدمى وغرس الدبابيس.. مثل هذه الطقوس ممنوعة فى مكان مكرّس للعلم.

• قطع شريط الهاتف: أنت حتماً المتهمة، فقد سبق لك إفساد اللوحات الفنية فى غرفة الاستقبال برسم شوارب لوجوهها، وآذان قطط وأذناب لها.. وسبق لك سكب الحبر على الثياب المنشورة فى غرف الغسيل.. وإخافة الفتيات بالجماجم.. وقرع الأجراس وإيقاظ الجميع.. لولا أمك السيدة الراقية لما تركتك لحظة هنا..

• ممنوع إدخال الحيوانات إلى الغرف.. وهذا القط قضى ليلته فى غرفتك حاملا معه الأمراض والقذارة.

أزداد ضمًّا له، أحبه حب شريكين فى جريمة. أظل أتسلل على الدرج.

أمام الغرفة ٢٠٢ أحبس أنفاسى وأفتح الباب بهدوء. زبيدة نائمة طبعاً. أكاد أنفجر ضاحكة بأعلى صوتى وأنا أذكر عبارتها التقليدية (لم أعرف طعم النوم منذ جئت إلى هذه الغرفة المسكونة)..

بين الأغطية نندس بصمت..

– سجننا فظيع، لكنه دافيء على الأقل، وحسراته لا تغادر فراشها وغرفها..

يموء بصوت خافت كهمسي.. جو محبب من الحوار الغامض، ثم رأسه مدفون في عنقي، وجسده الحار يعلو ويهبط تحت يدى طفلا يفيض أنسا وألفة..

– مدجج هل تسمعني؟.. فراس مضى.. افترقنا اليوم..

يمدّ يده الصغيرة يربت بها على وجهي بما يشبه الحنان.. يصمت تماماً كأنما يحبس أنفاسه بانتظار بقية الحكاية.

متعبة.. أكثر تعباً من أن أستعيد التفاصيل.. عصابي اهترأت، حتى الحفارة فقدت مفعولها.. أعصابي تسترخي.. العناد والشراسة والمقاومة والتحدي.. كل شيء يسترخي.. (يا فراس.. أين يداك تحلان ضفيرتي، وأصابعك تتخلل شعري ثم تغطيني بعناية، وتقبلني على جبيني لأنام.. مدجج يزداد التصاقاً بي.. أصابعي تتخلل شعره. أغطيه معي بعناية، أقبله على جبينه لينام.. ربما في المرآة المقابلة لفراشي الآن لوحة لطفلتين في الغاب التصق أحدهما بالآخر)..

– مدجج ؟؟ هل رأيت اليد المجهولة ذات الأظافر المعقوفة ؟ أحسه يرتعد ؟ ربما كان هو أيضاً يجهل صاحبها ؟

– مدجج ؟؟ هل أمك أيضاً سيدة مجتمع كبيرة ؟؟

برغم الظلام بخيل إلى أنه يبكي؟ على خدي دمعة انحدرت من إحدى عيوننا الأربع ؟

– مدجج.. هل تستطيع الصلاة؟.. كلما فكرت بفراس تمنيت لو أصلىّ بطريقة ما..

شلل مريح يستولى على أعصابى.. خدر، شىء مبهم يثقل على جسدى ويربض على الصور المتلاحقة فى أعماقى.

– قل لى: هل يمكن أن يستمر هذا العذاب طويلا قبل أن ألتقى بخدر ما؟.. «أحبيته» كلمة سخيفة تقولها البنات الطيبات لأمهاتهن.. هل وجدت كلمة أخرى..

وأنا أفقد القدرة على التركيز، أحس بلسانه الخشن يلعق خدى بحنان، وبدموع كثيرة تغسل وجهى، وبالسكينة الدامعة لجزيرة انحسر الماء عنها بعد أن جرف كل شىء..

ويظل بلسانه الخشن يلعق خدى بحنان.. يده الصغيرة على خدى.. تكبر وتكبر.. دافئة وكبيرة كسقف الدار..

أحس بيدى ذات الأظافر المعقوفة تسترخى!..

[من مجموعة ليل الغرباء ١٩٦٦]

قصّة قصيرة

١

لا تقنطي أبداً من رحمة المطر . .
فقد أحبُّكِ في الخمسين من عُمري
وقد أحبكِ والأشجارُ يابسةٌ
والثلجُ يسقط في قلبي وفي شعري
وقد أحبكِ حين الصيفُ غادرنا
فالأرضُ من بعده تبكي على الثمرِ
وقد أحبك – يا عصفورتي – وأنا
محاصرٌ بجبال الحزن والضجر
قد تحمل الريح أخباراً مُطَمْئنةً
لناهدَيْك ، قبيل الفجر ، فانتظري .
لن تخرجي من رهان الحب خاسرةً
عندي ترائي، وعندي حكمةُ الشجرِ
فاستمتعي بالحضارات التي بَقِيتْ
على شفاهي . . فإني آخرُ الحضَر

٢

قـرأتُ شعرى عليهـا . . وهى نائمـةٌ
فمـا أحسّستْ بتجريدى ولا صـورى
ولا تحسَّس نهداهـا لقـافيةٍ . .
ولا استجـابا لقيثـارٍ ولا وترِ
هززتُهـا من ذراعيْها . . فمـا انتبهتْ
ناديتُ : يا قطتى البيضـاء . . يا عمرى
قـومى . . سـأهديكِ تيجاناً مرصَّعةً
وأشترى لك مـا فى البحـر من دُررِ
وأشترى لك بلـداناً بكاملهـا . .
وأشترى لك ضـوء الشمس والقمر . .

٣

ناديتُ . . ناديتُ .. لكن لم يجب أحدٌ
فى مخدع الحبّ.. غير الريح والمطر..
أزحتُ أثوابها عنهـا . . فما اكترثتْ
كأنّها يئست منّى . . ومن خطرِى . .

٤

وكـان لَيْلِ طـولاً مثل عادته . .
وكنت أبكِى على قبرينِ من حجرِ . !

الرجل القبرصى

نيقوسيا فى شهر يوليو كما لو أن الخرطوم قامت مقام دمشق. الشوارع كما خططها الإنجليز، والصحراء صحراء الخرطوم. ولكن ذلك الصراع بين ريح الصبا وريح الدبور كما أذكره فى دمشق، وهى إنجليزية من رأسها حتى أخمص قدميها. بالرغم من كل تلك الدماء صدمت لأننى توقعت بلداً ذا طابع هلينى لكن الرجل لم يهملنى ريثما أوصل الفكرة إلى نهايتها. جاء وجلس جانبى على حافة حوض السباحة التفت لفتة خفيفة فأحضروا له فنجان قهوة. فوراً اتجه نحوى كأننا كنا على موعد وقال:

سائح ؟

قلت : نعم.

أحدث صوتاً لم أفهم مغزاه، كأنه يقول أن مثلى لا يستحق أن يكون سائحاً فى نيقوسيا، أو أن نيقوسيا لا تستحق أن يكون مثلى سائحاً فيها.

انصرفت عنه بالتمعن فى امرأة وجهها مثل ملائكة روفائيل، وجسدها مثل نساء قوقان. هل هى الزوجة أم المرأة الأخرى؟ وقررت بسرعة أن الزوجة هى المرأة الأخرى لأن الرجل منصرف بكليته إلى المرأة السماوية الوجه، الأرضية الجسد. مرة أخرى قطع على صاحبى القبرصى حبل تفكيرى:

– من أين ؟

– من السودان ؟

– ماذا تعمل ؟

– فى الحكومة ؟

أيضاً ذلك الصوت الغريب، لكن مغزاه كان واضحاً لا مراء فيه هذه المرة يعنى، أننى، والسودان، والحكومة، ماذا أقول؟ ابتسمت لأن الحكومات صدرها واسع على أى حال، وأنا فى الواقع لا أعمل فى الحكومة.

قال بلا مناسبة بإنجليزية حسنة:

– عندى مصنع.

– صحيح ؟

– لصنع أزياء النساء

– شىء جميل

– كونت ثروة كبيرة. اشتغلت مثل العبد، عملت ثروة. الآن لا أعمل. أقضى وقتى كله فى الفراش.

– تنام ؟

– أنام ؟ أنت تمزح. ماذا يفعل الرجل فى الفراش؟ يلهو. طالع نازل. واحدة تلو الأخرى. طول اليوم.

– ألا تتعب ؟

– أنت تمزح. انظر إلىّ، كم تظن سنى ؟

أحياناً خمسون، وسبعون أحياناً، لكنى لم أشأ أن أساعده، قلت له:

– سبعون.

لم يؤلمه ذلك كما قدرت، ولكنه ضحك ضحكة مجلجلة وقال:

– خمسة وسبعون فى الواقع، ولكن ما من أحد يعطينى أكثر من خمسين، قل الحق.

– خمسون إذا شئت.

– لماذا ؟

– تتريض.

– نعم، فى الفراش، أطلع وأنزل. بيض وسود وحمر وصفر. كل الألوان. أوروبيات وزنجيات وهنود وعرب ويهود. مسلمون ونصارى وبوذيون. جميع الأديان.

– أنت رجل متحرر.

– نعم فى الفراش..

– وفى الخارج ؟

– أكره اليهود.

– لماذا تكره اليهود ؟

– هكذا، لوجه الله. ثم إنهم يلعبون بحذق.

– ماذا ؟

– لعبة الموت. مارسوها منذ قرون.

– لماذا يغضبك هذا ؟

– لأننى... لأننى... لا يهم.

– ألا يغلبون ؟

– كلهم يستسلمون فى نهاية الأمر، «بكت»، فى انتظار قودو.

– ونساؤهم ؟

– ليس أحسن منهن فى الفراش. كلما ازدادت كراهيتك لهم ازدادت متعتك مع نسائهم. إنهم شعبى المختار.

– وزنوج أمريكا ؟

– لم تصل علاقتى بهم إلى درجة الكراهية. يجب أن أنتبه لهم أكثر.

– والعرب ؟

– يثيرون الضحك أو الرثاء، ويستسلمون بسهولة، فى هذه الأيام على الأقل. اللعب معهم ليس ممتعاً، لأنه من طرف واحد..

فكرت، لو أنهم قبلوا بقبرص، لو أن بلفور وعدهم إياها.

ضحك الرجل القبرصى ضحكته المجلجلة وقال:

«المرأة تطيل العمر، يجب أن يبدو الرجل أصغر من سنه بعشرين سنة على الأقل، هذه هى الشطارة».

– هل تخدع الموت ؟

– ما هو الموت؟ شخص يلقاك صدفة، يجلس معك، كما نجلس الآن، ويتبسط معك فى الحديث، ربما عن الطقس أو النساء

أو أسعار الأسهم فى سوق المال، ثم يوصلك بأدب إلى الباب. يفتح الباب ويشير إليك أن تخرج. بعدذلك لا تعلم.

كأن غيمة رمادية ظللت برهة فوق المكان، لكننى فى تلك اللحظة لم أكن أعلم أن القداح تضرب وأن الرجل القبرصى يلعب معى لعبة خطرة.

اتسعت موجة الضحك فشملنى. كانت عائلة عذبة أنست لها منذ جلست، الأب طيب الوجه، والأم صوتها الإنجليزى مثل لحن إليزابيثى من أوتار قيثارة عريقة. أربع بنات أكبرهن لا تزيد عن الثانية عشرة. كن يدخلن حوض السباحة ويخرجن، ويضحكن، ويعابثن أبويهن، ويضحكن. وكانوا يبتسمون لى، ويوسعون دائرة سعادتهم حتى شملتنى. وجاءت لحظة رأيت على وجه الأب أنه يوشك أن يدعونى أن أنضم إلى مجلسهم، فى تلك اللحظة دهمنى الرجل القبرصى. قامت البنت الكبرى وخطت برشاقة نحو حوض السباحة. قال الرجل القبرصى، والبنت توقفت فجأة كأن قوة غامضة أوقفتها، قال :

– هذه أدفع فيها مائة جنيه إسترلينى.

قلت، له مذعوراً :

– «لماذا» ؟

أشار الرجل القبرصى بذراعه إشارة بشعة.

فى تلك اللحظة انكبت البنت على وجهها، سقطت على الحجر، سال الدم من جبهتها. هبت العائلة الطيبة مثل طيور مذعورة وأحاطوا

بالبنت. فوراً قمت من جنب الرجل، وأنا أشعر نحوه بكراهية طاغية، وجلست على مائدة بعيداً عنه. تذكرت بناتي وأمهن في بيروت وغضبت، ورأيت أفراد العائلة الجميلة ينصرفون مبتئسين، البنات يتشبثن بالأم، والأم تتحامل على الأب، فغضبت أكثر. ثم سكت، وسكتت الأشياء حولي. انحسرت الضوضاء، وجاء صديقي الطاهر «ود الرواسي» وجلس إلى جانبي، على الكنبة، أمام متجر سعيد. كان متهلل الوجه نشطاً ممتلئاً عافية. قلت له :

«صحيح ليش ما كبرت أو عجزت مع أنك أكبر منهم كلهم؟»

قال :

«من وعيت على الدنيا وأنا متحرك. ما أذكر أني وقفت من الحركة. أشتغل مثل الحصان وإذا كان ما في شغل، أخلق أي حاجة أشغل نفسي بيها. أنوم وقت ما أنوم، بدري أو وخري، شرط أصحى على المؤذن أول ما يقول «الله أكبر الله أكبر» لصلاة الفجر».

– لكنك لا تصلي ؟

– أتشهد وأستغفر بعد ما المؤذن يخلص الأذان، وقلبي يتطمن أن الدنيا ماشية زي ما كانت. آخذ غفوة مثل نص ساعة، العجيب غفوة ما بعد الأذان تسوى عندي نوم الليل كله، بعدها أصحى كأنه صحاني منبه. أعمل الشاي وأصحي فاطمة. هي تصلي صلاة الصبح.. نشرب الشاي. أنا أنزل أقابل الشمس فوق صفحة النيل وأقول لصباح الله حبابك ومرحبا بك. أغيب زي ما أغيب أرجع

ألقى الفطور حاضر. نقعد أنا وفاطمة وأى إنسان من عباد الله تجئ به لينا القسمة، أكثر من خمسين سنة على هذه الحالة».

يوماً ما سأسأل الطاهر ود الرواسى، عن قصة زواجه بفاطمة بنت جبر الدار، إحدى أخوات محبوب الأربعة، هل أسأله الآن؟ لم يكن ولاؤه لنفسه، بل كان لمحبوب، وكان يضحك على نفسه وعلى الدنيا. هل يصبح بطلا؟ واضح أنه إذا جد الجد فسوف يفدى محبوب بنفسه. هل أسأله الآن؟ لكنه قال، وحده، جملة صغيرة مصنوعة من نسيج حياته كلها :

«فاطمة بنت جبر الدار هالله. الله».

– ومحبوب ؟

ضحك الطاهر ود الرواسى ضحكة لها طعم تلك الأيام، وذلك مدى حبه لمحبوب، حتى ذكر اسمه يملؤه سعادة، كأن وجود محبوب على وجه الأرض يجعلها أقل عدواناً، وأكثر خيراً، فى نظر الطاهر ود الرواسى، ضحك وقال، وهو يضحك :

«محبوب حاجة تانية. محبوب معمول من طينة غير»

ثم سكت وكان واضحاً لى أنه لا يريد وقتها لأن يقول أكثر فى ذلك الموضوع بالذات. بعد مدة سألته:

«عبد الحفيظ قال إنك ما دخلت الجامع فى حياتك أبداً. صحيح؟

– مرة واحدة بس دخلت الجامع.

– ليش ؟ وعلشان إيش ؟

– مرة واحدة فقط. كان شتاء من الشتوات. طوبة أو أمشير، والله أعلم.

قلت له:

– كان فى أمشير، بعد ما دفنتم مريم بالليل.

– صحيح. عرفت كيف؟

– كنت معاكم موجود.

– وين؟ ما شفتك ذاك الصباح، مع أن البلد اجتمعت كلها يومذاك فى الجامع؟

– كنت عند الشباك أظهر وأبين لحد ما قلتم ولا الضالين آمين.

– سبحان الله. الرجل الغريب. محيميد المسكين كان يصرخ ويقول «الرجل الكان هنا راح وين؟».

– وبعدين؟

فجأة طائر الأحلام طار. اختفى ود الرواسى، واختفت «ود حامد» بكل تلك الاحتمالات. وحيث كان يجلس رأيت الرجل القبرصى، سمعت صوته فانقبض قلبى. سمعت الصراخ والضوضاء وارتطام الماء بجوانب المسبح، وتشكلت الأشباح على هيئة نساء عاريات ورجال عراة وأطفال يتقافزون ويتصايحون. وكان الصوت يقول:

« أدفع فى هذه خمسين جنيهاً استرلينيًّا فقط».

ضغطت عينى لأصحو أكثر ونظرت إلى السلعة المعروضة فى السوق. كانت تلك المرأة. كانت تشرب عصير برتقال، فى اللحظة

التى قال فيها الرجل القبرصى ما قال، شرقت، واختفت، وهب إليها الرجل وهبت المرأة، وجاء الخدم والسعاة، واجتمع الناس، وحملوها مغشيًّا عليها، وكأنما ساحر أشار بعصاه السحرية، فإذا بالناس، كما خيل لى، قد إختفوا فجأة، والظلام أيضاً كأنه كان على مقربة ينتظر إشارة من أحد، نزل دفعة واحدة. أنا والرجل القبرصى، وحدنا، والضوء يلعب ألاعيبه على صفحة الماء. قال لى، بين النور والظلام:

«بنتان أمريكيتان وصلتا هذا الصباح من نيويورك. جميلتان جدًّا، وثريتان جدًّا. واحدة فى الثامنة عشرة وهى لى، والثانية فى الخامسة والعشرين وهى لك. أختان، تملكان فيلا فى كابرينيا. عندى سيارة. لن تكلفك المغامرة شيئاً. اسمع كلامى. لونك سيعجبهن جدًّا».

كانت الظلمة والضوء يتصارعان حول المسبح وعلى سطح الماء، وكان صوت الرجل القبرصى كأنما يزود جيوش الظلام بالسلاح، لذلك أردت أن أقول له فليكن، ولكن صوتاً آخر يخرج من حلقى، دون إرادتى، قلت له، وأنا أتابع الحرب الدائرة على صفحة الماء:

« لا، أشكرك. لم أحضر إلى نيقوسيا بحثاً عن هذا. جئت لأتحدث إلى صديقى الطاهر ود الرواسى فى هدوء، لأنه رفض أن يزورنى فى لندن، وأعيانى لقاؤه فى بيروت».

ثم إلتفت إليه، ويا هول ما رأيت. أنا واهم أم حالم أم مجنون؟ جريت، جريت لائذاً بالجمع فى مشرب الفندق. طلبت شراباً ما، وشربته، لا أذكر مذاقه، وشربته لا أعلم ماذا كان. هدأ روعى

قليلا. ولكن الرجل القبرصى جاء وجلس معى. كان يقفز على عكازين. طلب كأساً من الوسكى، دبل. قال إنه فقد ساقه اليمنى فى الحرب. أية حرب؟ حرب من الحروب، ماذا يهم أية حرب؟ تهشمت ساقه الخشبية هذا الصباح. صعد جبلا. ينتظر ساقاً جديدة من لندن. صوته إنجليزى أحيانا، وتشوبه لكنة ألمانية أحياناً، ويبدو لى فرنسيًّا أحياناً، ويستعمل كلمات أمريكية:

– هل أنت....؟

– لا لست أنا. بعض الناس يحسبوننى إيطاليًّا وبعضهم يحسبوننى روسيًّا، وبعضهم ألمانيًّا... إسبانيًّا... ومرة سألنى سائح أمريكى هل أنا من بسوتولاند. تصور. ماذا يهم من أين أنا؟ وأنت يا صاحب السعادة ؟

– لماذا تقول لى يا صاحب السعادة ؟

– لأنك أنسان مهم جدًّا.

– ما هى أهميتى ؟

– إنك موجود اليوم ولن تكون موجوداً غداً... ولن تتكرر.

– هذا يحدث لكل إنسان، ما أهمية ذلك ؟

– ليس كل إنسان مدركاً. أنت صاحب السعادة تدرك موضعك فى الزمان والمكان.

– لا أعتقد ذلك.

شرب الكأس دفعة واحدة، ووقف على ساقين سليمتين، إلا إذا كنت واهماً أو حالماً أو مجنوناً، وكان كأنه الرجل القبرصى.

انحنى بأدب متصنع جدًّا، وكان وجهه كما رأيته على حافة البركة يجعلك تحس أن الحياة لا قيمة لها، وقال :

« لا أقول وداعاً، ولكن إلى اللقاء يا صاحب السعادة».

كانت الساعة العاشرة حين دخلت فراشي. تحايلت على النوم بوسائل شتى، وكنت متعباً سبحت طول اليوم. حاولت التحدث إلى الطاهر ود الرواسى.. سألته عن قصة زواجه من فاطمة بنت جبر الدار. سألته عن حضوره صلاة الفجر فى ذلك اليوم المشهود. سألته عن ذلك الغناء الذى كان يعقد ما بين الضفتين بخيوط من حرير، بينما كان محيميد المسكين يضرب فى اليم ملاحقاً طيف مريم. لكنه لم يجب. لم تسعفنى الموسيقى، ولم تسعفنى القراءة. وكان يمكن أن أخرج، أذهب إلى ملهى، أو أتمشى، أو أجلس فى مشرب الفندق. لا حيلة لى. ثم بدأ الألم. خدر خفيف فى أطراف أصابع القدمين، أخذ يزحف تدريجيًّا إلى أعلى حتى كأن مخالب رهيبة تنهش البطن والصدر والظهر والرأس، وكأن نيران الجحيم اشتعلت مرة واحدة. كنت أغيب عن الوعى ثم أفيق. ثم أدخل فى دوامة رهيبة من الآلام والنيران، والوجه المرعب يتراءى لى بين الغيبوبة وشبه الوعى، ينط من مقعد إلى مقعد، يختفى ويبين فى أنحاء الغرفة. أصوات لا أفهمها تجىء من المجهول، ووجوه لا أعرفها، مكشرة، قاتمة. ولم تكن لى حيلة. كنت واعياً بطريقة ما، ولكن لم تكن لى حيلة أن أرفع سماعة التليفون أطلب طبيباً، أو أنزل إلى الاستقبال فى الفندق أو أصرخ مستغيثاً. كانت حرباً شرسة صامتة بينى وبين أقدار مجهولة. ولابد أننى إنتصرت

نوعاً من الإنتصار، لأننى صحوت على دقات الساعة الرابعة صباحاً. والفندق والمدينة صامتين. إختفت الآلام إلا من إحساس بالإعياء وإحساس بيأس شامل، كأن الدنيا بخيرها وشرها لا تساوى جناح بعوضة. بعد ذلك نمت. فى التاسعة صباحاً، حلقت الطائرة الذاهبة بى إلى بيروت فوق نيقوسيا، فبدت لى مثل مقبرة قديمة.

فى مساء اليوم التالى فى بيروت دق جرس الباب، وإذا امرأة متشحة بالسواد تحمل طفلا. كانت تبكى وأول جملة قالتها:

«أنا فلسطينية. ابنتى ماتت».

وقفت برهة أنظر إليها، لا أدرى ماذا أقول، ولكنها دخلت وجلست وقالت:

«هل تتركنى أرتاح وأرضع الطفل؟».

بينما هى تحكى لى قصتها دق جرس الباب. أخذت البرقية وفتحتها، وكانت المرأة الفلسطينية تحكى لى أنباء الفاجعة الكبرى، وأنا مشغول عنها بفجيعتى. قطعت البحار والقفار، وكنت أريد أن أعلم قبل أى شىء، متى مات وكيف مات. أخبرونى أنه عمل فى الحديقة فى حقله كعادته فى الصباح، وعمل الأشياء التى يعملها عادة فى يومه. لم يكن يشكو من شىء. دخل دور أقربائه، وجلس مع أصدقائه هنا وهنا. أحضر بعض التمر فى نصف نضجه وشرب به القهوة. ورد اسمى فى حديثه عدة مرات، وكان ينتظر قدومى بفارغ الصبر لأننى كتبت له أننى قادم. تعشى خفيفاً كعادته، وصلى صلاة العشاء، ثم جاءته نذر الموت نحو الساعة العاشرة قبيل صلاة

الفجر فاضت روحه، وحين كانت الطائرة من نيقوسيا إلى بيروت، كانوا فرغوا لتوهم من دفنه.

وقفت على قبره وقت الضحى، وكان الرجل القبرصى جالساً على طرف القبر، فى زيه الرسمى، يستمع إلى وأنا أدعو وأبتهل، قال لى بصوت كأنه ينبع من الأرض والسماء، ويحيط بى من النواحى كافة:

«لن ترانى على هذه الهيئة إلا فى آخر لحظة،حين أفتح لك الباب، وأنحنى لك بأدب، وأقول لك «تفضل يا صاحب السعادة». سوف ترانى فى أزياء أخرى مختلفة. قد تلقانى على هيئة فتاة جميلة، تجيئك، وتقول لك إنها معجبة بأفكارك وآرائك، وتحب أن تعمل معك مقابلة لصحيفة أو مجلة. أو على هيئة رئيس أو حاكم يعرض عليك وظيفة يخفق لها قلبك. أو على هيئة لعبة من ألاعيب الحياة تعطيك مالاً كثيراً لم تبذل فيه جهداً. وربما على هيأة جمهور ضخم يصفق لك لسبب لا تعرفه. وربما ترانى على هيأة بنت تصغرك بعشرين عاماً، تتشهاها، تقول لك نذهب إلى كوخ منعزل فى الجبل. احترس. لن يكون أبوك موجوداً فى المرة القادمة ليفديك بروحه. احترس. الأجل مسمى، ولكننا نأخذ بعين الاعتبار المهرة فى اللعب. احترس فإنك الآن تصعد نحو قمة الجبل».

ولما تيقنت أنه كان ذلك اليوم فى نيقوسيا يفاضل بينى وبين أبى، وأنه اختار أفضلنا بكيت الدموع التى ظلت حبيسة طول ذلك العهد، بكيت حتى نسيت الموت والحياة، والرجل القبرصى.

• محمود البدوى

الباب الآخر

اختارت قطار الساعةالثامنة صباحا الذى لا يقف على المحطات التى فى الطريق، ويتحرك إلى «الإسكندرية» مباشرة. كما اختارت مقعدا مفردا فى القطار، حتى لا يجلس بجانبها رجل ولا امرأة.

كانت تود أن تذهب إلى مدينة الإسكندرية وتعود فى صباح اليوم التالى، دون أن يشعر بغيابها عن القاهرة إنسان، كما اعتادت أن تفعل ذلك فى المرات السابقة..

وفى صالة المحطة الخارجية، وقفت فى زحمة الركاب، تتطلع إلى اللوحة المضيئة التى تعين رصيف القطار المسافر.

وكانت ترتدى معطفا كحليا على ثوب من الصوف الغامق محكم النسج. ومن أحدث طراز. وتدير على رأسها وعنقها وشاحا أزرق. تتقى به برد الصباح فى القاهرة، ومن احتمال سقوط المطر فى الإسكندرية.

ومن خارج الوشاح. بدت خصلات من الشعر الأسود الناعم تتدلى على الجبين المتألق.. وأخذت العينان الواسعتان تتطلعان إلى اللوحة فى بريق يتوهج لحظات ثم ينطفىء فى أسى، تبعا للجو المحيط كله.

وكانت الأنفاس رغم البرد الشديد هادئة، والوجه جميل التقاطيع، أبيض مستديرا والشفة ممتلئة وشهية.

ووضعت على العينين نظارة شمس أنيقة، رفعتها وطوتها وهى تفكر.. ثم عادت وردتها إلى أنفها، بعد أن أدركت أنها لا مكان لها فى حقيبة اليد الصغيرة، ولم تكن تحمل أية حقيبة سواها.

تعمدت أن تكون خفيفة فى رحلتها وفى تحركها.

- وعندما دخل القطار يتهادى إلى الرصيف.. وجلست على مقعدها المفرد، شعرت ببعض الإرتياح. كان المقعد فى وسط العربة، والمسافرون من رجال الأعمال الذين فاتهم قطار السابعة صباحا، وقد جلسوا فى سكون يقرأون صحف الصباح، أو يقلبون أوراقهم الخاصة.

وأحست بدفء العربة المكيفة، فأزاحت الوشاح عن رأسها وطوته.. وأخذت تنظر من النافذة عن يمينها، ثم خشيت أن يبصرها من الرصيف إنسان تعرفه وهى داخل العربة. فأسدلت ستار النافذة بحيث ترى هى من يتحرك بالخارج ولا يراها.

ولما تحرك القطار تنفست الصعداء، فإن أحدا ممن تعرفهم لم يلتق بها فى الطريق، وستكون فى الإسكندرية بعد ساعتين وثلث الساعة، وستعود للقاهرة فى أول قطار يتحرك فى الصباح، فى الساعة السادسة صباحا ستأخذ أول قطار. وستكون فى بيتها فى الساعة التاسعة والنصف، تشرب الشاى على مائدتها كما اعتادت أن تشرب.. وفى الساعة العاشرة ستفتح الباب للشغالة العائدة بعد إجازة يوم قضته عند أهلها.

وخرج القطار من مساكن «شبرا» إلى مزارع البرسيم والخضرة على الجانبين، وشعرت براحة أكثر، ولاحظت أن معظم الرجال

الجالسين معها فى العربة فى سن مقاربة، ويرتدون البدل الصوفية، ومعهم حقائب خفيفة وضعوها على الرف، ولم يكن بالعربة على طولها أكثر من أربع سيدات غيرها هى..

وكانت غالبية الركاب تدخن، فضايقها هذا بعض الشىء، وضايقها أكثر أن الرجل الجالس إلى اليسار، فى الصف الذى أمامها، أخذ يدير رأسه إلى الخلف وينظر إليها، فتجاهلت نظراته، وأرخت رأسها على مسند المقعد، وأغمضت عينيها، كأنها تستكمل حاجتها من النوم.

وعندما مر عامل «البوفيه» طلبت فنجانا من القهوة وشربته فى تمهل، وأعطته ورقة بعشرة قروش فلم يرجع إليها الباقى وخجلت أن تطالبه.

وجاوز القطار طنطا، وكفر الزيات، ودمنهور، والمنظر على الجانبين لا يتغير، والمزارع هى هى.. العشب الأخضر، والبيوت، والمداخن، والمساكن الشعبية فى خارج المدن، وقد اسود بياضها وتشقق، وانتشر على شرفاتها الغسيل..

وبعد أن تحرك القطار من محطة «سيدى جابر» شعرت «عفاف» بالخوف.. خافت ألا تجده.. خافت أن يكون مريضا.. خافت أن يكون قد سافر إلى بلدته لسبب طارئ.. خافت من أشياء كثيرة تحدث فى الحياة، وتمنع من اللقاء.

كانت تفضل لو جاء إلى القاهرة الواسعة كالمحيط، ولكنه كان عنيداً.. ولهذا خضعت لرغباته وسافرت، وسافرت...

كانت تسافر إليه فى الشهر مرة، وأحيانا مرتين كلما واتتها الفرصة، وسنحت الأحوال فى أثناء غياب زوجها بالخارج.

وفى محطة «مصر» ارتعدت وهى تسير وحدها على الرصيف.. أحست بأن العيون كلها تلاحقها، وتحدق فيها، وتعرف وجهتها.

وركبت «تاكسى» سريعا.. وعلى باب العمارة نزلت وهى نصف شاردة.

وكانت العمارة على الكورنيش، والجو باردا، والشمس وراء السحاب، ولم تجد البواب فى المدخل، وركبت المصعد إلى الدور الثامن.

وفتحت باب الشقة بمفتاح فى حقيبتها. ودخلت الشقة الصغيرة... شقة العازب التى رتبتها له، واختارت أثاثها، وزينت جدرانها بالصور.. ولكنها كلما فارقتها وبعدت عنها، عادت الفوضى إلى الشقة.. إلا أنه فى هذا اليوم الذى يعرف فيه أنها قادمة حاول قدر المستطاع تنظيفها، وترتيب ما بها من أشياء...

وفتحت «عفاف» النافذة، ونظرت إلى البحر، وتطلعت إلى السماء.. سحب رمادية كثيفة تحجب الشمس مرة أخرى...

الجو بارد وغير مشمس، ولكنه جميل، وعندما دخلت الشقة، وأغلقت عليها الباب شعرت بالراحة... شعرت بالأمان. الخوف الذى انتابها فى الطريق ذهب عنها الآن..

وكان جو البيت كله يوحى بأن أنفاس «رأفت» حبيبها لا تزال تتردد فيه.

وأخذت فى حيوية ونشاط تنظف البيت، وترتبه على مزاجها.. إنها لم تفعل ذلك فى بيتها فى القاهرة..

هنا تحس بأن كل خلجات جسمها تتحرك وتدفعها إلى العمل فى بهجة... وهناك تشعر بالضجر والسآمة والملل والفراغ... وكل هذه الأشياء قاتلة ومخربة للنفس.

وبعد أن نظفت الشقة كلها ونسقتها، أشعلت السخان، وأخذت حماما.. وأحست بعده بالنشاط والبهجة..

واستلقت على السرير، وأحست «برأفت» وهو يفتح الباب الخارجى ويدخل.. وظلت متناومة حتى شعرت بأنفاسه على وجهها، وشفتيه على شفتيها...

كانت تشعر بالحاجة إلى هذا الحب، وكانت تسعى إليه بجسمها وروحها.. كانت تقتل السآمة التى تخرب روحها، كانت تقتل الفراغ...

كانت تسافر إليه، وهى تشعر بالفرحة، لأنها أسعدته، وهو فى حاجة إليها.

وفى الليل استيقظت، وخرجت إلى المطبخ لتعد طعام العشاء... ظلا معا ما بقى من النهار وبعد الغروب ناما. وأيقظها الجوع.

أشعلت الموقد وفتحت نافذة المطبخ الوحيدة، فرأت النافذة المقابلة مفتوحة وهناك شخص يتحرك مثلها فى المطبخ... كانت هذه النافذة مغلقة كلما جاءت إلى الإسكندرية، وكانت تجد الباب المقابل لباب «رأفت» دائما مغلقا.. وقال لها «رأفت» فى المرات

السابقة إنها شقة أسرة أجرتها لتصيف فيها ولكن منذ سنتين لا يراها تأتى فى صيف ولا شتاء.

ولكن فى هذه المرة وجدت «عفاف» النافذة المقابلة فى المطبخ مضاءة ومفتوحة... ورأت شابا يتحرك ثم يطل من النافذة ويحدق فى وجهها... إنها تعرفه ويعرفها.. وظل ينظر إليها، وظلت هى واقفة فى مكانها مسمرة، تنظر إليه فى جمود، رغم هبوب الريح.

ظلت واقفة صامتة، وهى تعرف معنى نظراته الساحرة التى تعريها من قميص نومها..

كانت الريح تأتى من البحر عاصفة، وتسمع هياج البحر ودوى الريح.. وكانت تستطيع بإرادتها أن تغلق النافذة ولكنها تركتها مفتوحة.. كانت تستطيع بإرادتها أن تخرس نظراته، ولكنها وجدت إرادتها مشلولة.

لأول مرة فى حياتها تشاهد عينين تنظران إليها بوقاحة وقوة.. وهى فى بيت غير بيتها، وفى فراش غير فراش الزوجية.

نظرت إلى السماء وهى ترتد عن النافذة فوجدتها ساقطة النجوم حالكة...

وأعدت المائدة وهى أشبه بالمنومة مغناطيسيا... كانت تتحرك من غير إحساس بكل ما حولها.

ونهض «رأفت» عن المائدة. ورفعت ما عليها.

وجلسا يتحدثان، ولم يلاحظ شرودها.. وعاد إلى الفراش... وكان جسمها فى برودة الثلج وروحها ضالة...

وتناومت حتى استغرق «رأفت» فى النوم.. وظلت «عفاف» وحدها ساهرة تسمع البحر والريح.

* * *

تمددت بجواره على السرير وهى تشعر بالخوف. فارقتها حرارة وجوده بجوارها، وفارقتها أنفاسه. وشعرت بالخوف والرعب.

أحست بأنها باردة جامدة متصلبة... نهضت فى حذر... كانت الشقة غارقة فى الظلام فأشعلت نور الحمام لكيلا توقظ «رأفت» وإذا استيقظ يتصورها فى الحمام.

وتحركت بلين وخفة وهى عارية القدمين بقميص نومها. وفتحت الباب بحذر بعد أن وضعت فى يدها المفتاح، وأغلقته وراءها بحذر شديد كذلك.

وقبل أن تضغط على جرس الباب الآخر كان الشاب قد فتح الباب.. وكان يعرف أنها قادمة ولابد أن تلبى النداء... كان خيالها المريض يصور لها أنها ستخرسه وتعمى عينيه.. ولكنها كانت تسقط، وتسقط...

واحتواها بذراعه فى صمت. وأغلق الباب.

[من: الباب الآخر وقصص أخرى ١٩٧٧]

• عبد الحميد بن هدوقة

المغتربُ

– اركب !

– لكن يا سيدى هذا المطعم لى وأنا صاحبه...

–قلت لك اركب ولا تتكلم !

– لكن... لم أعمل شيئا مخالفا للقانون، لم أقترف ذنبا.

– كفى كلاما، عندما تصل الى المركز اشرح للمحافظ حقيقتك.

– أرجوك لحظة، أوصى فيها على المحل أحد مواطنى.

– إنك أكثرت الترجى... اركب وإلا اضطررت لاستعمال العنف.

ركب «مولود» سيارة الشرطة مع غيره من العمال الجزائريين وسيقوا الى مركز الشرطة دون أن يعرفوا السبب، وفى الواقع لم يكن أحد من أولئك العمال يستغرب هذه الحادثة، فهم قد تعودوا ذلك، منذ وطئت أقدامهم فرنسا.

أما «مولود» فقد كان فى أشد الحيرة والاضطراب، فهو يعتبر نفسه ليس كبقية العمال، إنه تاجر، صاحب مطعم رقم ١١٨ شارع قابريال بيرى فى سانت وان من ضواحى باريس. فلو كان عاملا كغيره من العمال لهان الأمر، ولكنه ليس كالآخرين، ثم ترى ماذا سيقع لمحله أثناء تغيّبه هذا؟ إنه لم يستطيع حتى توصية من يخلفه

فى تسييره. بل لم تمنح له الفرصة حتى لغلقه! وهذا غير معقول.. غير معقول !

وخاطب رفاقه فى السيارة :

– غير معقول، أن أُساق هكذا! أنا تاجر، صاحب مطعم، غير معقول أن أعامل هكذا.. غير معقول! غير معقول! لو وقع حادث فى المحل أثناء غيابى، ترى من المسئول؟ أنا المسئول طبعا، صاحب المحل هو المسئول دائما.

نظر إليه أحد العمال مليا وبسمة ساخرة تعلو شفتيه، ولكنه لم يجبه بكلمة ولا هو ولا غيره، ولم يكن «مولود» ينتظر من أحد جوابا فهو لم يكن مثلهم مجرد عامل بسيط، إنه تاجر، صاحب مطعم ١١٨ شارع قابريال بيرى. من ذا الذى – من عمال الناحية – لا يعرف «١١٨»؟ من ذا لم يأكل كسكسيَّه[1] اللذيذ؟ بل من ذا لم يغازل يوما، ولو فى خياله، الفتاة العاملة «كوليت» ؟

كان هذا المطعم مشهورا بثلاثة: «كوليت» العاملة الفرنسية اللطيفة، و«مولود»[2] صاحب المطعم ذو القبعة البوهيمية والمنديل الحريرى الأحمر الذى لا يفارق عنقه، والكسكسى اللذيذ، وكانت تجارته رابحة وقصاده كثيرون، ليس من العمال الجزائريين فقط بل حتى من الأجانب هواة الكسكسى.

(١) إحدى الأكلات الشعبية فى أقطار المغرب العربى.
(٢) اسم من الأسماء الدارجة.

واصلت السيارة السوداء طريقها الى المركز تشقه بصفارتها شقا، وواصل مولود احتجاجه وتذمره من هذه المعاملة السيئة التى سُوِّىَ فيها بين تاجر مشهور وعمال ثكرات!

– «أقاد هكذا الى مركز الشرطة بدون سبب؟ غير منطقى، غير معقول! جمع الناس بهذه الصورة وحشرهم فى سيارة سوداء عرفناه أيام الثورة، أما الآن فما السبب؟ غير معقول، البارحة فقط تناول الطعام عندى المفتش «راؤول» البارحة فقط، آه لم يسمحوا لى حتى بأن أوصى على المحل، قال لى: «اركب ولا تتكلم» شرطى بسيط! قال لى! أرأيتم أيها الأخوة! شرطى بسيط يأمر صاحب محل بهذا الأسلوب! مع أنى لم أعمل شيئا، ولم يقع فى محلى ما يستحق هذه المعاملة. لم يعلم أحد بسبب لمجيء الشرطة ولا بوقت مجيئها، وقفت السيارة أمام الباب، ونزلت الشرطة شاهرة فى وجوهنا أسلحتها وقالت: «الجميع الى السيارة»!

كان من حقهم أن يسألوا عن هويات الناس، أن يطلبوا أوراق التعريف ويأخذوا المشتبه فى أمره.

أما أن يحشروا الناس هكذا، حشرا فى سيارتهم فغير معقول وغير منطقى.. الثورة انتهت منذ سنوات، والجزائر مستقلة، كل الناس يعرفون هذا، فلماذا جمع الناس بهذه الطريقة المتغطرسة؟ إن لم يريدوا رؤية الجزائريين فى أرضهم كان عليهم أن يتفاهموا مع حكومتنا، لا أن يجمعونا هكذا كالأغنام، كالمجرمين، غير معقول! أن يستمر حقدهم علينا إلى هذا الحد، والثورة المسلحة قد انتهت منذ سنوات».

وصلت السيارة إلى المركز، وأنزل العمال منها بأعقاب البندقيات. وحشروا فى أحد الممرات حشرا. حيث لم يكونوا فيه وحدهم. فقد كانت هناك مجموعات أخرى من العمال جيء بهم من مختلف الضواحي، وكانت ظروف إيقافهم ونقلهم الى المركز مماثلة: تقف السيارة أمام المقهى وتحاصر الشرطة من فيه، ثم تأمرهم بالركوب وتقودهم الى المركز حيث تفرغهم فى ذلك الممر الطويل الذى يشبه الدهليز، وهناك ينتظرون الساعات الطويلة قبل أن يشرع فى التحقيق معهم، وكانوا أحيانا يقضون الليلة والليلتين ثم يطلق سراحهم، دون أن يتعرضوا لأى تحقيق. وغاية هذه العملية هى غالبا إشعار الجزائريين بأنهم غير مرغوب فيهم، على الأقل من طرف الشرطة.

كان مولود واقفا إلى جانب شخص جيء به إلى هناك قبله، تظهر عليه علائم الترف، فخاطبه قائلا:

– أرأيت؟ إنهم لا يفرقون بين عامل وعاطل وتاجر! لم يسمحوا لى حتى بغلق المحل. حاولت عبثا أن أفهمهم أنه لا يمكننى أن أدع المحل وحده، إنهم يسلكون معنا سلوكهم إزاء المجرمين، بيد أن الجزائر مستقلة منذ سنوات، والحرب بيننا وبينهم قد انتهت، ومع ذلك فالجزائرى هو الجزائرى فى نظرهم.

ومضى يروى قصته من جديد: وصلوا عند الساعة الثامنة فى الوقت الذى كان فيه المحل مكتظا بالناس، أغلبهم لم يتناول طعام العشاء، وساقونا إلى هنا كالبقر تماما. فى الواقع لو كنت عاملا كسائر العمال أو عاطلا لهان الأمر، ولكنى تاجر يا أخى، مسئول

عن محل يشتمل على مقهى ومطعم وغرف للنوم. وأنا وحدى. هل تستطيع «كوليت» أن تقوم بكل شيء فى غيابى؟ كلا. ثم إنها ليست زوجتى، وهى معى، عرفتها وأنا عامل بمعامل «سيطروين»، ولكنها لا تستطيع أن تعمل شيئا فى غيابى. امرأة عاملة لا تستطيع تولى مسؤولية تسيير محل، لم ينبس الرجل بكلمة فسكت مولود قليلا ثم استأنف قائلا :

– «أعرف أنهم سيطلقون سراحى بعد أن يطلعوا على هويتى. ولكن... ولكن الطريقة التى ساقونى بها منافية لكل القوانين! أنا تاجر يا أخى، ومحلى يعرفه العام والخاص، حتى الشرطة تعرفه. من بين زبائنى مفتش شرطة اسمه راؤول، يأتى دائما للمطعم لتناول طعام العشاء أو الغداء هو ورفاقه، ومع ذلك ساقونى هكذا كبقية الناس، أليس هذا مثيرا؟ لم يروا أوراقى ولا أى شيء، أقضى الليل هنا أو فى مكان آخر لا يهم، ولكن المحل تركته وحده. ماذا تستطيع أن تفعل «كوليت» فى غيابى؟ ثم ماهو أهم: المسؤولية! لو وقع فى غيابى حادث فى المحل، ترى من المسؤول عن ذلك؟ هو أنا طبعا، أنا المسؤول، لأنى أنا صاحب المحل. «كوليت» عاملة ليست مسؤولة.. ليست زوجتى على كل حال. كثير من الزبائن يظنونها شريكتى لأنها تتولى الصندوق المالى ولكنها فى الواقع عاملة فقط. وليتها المسائل المالية لأنها تتقن الحساب، ولأنها ثقة، عرفتها منذ سنوات. مسألة هى ثقة لا شك فى ذلك. صدقنى يا أخى، إننى أعرف من أثق فيه ومن لا أثق».

– «سيدى المحافظ أؤكد لك...»

– أوراقك.

– «قلت لك يا سيدى تركتها فى درج المكتب بالمحل»

– ماذا تعمل ؟

– «أنا سيدى المحافظ، صاحب مقهى، مطعم، فندق «... أنا علالى مولود صاحب محل ١١٨ شارع قابرييل بيرى، سانت وان، المفتش راؤول وزملاؤه يعرفوننى جيد المعرفة، يأتون لتناول الكسكسى عندى، تستطيع أنت أيضا أن تأتى سيدى المحافظ لتناول الكسكسى، تستطيع أن تأتى متى شئت ستجد لدينا كل حفاوة، يجب أن تأتى الي ١١٨ سيدى المحافظ.

– «متى دخلت إلى فرنسا ؟»

– «متى دخلت إلى فرنسا.. منذ إحدى عشرة سنة، دخلت فى سنة ١٩٥٩».

– «أين كنت تشتغل ؟».

– «فى معامل «سيطروين» سيدى المحافظ»

– «أعندك كشوف الأجرة».

– «لست أدرى أين احتفظت بها، لاشك أن هناك كشوفا باقية فى أوراقى بالبيت».

– «منذ متى وأنت عاطل عن العمل».

– «لكن يا سيدى المحافظ، لست بطالا، أنا أعمل، أنا صاحب محل، كما قلت لك.»

– «متى توقفت عن العمل فى معامل «سيطروين؟».

– منذ سنة تقريبا.

– «ومن أين جئت بالأموال التى اشتريت بها مقهى ومطعما وفندقا؟»

– «لم أشتر هذا المحل، اكتريته فقط.»

– «من أين جاءتك الأموال لاكتراء محل مثل هذا ؟»

– من العمل سيدى المحافظ، من عرق الجبين، اقتصدت طوال السنوات الماضية لأستطيع اكتراء محل.»

– أنا لى عشرون سنة فى الشرطة، ولم أستطع توفير ما أكترى به شقة فى فندق، فكيف استطعت أنت توفير كل هذه الأموال؟»

– «لكن سيدى المحافظ، أنت لا تستطيع أكل الخبز والبطاطس سنوات».

– «لست أضحك معك. لاشك أنك سرقت هذه الأموال وإلا فأجرتك كلها لا تمكنك من اكتراء محل كالذى تتحدث عنه!».

– «كيف أسرق أنا؟ أؤكد لك سيدى المحافظ أننى عامل نظيف!»

– «هل لديك ما يثبت أقوالك».

– «اسأل عنى رئيس قسم الدهن فى معامل «سيطروين» سوف يجيبك بأنى كنت من العمال المتفانين فى عملهم.

– «هذا كلام لا معنى له. فإن لم يكن عندك ما يثبت اكتساب الأموال التى اكتريت بها المحل فإنك سارق».

– «أؤكد لك سيدى المحافظ، لم اسرق أحدا فى حياتى. وإذا أعطيتنى فرصة فسوف آتيك بكل الحجج التى تثبت صحة كلامى.»

– «طيب، عندما تصل إلى الجزائر، هيىء حججك للمطالبة بحقك».

– «الجزائر سيدى المحافظ؟... ولك... محلى... أوراقى، حساباتى، أموالى...»

– «هيا أغرب عن وجهى... شرطى! الذى بعده...»

واصل المحافظ استنطاق العمال الآخرين بنفس الطريقة ونفس التهكم أما مولود فقد نزلت عليه كلمة الرجوع إلى الجزائر نزول الصاعقة. إن كل السنوات التى قضاها بفرنسا كان وراءها هذا الحلم المتمثل فى اكتراء محل وامتهان التجارة. ولما تحقق الحلم وصار تاجرا وجد نفسه أمام هاوية!

كم عد أيامه وساعات تلك الأيام. وهو مغمور بدهن السيارات وبغازاته السامة! كم بات على الطوى، وكم حمل نفسه مالا تطيق وألزمها من ظروف قاسية ليوفر من أجرة يومه ما يريحه فى غده! فرح رفاقه من العمال بعطلهم الاسبوعية ولهوا ما وجدوا إلى اللهو سبيلا، وكبح هو نفسه عن كل جنوح إلى اللهو وتبذير المال. أكل رفاقه وشربوا ما حلا لهم وألزم نفسه بأن تقنع بالضرورى من العيش، والساتر من الملبس. وكان راضيا بحياته تلك، مغتبطا بها، حتى جاء اليوم الذى تيسر له فيه اكتراء هذا المحل، وأصبح تاجرا حرا، وأصبحت حياته ذات محتوى وقد حقق ما كان يصبو إليه، ولكنه نسى شيئا واحداً، وهو أنه جزائرى يحيا فى أرض ليست أرضه، وتحت حكم سلطة لا تعرف معنى لقانون أو مبدأ إذا كان الأمر يتعلق بالجزائريين.

خاطب مولود شخصا كان إلى جانبه قائلا فى تذمر يائس:

– «أعود إلى الجزائر هكذا... بدون أن أضبط شؤونى وأبيع المحل، وبدون أن آخذ حتى ملابسى ودراهمى؟ أليس هذا هو الظلم الأحمر؟ إننى تاجر، لست لصا ولا عاطلا عن العمل ومع ذلك أطرد بهذه الصورة، أعود إلى الجزائر ولا أملك حتى ثمن خبزة؟ أصبح متسولا فى الطرقات، وأموالى أتركها للضياع! خمسة عشر عاما من الأعمال المرهقة والتقتير لأصبح متسولا! أليس هذا هو المنكر بعينه؟ يا حسرتاه لو ظننت أنى سوف أطرد بهذه الصورة لما فكرت فى عمل ولا فى تجارة، بل لكنت قمت بكل الأفعال الشنيعة، ما الفرق بينى وبين أى مجرم، ما الفرق؟ قل لى بالله! جمعت الثمن الذى اكتريت به المحل فرنكا فرنكا طوال خمسة عشر عاما، والنتيجة ماذا؟ ذهب نهر السين بما قترته على نفسى! يا إلهى! كيف افعل بنفسى عندما أنزل بالجزائر؟ ماذا أقول للناس؟ من يصدق قصتى؟ يا إلهى!»

واستمر مولود فى أحاديثه وتحسراته المحمومة، متنقلا من شخص إلى آخر حاكيا قصته، قصة السنوات الطويلة التى أخذت منه جهده وشبابه مقابل أثمان لم يستطع فى النهاية أن ينال منها إلا الحرمان، ولم يكن يصدق أنه سيغادر فرنسا حقا، وبتلك الصورة الى أن أركب القطار المتجه الى مرسيليا من الغد، وعندئذ أدرك أن مأساته لم تكن كابوسا عابرا وإنما هى حقيقة مرة عليه أن يجابهها أحب أم كره، وفتش فى أعماق عينيه عن قطرات دموع ليسيلها حزنا على هذه النهاية، ولكن عينيه كانتا يابستين منذ زمان بعيد، منذ أن قطع كل رسائله وأخباره عن أهله بالجزائر، منذ أن راود خياله حلم التجارة والاستقرار فى باريس.

وقال لنفسه:

«حتى البكاء لا أستطيع أن أبكى، فقدت فى لحظة كل شىء فقدت السرور وفقدت الحزن. أتألم تألما يائسا لاندم ولا حزن فيه، يا إلهى! كيف أقابل معارفى وأهلى؟ أعود الى وطنى عودة المجرم المطرود، لماذا كل هذا يا الهى؟ لماذا ؟.

وتحرك القطار المتجه إلى مرسيليا يحمل عشرات الجزائريين المطرودين من فرنسا، وكل منهم كانت تتراءى له من خلال المناظر المتلاحقة التى تقدمها لهم نوافذ القطار ذكرياته وشبابه الذى تركه وراءه تحت مداخن المعامل السوداء فى مكان ما، بفرنسا!

[مجلة العربى – يونية ١٩٨٠]

• السيد الشوربجى

رجل فى الطابور

انتهى عوض الله من أداء صلاة الجمعة مع المصلين بمسجد السيدة زينب... كان يسير فى الميدان وقت الصلاة... وجد الناس يتوافدون على المسجد بأعداد كبيرة... كل منهم يخلع حذاءه وينفضه ثم يدخل إلى صحن المسجد بعد أن ترك الحذاء لبواب المسجد حارس الأحذية... وقف لحظات يتأمل المنظر... استهواه الموقف.. فتقدم مع الناس وخلع حذاءه وسلمه للرجل إياه ودخل إلى صحن المسجد وأخذ مكانه بين المصلين وجلس فى خشوع يستمع إلى خطيب الجمعة... تذكر أنه لم يتوضأ... هز رأسه بينه وبين نفسه واستمر فى مكانه حتى قامت الصلاة وصلى مع المصلين ثم لما انقضت الصلاة خرج مع الناس إلى الميدان بعد أن أخذ حذاءه ودفع للرجل قطعة من الفضة جعلت الرجل يلهج له بالدعاء والتحية.. فقد كان المبلغ غير معتاد بالنسبة للرجل لأن المصلين لا يدفعون له إلا قطعا من النيكل أو البرونز...

سار عوض الله فى ميدان السيدة زينب متمشيا وأخذ يتجول فى شوارعها دون هدف.. وأفاق على منظر الطابور... وجد طابورا طويلا أمام إحدى الجمعيات التعاونية.. شعر بسعادة واندفع نحو الطابور ودون ان يسأل أخذ مكانه بين الواقفين... الطابور يطول ويطول.. ومع ذلك فأبواب الجمعية كانت مغلقة... لم يحاول أن يسأل...

كان سعيدا منتشيا... رغم أن الوقفة طالت.. وحرارة الزحام بدأت تدب عندما فتحت أبواب الجمعية ووقف مديرها على الباب يدعو الواقفين أن ينظموا أنفسهم حتى يبدأ فى توزيع البونات... وحاول أحد الأشخاص أن يزاحمه ويأخذ مكانه فدفعه بشدة بعيداعنه وتشبث بمكانه وكادت تنشب بينهما معركة لولا تدخل الناس وحضور أمين الشرطة... وعندما تلاشى الطابور أمامه وجاء دوره سأله المدير:

– نعم..

– نعم الله عليك...

صرخ فيه المدير... «عاوز كام؟!».. فسأل: «مش عارف.. انتو بتبيعوا أيه؟...» صرخ فيه المدير: واقف فى الطابور من غير ما تعرف أنت عاوز ايه... فقال بهدوء: «عاوز من اللى بتبيعوه.. أى حاجة..» فكتب له المدير ورقة وأعطاها له... كانت تعليقات الجمهور قد بدأت تنهال عليه بالسخرية... لم يأبه بالتعليقات واندفع مع المندفعين نحو الخزانة... أخرج خمسة جنيهات وقدمها لعاملة الخزانة فأخذت جنيهين وأربعة قروش وردت اليه الباقى وأخذ البون وأسرع مع المسرعين إلى حيث اتجهوا وجد نفسه أمام الجزار... والخراف المجمدة معلقة.. أشبه بجثث الموتى فى أكفانها... لكنها أكفان من الشحم والدهن.. والجزار يضرب فيها بالساطور ويزن ويلف فى الورقة بسرعة ديناميكية. حتى جاء دوره.. دفع البون إلى الجزار وتناول الجزار فخذة وهوى عليها بالساطور فقطع نصفها ثم لملم له من لحم البطن والشحم باقى الكمية ولفها فى ورق الجريدة ودفعها إلى صدره ليحتضنها وينصرف...

– نظر إلى اللحم الملفوف الذى يحتضنه وابتسم لنفسه ثم عاود السير فى الطريق وهو يحتضن اللحم بعناية.. ظل يسير حتى وجد نفسه فى ساحة واسعة تحيطها المدافن.. جلس على قطعة حجر كبيرة ليستريح... كانت لفافة اللحم لاتزال فى يده... وجد كلبا يجرى وراء كلبة... أخذ يتفرج على المنظر... وضع ورقة اللحم أمامه على الأرض ثم تناول قطعة كبيرة منها ودفع بها إلى الكلب.. ترك الكلب كلبته وجرى نحو اللحم... وجاءت الكلبة مسرعة وراءه... ثم توافدت الكلاب من كل ناحية وصاحبنا سعيد بالمنظر... تأكد أن اللحم صالح للأكل لأن الكلاب أقبلت عليه بشهية.. فظل يلقى اليها بقطع اللحم قطعة قطعة حتى أفرغ الورقة وأخذ ينظر إليها وهى تنهش اللحم وتتشاجر وتتقاتل حتى انتهت المعركة بانتهاء اللحم...

– فى المساء ارتدى عوض الله أفخر ثيابه ووضع العطر والوردة الحمراء فى جيب الجاكتة وخرج بعد أن قال لوالدته: لو سأل عنى وزير المالية أخبريه أننى سأمر عليه باكر فى الثامنة صباحا... هزت أمه رأسها بهدوء وقالت: حاضر...

– فى قاعة صلاح الدين بفندق الشيراتون كان السفير اليابانى وحرمه وعدد من رجال السفارة يستقبلون المدعوين لحفل الاستقبال الكبير الذى تقيمه السفارة بمناسبة عيدها القومى... تقدم عوض الله بكل الكبرياء والهيبة والعظمة وصافح السفير وحرمه وباقى المستقبلين الذين استقبلوه بترحاب شديد ثم مالوا على بعض، كل منهم يسأل الآخر...أتعرفه..؟ من هذا؟.. لكن عوض الله لم ينتظر

حتى يسأله أحد... كان يوزع ابتسامته على الموجودين.. ويتقدم إلى البعض مصافحا بحرارة... وشرب عددا من كئوس الويسكى وتناول المزة وخاصة من الجمبرى حتى دار رأسه فترك المكان وعاد إلى بيته سيرا على الأقدام.. وجد والدته جالسة تتفرج على التليفزيون مع شقيقته الصغرى.. ألقى عليهما التحية ثم سأل والدته.. ألم يتصل به مكتب رئيس الوزراء.. قالت الأم.. لا.. قال لا يهم.. ثم دخل إلى غرفته حيث خلع ملابسه ونام...

فى مقهى ريش بشارع طلعت حرب جلس عوض الله يشرب القهوة.. اضطجع على المقعد وأخذ يدخن سيجارته بتلذذ واستمتاع.. تراءت إليه أصوات مجموعة من الشبان كانوا يجلسون فى المنضدة المجاورة.. كانوا يتناقشون فى السينما... أخذ يتصنت إلى حديثهم ثم سحب كرسيه واستأذنهم فى أن ينضم إليهم.. تبادلوا نظرات الدهشة.. لكنهم رحبوا به.. ابتسم لهم وسألهم عن مشاكلهم.. قال لهم: إنه صديق شخصى لوزير الثقافة وأنه على استعداد لمساعدتهم.. التف حوله الشبان بفرح وبدأوا يتحدثون عن الفرصة التى يحلمون بها.. قدموا إليه أنفسهم.. اثنان منهم من خريجى معهد السينما قسم الاخراج.. واثنان من خريجى معهد الفنون المسرحية.. واثنان من طلبة الجامعة.. والكل يجمعهم حب المسرح والسينما وأحلام الوصول والنجومية.. أخذوا يحكون له عن أنفسهم ومواهبهم وأفكارهم الجديدة.. وعرض عليه أحدهم فكرة فيلم جديد عن أزمة الشباب المصرى من خلال أزمة الاسكان والبحث عن شقة بدون خلو.. وضحك زملاؤه وقال أحدهم.. بدون خلو إذن سيظل صاحبنا يبحث

إلى يوم القيامة.. وتحدث خريجو معهد المسرح عن أزمتهم هم وشعورهم بالاحباط بعد التخرج وكيف أن الفرص كلها متاحة للوجوه المعروفة فقط بينما الجميع يتجاهلون الشباب والمواهب الجديدة... استمر الشبان يتحدثون ويحاولون كسب صاحبنا إلى قضيتهم وكانوا يتحدثون بحرارة وأمل.. وقبل أن ينتهى الشبان من حديثهم ابتسم لهم عوض الله ثم وقف واستأذن فى الانصراف دون أن يقول شيئا.. وظلوا مشدوهين ذاهلين وهم يتابعونه وهم يبتعد عنهم بخطوات واثقة متعالية حتى اختفى.. وفى ميدان التحرير شاهد جنازة أمام مسجد عمر مكرم فاندمج وسط المشيعين ثم أخذ مكانه فى طابور المعزين وصافح أهل الميت بحرارة...

وفى أحد الأيام وجد طابورا صغيرا أمام أحد المستشفيات.. جذبه الطابور.. أخذ مكانه بين الواقفين.. كانوا خليطا من الرجال والنساء.. سأله أحدهم هل حللت فصيلة الدم.. لم يفهم.. أعاد عليه السؤال.. ابتسم له عوض الله بكبرياء وشموخ وقال نعم.. لم يفهم ماذا يريد هؤلاء الناس وماذا يشترون.. لم تكن هناك جمعية ولا بضاعة.. لاحظ أن كل من يأتى عليه الدور يفتح له باب حجرة يقف عليها تمورجى.. يدخل.. ثم ينغلق الباب وبعد لحظة يفتح الباب ليدخل شخص أخر دون أن يعرف مصير الذى دخل قبله.. وظل عوض الله واقفا فى الطابور.. حتى جاء دوره فدخل.. وجد طبيبا وممرضات وأجهزة ورجلا يمد ذراعه وحقنة طويلة تنغرس فيها لتسحب منها دمه.. شعر برجفة لكنه لم يتراجع سألته الممرضة عن فصيلة الدم فهز رأسه دون أن يجيب أحالته على

ممرضة أخرى سحبت كف يده وغرست أبرة فى أصبعه حتى برزت نقطة دم أخذتها على لوح صغير من الزجاج وطلبت اليه أن ينتظر قليلا. بعد لحظات اعطته ورقة بفصيلة الدم ودفعت به إلى الدكتور الذى تناول ذراعه وغرس فيها الأبرة الطويلة وبدأ فى سحب الدم من شرايينه ببطء واثناء ذلك سألته الممرضة كم لترا تريدنا نأخذ فابتسم لها ولم يرد. قال الدكتور يكفى لتر واحد يبدو أنه مضطرب سحبت الممرضة اللتر ثم اعطته ورقة ودفعت به إلى موظف يجلس قريبا منها أخذ منه الورقة ونظر فيها ثم قدم اليه خمسة جنيهات أخذها دون أن يسأل وخرج من باب خلفى، أدرك فى هذه اللحظة أنه باع دمه بخمسة جنيهات.. وأن هؤلاء الواقفين فى الطابور لم يكونوايشترون هذه المرة وانما كانوا يبيعون.. شعر ببرودة تجتاح اعصابه لم يأبه بشىء وظل يسير.. وجد نفسه أمام يافطة كبيرة مكتوب عليها وزارة التموين.. اقتحم المبنى دون أن يسأل أحداً ودون أن يسأله أحد،، وبكل الشموخ والكبرياء سأل أحد السعاة عن مكتب الوزير اشار له الساعى إلى المكتب.. اتجه مباشرة إليه.. فتح الباب.. وجد نفسه وسط حجرة كبيرة بها عدد من كبار الموظفين.. وبعض الرجال المنتظرين.. تقدم إلى أحد كبار الموظفين وسأله اذا كان الوزير موجودا.

– أيوه موجود..

– إذن – لو سمحت – أريد مقابلته..

– هل هناك موعد سابق..

– لا..

ما هو موضوع المقابلة.

– موضوع شخصى، قل له عوض الله.. نظر له الموظف متفحصا.. كانت ملامحه توحى بالثقة والكبرياء قال له الموظف انتظر سيادتك دقيقة واحدة.

– دخل الموظف إلى مكتب الوزير. كان الوزير منهمكا فى المناقشة مع وكيل الوزارة حول رسالة الخراف المجمدة الجديدة فجأة نظر الوزير لوكيل الوزارة وسأله:

– هل ذقت هذه الخراف..

– أعوذ بالله..

– إننى لم أذقها..

– إذن لماذا تقول أعوذ بالله..

– على أى حال نحن لسنا فى حاجة لتذوقها المهم أن الجمهور يقبل عليها بشراهة. هز الوزير رأسه وقال: فعلا، هذا هو المهم الجمهور هو الذى يهمنا.. وقال الموظف الكبير للوزير هناك من يريد مقابلة سيادتك دون موعد سابق..

– من..

– رجل محترم اسمه عوض الله..

– عوض الله..

حاول الوزير ان يتذكر قال الموظف يبدو أنه صديق شخصى لسيادتك لأنه يقول أنه يريدك فى موضوع شخصى.. فقال له الوزير دعه يدخل..

– ودخل عوض الله.. تقدم نحو الوزير بخطوات ثابتة وابتسامة رقيقة.. أخذ الوزير يتفحص وجهه وهو فى غاية الدهشة.. حينما وصل اليه عوض الله مد يده نحو الوزير مصافحا.. حاول الوزير أن يتذكر لكن عوض الله لم يترك له فرصة أخذ يصافحه بحرارة ويشد على يده.. ثم قال له الواقع اننى كنت أمر أمام باب الوزارة فقلت لنفسى لابد أن أقابل الوزير.

– خيرا.. ما هى مشكلتك..

– لا أبدا ليست هناك مشاكل كل ما فى الأمر أننى أردت أن أراك واصافحك..

– لكن.. من أنت..

– أنا عوض الله..

– عوض الله؟ لكننى لاأذكر أننا كنا أصدقاء..

– ومن قال إننا أصدقاء..

– طلبت مقابلتى لموضوع شخصى..

– فعلا لم يكن لى هدف آخر من المقابلة غير شخصك.. كنت أريد رؤيتك ومصافحتك.. ظل الوزير مشدوها لحظة.. وقام عوض الله.. واستأذن فى الانصراف حتى لا يعطله عن مشاغله ودون أن يرد الوزير أو يأذن له خرج عوض الله وترك المكان والوزير يشيعه بنظرات حيرة وذهول..

– أمام مكتب الوزير وقف له الساعى محييا فابتسم عوض الله واخرج الجنيهات الخمسة التى قبضها ثمنا لدمه ودسها فى يد

الساعى عندما نظر اليها الساعى كاد يسجد امامه من الامتنان والفرحة وظل يسير خلفه ويدعو له حتى خرج..

– آخر المطاف كان فى المدبح.. وجد نفسه اخيرا فى ساحة واسعة يختلط فيها الدم باللحم بالطين.. ومرة أخرى يجتذبه الزحام.. لم يكن طابورا هذه المرة.. لكنه كان تجمعا كبيرا من الناس وثمة صيحات وصرخات، بنت صغيرة ينبعث صوتها من بين الجموع متحشرجا مخنوقا واندفع كالسهم.. أخذ يشق طريقه بين الجموع بيده الحديدية حتى وجد نفسه فى قلب المشكلة.. دكان صغير للجزارة وصاحب الدكان يمسك بفتاة صغيرة يهددها بالساطور إن هى لم تعترف أين ذهبت بالفلوس والفتاة تبكى وتقسم أن الفلوس ضاعت منها ولا تدرى كيف وأين وتقدم عوض الله بهدوء وثقة نحو الجزار.. ومد يده فأخذ الفتاة من بين يديه..

واضطرب الجزار لحظة فترك الفتاة وشعرت الفتاة بالأمان فاندفعت إلى صدر عوض الله وأخذت تبكى وتستنجد به وتطلب اليه أن يخلصها منه وأن يعيدها إلى أمها فى الفيوم فهى لا تريد العمل بعد الآن فى بيت المعلم وابتسم لها عوض الله وطمأنها أنه سيعيدها لأمها.. وأفاق الجزار بعد لحظة المفاجأة الأولى وتقدم من عوض الله يسأله.. ومن سيادتك.. فهز عوض الله رأسه ولم يجب.. ثم أخذ الفتاة من يدها وهم بأن يخرج بها من وسط الجموع.. لكن الجزار أعترض طريقه وقال له لقد أضاعت عشرة جنيهات وأنه لن يتركها حتى ترد اليه المبلغ أو يشرحها بالساطور. حاول عوض الله أن يزبحه بعيدا عن الفتاة.. أقسم الجزار أن يقتلها ويقتله ويقتل

أى شخص يتعرض لحمايتها منه ما لم يسترد الجنيهات العشرة، دفعه عوض الله بشدة ثارالدم فى رأس الجزار وتناول الساطور ثم رفعه فى وجه عوض الله وقال له إن لم تتركها فسوف اشرحك به.. لكن عوض الله لم يهتز.. ظلت الفتاة متشبثة به.. مد المعلم يده ليأخذ الفتاة تحت تهديد الساطور دفعه عوض الله بشدة فهوى الجزار بالساطور على رأس عوض الله فى لحظة مفاجئة خاطفة.. لم ينطق عوض الله.. إنفجر الدم من رأسه.. صرخ الناس بجنون وصرخت الفتاة بهستيريا.. ألقى الجزار الساطور على الأرض واندفع يجرى كالمجنون.. سقط عوض الله جثة هامدة وسط بركة من الدم..

– فى نفس اللحظة من اليوم التالى كان هناك عدد كبير من علية القوم يتجمعون فى سرادق بجوار مسجد عمر مكرم.. ولم يستطع عوض الله هذه المرة ان يمشى فى الجنازة.. لأنه كان محمولا على الأعناق.

[جريدة الأهرام ١٠ ديسمبر ١٩٨٠]

• عـلاء مصطفى

الـذى انتصر فى الحرب

اللوريـات مـا زالت تتقـدم فى إصرار وتهـالك شديديـن داخـل الطابور، من داخلها وقد بدا الفجر ينبلج، بدأنا نتبين حولنا أشجـارا وحشائش على الجانبين.

بغتة ارتطمت بعنف بالغ بالقابع خلفى ثم بالذى أمامى، وفى لحظة كنا «متكومين» فوق بعضنا البعض. تطلعت بصعوبة وفى ذهول.

رأيت أن سائقنا قد اندفـع بالعربـة خـارج الطريـق وأن كـل مـن حولى يقفزون مذعورين من صندوق اللورى ويجرون ثم ينبطحون.

بإحساس متبلد فعلت مثلهم فـارتطمت بـالأرض بشدة.

تناهى إلى أزيـز الطائـرة، أحسست جسدى كأنـه يضمـر، فجـأة دوى إنفجار هائل جززت على أسنـانى بشدة وانتظـرت.

كنت قد أزحت خوذتى على قفاى لأنى توقعت أن الاصابـة فى هذا الجزء ستكون مؤلمة جـداً.

مضى وقت. لم أعد أسمع غير أصوات مكتومة لانفجارات تأتينا من بعيد بعد أن ذهبت الطائـرات.

سمعت صوت «الأومباشى» يصرخ فينا غاضبا فهرولنا فى اتجـاه اللوريات.

عند مؤخرتها تزاحمنا وأخذنا ندفـع بعضنـا البعض.

كان منا من يتضاحكون فى جزل وأخرون يستميتون من أجل ارتقاء صندوق اللورى للفوز بمكان مناسب.

صرخ الأومباشى: إنه سيجعلنا نكمل الطريق إلى الميدان سيراً على الأقدام إذا لم نكف عن هذا. عاد الينا الوجوم ورحنا نصعد فى صمت.

جاء صوت الأومباشى مذعوراً من مكانه جوار السائق.

كان يأمرنا أن نفسح مكانا لرفاق دمرت عربتهم.

رأيناهم قادمين مترجلين، علا صوته فى غضب يستحثهم أن يسرعوا.

لم يستجب أحد منهم وظلوا يمشون ببطء حتى وصلوا. ومد بعضنا أيديهم يساعدونهم على الركوب حيث بدا لنا أن بينهم مصابا.

بعد أن ركبوا جميعا أصبحنا نجلس بعضنا فوق البعض.

استأنفت عربتنا طريقها تسمعنا صريرا عجيبا لاحتكاك أجزائها، صرخ أحدنا:

نظرنا كلنا بسرعة حيث يشير.. إنها جثة جندى ملقاة على الطريق. صرخنا ننبه السائق.

كانت ذراعا الجثة ممدوتين وشعرنا بعظامها تتكسر تحت العجلات، جمدنا من الرعب، أخرج السائق رأسه من الكابينة ولواها خلفه وهو يصيح فى غضب.

– إنه ميت.. لماذا صرختم؟

تنبهت أن السائق أكبر من أى منا فى السن، وتذكرت ما قيل لى من أنه متطوع وليس مجنداً مثلنا.

لم نعد ننظر إلى الطريق حولنا. كنا نتطلع فى بلاهة وذهول إلى ساق أحد رفاقنا الجدد.

أنها تبدو غير مركبة فى جسده، وكنا نفسح له بصعوبة مكانا وسط العربة حتى يصبح جسده فى مكان مناسب لساقه.

كان الدم يغمر كل سرواله وهو ينظر الينا فى هلع شديد.

سألت أحد رفاقه الذين ركبوا معنا

– هل تعرفه؟

أجابنى باضطراب شديد وبصوت خافت.

– لا.

سمعنا صوته :

–ساقى تؤلمنى

نظرنا إلى بعضنا البعض. همس أحدهم فى أذنى :

– كيف لا يعرف أن ساقه اليمنى مقطوعة.

لكزته بسرعة كى يصمت أدار الجريح رأسه فى ذهول ثم سأل:

– أين مخلتى ؟

طمأناه أن أشياءه موجودة.

تطلع إلى أحدنا وقال :

– أريدها إلى جنبى.

لم نعرف ماذا نقول له. إن شيئاً مما يتكلم عنه ليس موجوداً بالمرة، مال أحدنا وأسر له:

– سنضع كل شيء إلى جانبك عندما نصل إلى أقرب مكان لنضمد جراحك.

صمت المصاب. أغمض عينيه، نظرنا إلى بعضنا البعض، فتح عينيه وعاد يتكلم:

– أقول لكم.. إعطوا حاجتي إلى أمي..

وأغمض عينيه. رأينا وجهه شاحبا في لون الشمع، أطل أحدنا وكان قريبا من كابينة السائق وصاح وهو يدق بشدة على سقفها:

– معنا فتى ينزف بغزارة. لم يكد يكمل صياحه حتى شعرنا بعربتنا تزيد من سرعتها وفي لحظات كانت قد تخطت عربات القول الذى أمامنا واستمرت تنطلق بأقصى سرعتها على الطريق الوعر.

كنا نحاول أن نتماسك حتى لا يرتطم بعضنا ببعض ومع ذلك كنا نتدافع في كل اتجاه، صرخ أحدنا:

– هذه نقطة إسعاف.

رأيناه يشير في إنفعال إلى خيمة بعيدة على جانب الطريق مرسوم عليها صليب أبيض كبير كبعض خيام مررنا بها، بغتة انحرفت عربتنا في اتجاهها وتوقفت أمام النقطة الطبية مباشرة. صاح فينا السائق غاضباً:

– احملوه بسرعة.

كنا جميعا ننظر بلهفة من صندوق اللورى إلى زميلنا الجريح يحمله ثلاثة من الرفاق، وبينما يدلفون به إلى داخل النقطة برز يعترضهم عند بابها شخص يرتدى «أوفرول» ملطخاً كله بالدماء. سألهم:

– إلى أين؟

صحنا فيه كلنا من مكاننا:

– أفسح لهم.. إنه ينزف.

تصايح بعضنا بتوتر وفروغ صبر:

– أين الطبيب؟

رأيناه لم يتحرك من طريق زملائنا حتى كدنا نجن فرفع رأسه إلينا، كنا نقف متحفزين داخل صندوق اللورى.

قال بلا مبالاة:

– أنا الطبيب.

قبل أن ينطق أحدنا أضاف بصوت متبلد وربما بعطف :

– ألا ترون أنه فى حاجة إلى قبر أكثر من حاجته إلى..

تحركت العربة بنا بعد أن فهمنا أننا كنا نحمله إلى النقطة الطبية ميتا. ولا عجب أن العربة ما زالت ضيقة ونجلس فيها «مكومين» بالرغم من أن واحداً قد نزل.

استوت العربة فى سرعتها المعتادة داخل القول وكنا نجلس صامتين.

كان الهواء عليلا فتسلل شيء إلى نفسي مما جعلني أفكر في أمي. واستعيد ما رددته قبل أن نفترقا فاجتاحني حلم يقظة رأيت فيه يديها تمتد تصافحني ثم تضمني فأردد على صدرها سأكون موسيقياً مشهوراً كما وعدتك فأسمع أخي الصغير يسألني إلى أين أقول إلى هذه الحرب. قال: قبل أن تحل لي مسألة الحساب. احتضنته، قال سآتي معك، ابتسمت، تغيم ملامح أمي كلما ابتعدت، أرى شبحها يرفع يده. أحس ملمسها. يقشعر بدني. ارتجت العربة.

تنبهت أن الجالس المتكيء على يبكي، سألته، قال إنه من أجل الذي تركناه منذ قليل، رحت أخفف عنه، تذكرت منظر الجثة مطروحة على الأرض جانب النقطة الطبية ونحن نبتعد عنها، سألت نفسي هل أيضا له من ينتظره، هيهات أن يراه بعد ذلك.

لم استمر في التفكير فقد زادت اشجاني كان بعض الرفاق يثرثرون والآخرون واجمين وكان الشعور السائد بين هذه المجموعة هو الاطمئنان إلى حد ما غير أني لم أكن أعرف أحدا منهم، أمس قاموا بتوزيع من بقي من أفراد فرقتنا على سائر الوحدات وكان من نصيبي أن ضممت إلى الفرقة ٢٠٢٦ اعتبرت حظي هذا عاثرا فمن زملائي من ألحقوا بأعمال إدارية خلف الصفوف بينما أنا الآن أجد نفسي في طريقي إلى الميدان بين جنود جدد لا أعرف أحدا منهم، تذكرت رفيقا.

كنا زميلين بالمدرسة وطلبنا للجندية في وقت واحد، تعاهدنا ألا يترك أحدنا الآخر، أجدني من دونه الآن لا أعرف أين ذهب.

عرفت أنه من الخطأ أن تعاهد إنسانا فى الميدان. فلا يمكن لمن لا يعرف مصيره أن يفى بشىء.

انبعثت فجأة من بيننا ضحكة جزلة. قبل أن انتبه ماتت الضحكة وخيم صمت. بدأنا نسمع أصوات قنابل تنفجر.

بعيدا. انكمشت أكثر بمكانى، عاود الذى يحاورنى التصاقه الشديد بى، سمعت أسنانه تصطق.

أحسب أيضا أنه بسبب ما جنح إليه خياله ونحن فى لحظات اقترابنا من الميدان. رفعت رأسى، ظهر جليا ما توقعته، لقد كان مذعوراً.

أطرق كلانا بسرعة، نحن لا نجهر بالخوف بالرغم من أننا كلنا نحس به.

مضى وقت وكانت تعلو أصوات الانفجارات ونحن ننظر فى ذهول إلى الأشجار المحترقة والعربات المدمرة. أشار أحدنا، كانت ساقا آدمية، ازداد اقترابنا، اصبحت أميز أصوات طلقات الأسلحة الصغيرة وسط هدير القنابل.

خفضت عربتنا من سرعتها، صرخ الأومباشى، غادروا العربة.

فى ذهول بدأنا نتدافع، نهبط منها كسيل عارم لا سبيل إلى وقفه. كنا نخفى رعبنا بما نحدثه من ضوضاء.

وقفنا على الأرض نلهث شبه مخدرين تصم آذاننا أصوات الانفجارات، كنا نبدو وكأننا عبرنا لحظة للجنون تحركنا فى صف طويل بفواصل واسعة وسط دمار يطوقنا، كنت اسمع فى وضوح قلبى يدق بعنف شديد.

شعرت بشيء يدفعني في ذراعي فنظرت.

رأيت أنه جندي يسير إلى جواري بوجه شاحب، إنه لم يجاوز السابعة عشرة من عمره ويرفل مثلي داخل ملابس ميدان فضفاضة، لم أشأ أن أخيب ظنه فابتلعت ريقي وتجرعت ابتسامة تطمئنه، وجدت نفسي أهوي إلى الأرض وكنت قد طرت في الهواء.

رفعت رأسي ثم بدأت أنظر إلى جسدي. لم يعد غير دخان القنبلة نهضت استأنف سيري، تعثرت نظرت رأيت أنه الفتى الذي كان يسير إلى جواري، الآن يغوص في دمائه وملقى على ظهره فاتحاً ذراعيه يحركهما في بطء.

تطلعت إلى وجهه، رأيته حالما ينظر إلي في عطف، ضممت ذراعيه ورفعت يدي أمسح بها دموعي.

دفعني الذي خلفي، هبطت إلى الخندق اتبع الذي أمامي.

تقدمنا بداخله وكان ضيقاً متعرجاً تعثرت فيه أكثر من مرة ودخان القنابل المنهمرة يكاد يحجب الرؤية، وطأت شيئاً لينا، جمدت بمكاني، سرت في جسدي رعشة مقيتة قطعتها صرخة.

كانت الصرخة أنينا انبعث من بين قدمي حيث أقف، تخيلت حذائي الآن مستقراً يضغط على جزء مبتور في جسد يحتضر.

كدت أتلاشى والتوى قلبي وأنا انظر في تردد وذهول، حمدت الله أن ما وطأته بحذائي جرذ كبير ما لبث أن فر بمجرد أن حركت قدمي. انحرفت إلى اليسار فزكمتني رائحة نتنة للخندق الأمامي، بدأنا ونحن نتعثر داخله نتفحص وجوه جنودنا الذين جئنا

لنحل محلهم كدت أحس بما أصابهم من ويل، أخذنا نحتل أماكنهم، أرتطم أحدهم بى، عبس ثم خيل إلى أنه ابتسم، ابتسمت فى قلق سألنى ساخراً:

– هل أنتم الذين ستهجمون ؟

انفجر فى ضحكة كتمها بسرعة كأنه اختنق، لم أفهم وسار كل منا فى اتجاه.

بدأت على الفور فى تطهير موقعى ورحت أحفر لأعمقه، أرهفت السمع، إن ما اسمعه من صوت خافت يأتى من الأمام وليس أمامنا إلا العدو وأنها الحقيقة بالرغم من أنى لا أستطيع تصورها، فكرت فيما قيل لى من أن جنودهم ضخام الأجسام رفعت رأسى إلى السماء أسألها فى مرارة:

– لماذا دائما أكون مع الجانب الضعيف.

كنت مازلت أنظر إلى السماء عندما رأيت أضواء حمراء وصفراء كأننا فى ليلة عيد، كان جسدى قد عبر عن رد الفعل منذ هذه اللحظة والقنابل تنهمر كالمطر وأنا منبطح بأرض الخندق.

كانت القذائف تأتى من الأمام وتمر علينا وتسقط بعيدا خلفنا، أدركت أنهم على ما يبدو يريدون تدمير مواقع مدفعيتنا الثقيلة فى الخلف، توقعت أن الأمر سيستمر كذلك، خاب أملى بعد أن اقتربت منا أصوات الانفجارات.

وبدأت الأرض ترتج فى عنف بالغ وتتهايل الأتربة بغزارة.

إن ما أشعر به الآن ليس الخوف ولكنه الاستسلام للقضاء والانتظار المقيت لمعرفة أى جزء من جسدى ستمزقه شظية مشتعلة، غارت الأرض فقد سقطت فوقنا قنبلة مباشرة أزالت على ما يبدو كل القطاع الأيمن من خندقنا.

سمعت صوتا يصرخ :

– يا للمصيبة.. إنها قنابلنا.

أدركت على الفور أن مدفعيتنا فى الخلف بدأت فى الرد وقد اخطأوا تقدير المسافة حتى صارت قنابلنا تنزل على أم رأسنا.

شهقت، كدت أبكى من العجز وقلة الحيلة. وأنا أتشبث بالأرض وأحتضنها. استجابت تغطينى بمزيد من ترابها.

مضت لحظات ثم شعرت ان القصف بدأ يبتعد فى اتجاه خطوط الأعداء، تنفست بارتياح، أدركت أنهم صححوا الخطأ.

خفت حدة القصف من الجانبين، ابتسمت وضغطت أكثر بجسدى على الأرض ألتمس مزيدا من الراحة والحنان.

ألفيت نفسى أصرخ مذعوراً ككل الذين حولى :

– إهجم للأمام.. إهجم للأمام.

وجدت نفسى أهجم للأمام، ان ما يحدث يختلف عن كل ما عرفته من قبل، لقد كنت أسرع وأبحث وأنهض وأخطو وألهث وأتقدم، كل ذلك فى آن واحد.

أصبحت وزملائى نسير متباعدين فى تشكيل مفتوح، تقاربنا فى سرعة وشكلنا قطاراً ثم عدونا خلف بعضنا نعبر ثغرة فى حقل

ألغام، أتممنا ذلك فى لحظات وبنفس التشكيل اندفعنا واخترقنا ممرا ضيقا بين الأسلاك الشائكة.

نجحنا فى ذلك.

فى هذا الوقت بالذات انهالت علينا الطلقات تحصدنا، رأيت أمامى زملاء بمجموعتى يخرون صرعى، انتابتنى حالة هيستيرية، دفعتنى بكل سرعة إلى الإمام، وجدتهم أمامى رحت أطلق نيران بندقيتى بجنون.

رأيتهم يتساقطون قتلى، فرغت الطلقات، انقضضت أغمد السونكى استقر فى رقبة، سمعت صرخة، انتزعته، جريت أغمده فى ظهر واحد منهم يريد الفرار، انحرفت يدى، ارتطم السونكى بالأرض وانكسر، عدوت خلفه، ألقيت بنفسى عليه، عضضته فى رقبته أحسست بقطعة لحم كبيرة دافئة بين أسنانى، صرخت، شظايا، دم، ضوء مبهر، طنين، إظلام دامس.

حركت رأسى أرفعه فى بطء شديد، الشمس بدأت تميل إلى الغروب، عرفت انى هنا منذ ساعات.

عدت أوسد خدى الأرض كما كان، اجتاحنى صداع شديد، قبل أن أغمض عينى وقع بصرى على ما جعلنى أفتحها مرة أخرى وأحدق، على بعد رأيت رفيقا يطل من خندق صحت:

- هيه.

كانت ذراعاه ممدودتين أمام رأسه على الأرض، وخيل لى أنى أسمعه يسألنى، صحت:

– هل قلت شيئاً ؟

لم يرد رأيته يحرك رأسه ناحيتى حتى صار ينظر إلىّ، شهقت فى جزع، حاولت أن أهرب، إنه ليس من جنودنا، شعرت بألم بالغ بدأ ينقض علىّ، نظرت فى سرعة أخبره أنى جريح، إقشعر بدنى لما رأيته مازال بمكانه.

كان يحرك رأسه فى بطء جهة اليمين ثم يعاود ويحركه جهة اليسار، بدا لى كأنه يختنق، صحت رغما عنى:

– هل انت مصاب ؟

لم يرد، صرخت أردد :

– هل تفهم لغتى ؟

وخزنى ألم شديد، صمت. عدت بيأس أسأله :

– هل تفهم ما أقول؟

حرك رأسه، هتفت يا الهى، لقد سمعنى، رأيت رأسه يختلج إلى الخلف ثم إلى الأمام فتردد على وجهه آخر شعاع للشمس قبل ان تختفى، تبينت ملامحه، أخطئ إن قلت انه ليس أصغر منى فى السن، حولت رأسى إلى السماء، ثم ملت مرة أخرى أنظر إليه، كان يبدو مذعوراً يحس ألما، صحت :

– انتظر.. سآتى إليك.. سآتى إليك.

تأوهت، نظرت ناحيته، أطرقت وغمغمت، لا تخذلنى يارب، ناضلت برهة، لم أبرح مكانى، نظرت إليه، رأيت ذراعيه الممدودتين نحوى تتسعان صرخت من العجز.

بدأت أحس ما جرى لي، صرخت من الألم، بكيت بشدة، رفعت رأسي، الظلام زحف عليه، لم أعد أتبين ملامحه.

رأيته شبحا يعبث الهواء بشعرات في رأسه، ناديته، قلت:

– لا أستطيع أن آتي إليك..

حاولت أن أطمئنه فصحت بأعلى صوتي:

– عندما يأتي جنودنا سيحملونك معي إلى المستشفى.

استدركت في ذعر، ماذا يحدث لو أن جنوده الذين انتصروا حضروا ليأخذوه، اجتاحتني رهبة بالغة، قد يقتلونني، حاولت أن أتأكد، صحت بأعلى صوتي:

– هل يعرف أحد منكم من انتصر في الحرب؟

تردد صوتي في جميع الأرجاء.

لا جثثنا ولا جثثهم ترد.

في يوم تسطع فيه الشمس وفي داخل ملف مترب على الرف أوراق بين سطورها غبارة (وقد أبيدت الفرقة ٢٠٢٦).

[جريدة الأهرام، ١٧ أبريل ١٩٨١]

امرأة لكل العصور

لم أدرك أن أيامى سرقت منى إلا فى السنة الثالثة بعد الأربعين.. أبو الأولاد كان يكبرنى بأكثر من سنوات عمرى. تزوجته فى السن التى تبهر فيها المراهقة بالرجولة الكاملة.. ذهب إلى مولاه بعد أن أنجبت له ثلاثى أصبحوا أطول منى.. كريماً فى مصروف البيت والفاكهة والدكاترة لأنه من عيلة مرتاحة.. الحق يقال، لكنه كان يرى فى أحمر الخدود بهرجة، وفى كثرة خروج الزوجة من الدار ما يقلل من قدرها، وحكمه على دردشة التليفون سخافة، وارتداء المايوه والبنطلون وسوسة أبالسة، وأعياد الميلاد بدع مستوردة، وقراءة المجلات تفاهة. والسرحان غباء، وتلبية رغبات الأولاد إفساد، والاختلاط بالجيران انتهاك لحرمة البيت، والصديقات مندوبات خراب، والسهر فيه قضاء مبرم على الصحة، وقميص النوم خارج غرفة النوم امتهان لشرعية التقاليد، والكوافير حرام، والمناقشة رعونة، والضحكة العالية قلة أدب، والنادى مرفوض مرفوض.. وعندما سقط كفه على ذهول وجهى فى أول زواجنا لعلمه أنى استقبلت ابن خالتى فى غيبته ظللت لا أفتح إلا شراعة الباب لأقول للزائر إن الأستاذ غير موجود. ولم أكن أعلم ماذا سنأكل على الغداء إلا بعد أن يصدر توجيهاته فى الصباح، وهو الذى يحاسب صبى المكوجى ويأخذ الزجاجة من بائع اللبن ويعرف مستوى تفهم الأولاد من أستاذ الدرس الخصوصى.

المفاتيح التى كانت جميعها فى قبضته تركها لى ورحل.. قمم الرهبة.. مرحلة إنعدام الوزن. مثل طائر يفتح له باب القفص فيظل منكمشاً بالداخل لا يدرى أهمية مساحة الفضاء التي أمامه بلا قضبان. بحذر تتعثر خطواته إلى الخارج يداعب النسيم أجنحته. لا حاجز يصدمه. تنتشى تجربته، يحلق إلى أقرب غصن.. ثم إلى الحرية !

لم أكن أصدق أنه لا محظورات. لى كامل إرادتى. أستطيع أن أعبر الباب بلا إذن والعودة متى أشاء. أكدس حقيبتى بالجنيهات وأنتقى اللون الصارخ والحذاء المفتوح. أرفع صوت غناء لوعة الحب ونار الفراق وحلاوة الشوق ووصل الوداد. أتابع أخبار الفنانات وتطربنى المرآة. يهزنى الغرور. أرقص لها كأمهر من تهز محيط الوسط. أرجح حبال الضحكة وأتحيز لفريق. أدور بالعربة فى كل شارع وأضع لها كلاكس يصدر صوصوة، وتحملنى رحلة بطائرة وأصبح قيادة فى شلة.. ومائة حجة وحجة لإقامة حفل..

ما كانت الأرض العطشى قد ارتوت تماماً عندما وجدته فى طريقى. شاب جاء ميلاده بعدى. يعشق النضج وأوج الأنوثة والمرأة الأم. أتكلم فيصغى. أطلب يلبى. صوته حب. حنانه رجولة. بجانبه الحياة انطلاق.. الأولاد لم يعتادوا ممارسة الرفض. لم يقل أحدهم لا.. وافقت على الزواج.. جاء بيتنا يعيش.. الحياة حلوة..

ضغطت عمرى. جاريت سرعة حركته. نفذت حيوية برامجه. أدمنت أن أعود شابة. أن أظل امرأة لكل العصور. أردت أن أمنحه المعجزة. أحتويه بالتكامل. أعطيه الطفل. لكن الكيان الذى أعطى

ببلاهة لمن لا يعنيه فيما مضى رفض رعاية غرس الحب، والخلايا التى تشيخ أحاول تجديدها من خلف الستار.. أصبحت زبونة لوهم معاهد التجميل. أشد جلوداً تترهل. يستأصل المشرط جانباً من شحم. أذوب فى لهيب أجهزة كهربائية. تسلخ وجهى أقنعة مستحضرات. ألهث فوق عجلة تخسيس. أقطع النفس فى بخار حمام الساونا. ينهد حيلى تحت قبضات التدليك. أخرس الجوع. أبتلع الأقراص ويصبح مؤشر الميزان سيفاً مسلطاً على أعصابى.. تعبت..

البرنامج الذى وضعه لرحلة اليوم كان حافلا.. سيارات وخيام وسباحة وغطس ورقص وسهر. الأولاد كل فى طريق، وهو قلت له أذهب وحدك فأنا اليوم متعبة. أصر على البقاء بجوارى. تشبثت بإصرار وجدتنى أعجب له.. ومضى.. ياه. أحمال كجبال أزيحها عن أكتافى لساعات. استراحة. البطلة يداعبها الاعتزال. أتحرر من المشدات. من الثياب. أرحم وجهى من الأصباغ.. أرفع سماعة التليفون. أخرس ضجيج الموسيقى. أغلق تيارات الهواء. ألقى بمضرب للتنس فوق ظهر دولاب. أفك دبابيس الشعر. أنزع كعباً يقلص أوردة الساق. أسبح فى اتساع جلباب. يشد المنديل جبهتى. أتثاءب بملء حنجرتى. أقرأ الفاتحة للمرحوم.. أروح فى نوم كالموت لا يقلقنى فيه شخير قد يطرده صدرى !

[من مجموعة «امرأة لكل العصور» ١٩٨٤]

موقف فى حياة صعلوك

انتصف ليل القاهرة أو كاد، لكن حركة الحياة لم تتوقف، رغم برودة «يناير» اللاذعة. قادته قدماه إلى ركنه المنعزل فى قهوة «الفيشاوى». لا يدرى كيف وصل.. ولا أىّ طريق سلك، غير أنه أحس راحة شديدة، حينما جلس متهالكاً على الكرسى الخشبى. لم يجد صعوبة – رغم الزحام – فى أن يصل إلى حجرة، فيها مجلسه المفضل. هنا مارس كل الأنشطة التى يبيح القانون ممارستها فى مكان عام.. .. !! يحلو له – أحياناً – أن يقضى الليل فى هذه الحجرة، ليس مهماً أن ينام، المهم هو أن يقتل إحساسه بالوحدة والوحشة، وهو يعيش فى مدينة تعدادها اثنا عشر مليونا من البشر. آه ياقاهرة..!!

أيقظه الجرسون دون أن يلتفت إليه :

– شاى يا أستاذ أحمد ؟

أومأ له بإشارة بطيئة. فى اللحظة التى غاب فيها الجرسون، ظهر ماسح أحذية، أخذ يضرب بفرشاة خشبية على صندوق صغير، فتغافل عنه، موقناً أن حذاءه قد صار أرخص من القروش، التى يمكن أن يمسح بها، كما أنه – أى الحذاء – صار أجرب لا ينفع معه أى لون، وأهم من هذا وذاك هو أنه لا يحتكم على أىّ نقود.!!

جاء الجرسون، ووضع أمامه الصينية وبراد الشاى، وكوباً بها بعض السكر، وورقة نعناع أخضر، وكوباً أخرى بها ماء. احتسى الماء بسرعة أملاً فى أن يسكت معدته الخاوية. بينما كان يذيب السكر فى الشاى برتابة وهدوء، أخذ يتأمل زبائن المقهى، وهم يلعبون الدومنيو أو الطاولة، ويدخنون الشيشة أو الجوزة، ويشربون القرفة أو الزنجبيل أو الشاى – مثله – أو الحلبة المطحونة أو القهوة. ثمة عالم غريب عجيب. يحاولون قتل ليل لشتاء البارد بصبر وعناد. البرد جعل الناس يقتربون من بعضهم البعض، ويتعاملون كأنهم أصدقاء حقيقيون، مع أنهم اجتمعوا صدفة.. وسوف يفترقون صدفة. أرهف السمع – دون قصد – لأحاديثهم الساخرة حول قسوة البرد وغلاء الأسعار واختفاء الحشيش. تأمل ملابسهم المتواضعة وعيونهم المرهقة، فرأى فيهم صورة منعكسة لحياته الضائعة.. غير أن هؤلاء الضائعين – فيما بدا له – كانوا أسعد حالاً منه، لأنهم يعيشون الفقر، ولا يشعرون به مثله على الأقل، زاد من إيمانه بهذه الفكرة أن وجدهم يتحلقون حول واحد منهم، بدأ يغنى بصوت مجروح :

إنْ كان بدّك تِريّح القلبْ وتهدّى
اتركْ هوَى الدنيا، لا تاخُدْ منها ولا تدّى
حِسّكْ تقُول عمىّ ولا خالى ولا جِدّى
دا اللّى معاه مالْ مالكْ دِى ومالكْ دِى
واللّى بلا مال تارِكْ دِى وتَاركْ دِى

صاح واحد من المستمعين منتشياً:

– شاى على حسابى يا معلم لشلة الأنس.!!

تمنى أن يكون قريباً من الشلة،حتى تشمله موجة الكرم المفاجىء، ويشرب شاياً على الحساب. لا فائدة، إنه – كما تخيل نفسه – هكذا دائماً.. لا هو مع الناس، ولا هو بعيد عنهم..!! لقد حاول.. وحاول، لكنه دائماً يفرّ ويهرب. شكّل الفقر بالنسبة له حداً مثل سور الصين العظيم، يحول بينه وبين البشر. لم يكن أمياً بحيث يتجه إلى حرفة، ويكون على الأقل مثل جاره الأسطى دسوقى الحلاق. كما أنه لم يكمل تعليمه، بحيث يستطيع أن يشغل وظيفة محترمة. إنه مجرد حاصل على الثانوية، ويعمل – منذ خمس عشرة سنة – معاوناً لمدرسة ابتدائية. لكن الذى أفسد حياته ودمّر كيانه، توهمه منذ وقت مبكر، أنه يمكن أن يكون كاتباً صحفياً، فأخذ يشترى الجرائد والمجلات، ويكتب ويرسل إلى كل الصحف والمجلات.. لكن اسمه لم يظهر حتى الآن سوى مرتين فى بريد القراء. بين الحلم والواقع ضاعت جنيهاته وقروشه، واغتربت نفسه وروحه. أمسى يؤمن أنه غريب.. مضت المسافة تتسع بينه وبين الناس فى العمل.. وفى الحارة.. وحتى فى المقهى..!!

لعن – فى النهاية – فى السر والعلن الصحف والصحافة، وقرر أن يكون ممثلاً.. فناناً، والفن – فى تقديره – موهبة لا يحتاج المرء معها إلا إلى النوايا الطيبة. بدأ يتابع مجلات السينما، ويتعاطى مشاهدة الأفلام المحلية والأجنبية.. وأخذ ينتظر الفرصة السانحة. توهّم ذات مرة أن الممثل الذى يقوم بدور الرجل الطيب على

الشاشة،هو كذلك بالفعل فى الواقع. راح ينتظر الممثل الطيب – كما تصوّر – فى أقرب مسجد إلى بيته كل يوم جمعة، غير أنه اكتشف بعد نصف سنة أن الرجل لا يزور المسجد ألبتة. بعد ذلك اتهم نفسه بقصور الرؤية وقلة الوعى، وقال: لم لا أطلب المساعدة من ممثلى أدوار الشر؟! لكنه اكتشف – بعد فوات الأوان – أن كل الطرق إلى الشاشة الكبيرة أو الصغيرة مسدودة.. مسدودة، وأن لا أمل.. لا أمل. رأى فى نفسه صورة مجسدة للفقر. لولا الفقر لما مات أبوه دون علاج.. ولا توقف مسار تعليمه.. ولا ما تزوج حتى الآن. الفقر لعنة.. والفقراء مبعدون.. مستبعدون..!!

ترك المقهى.. وطاف حول مسجد الحسين مثنى وثلاث ورباع. تعب من كثرة الطواف فجلس أمام المسجد. أدرك حين رأى الحركة الصاخبة فى الميدان أن الفجر مازال بعيداً.. وربما بعيداً جداً. لكن التعب والضياع كانا أكبر من أى إحساس آخر. أيقظه من غفوته شرطى فى ملابس سوداء كأنه عفريت. أبرز له بطاقة تحقيق الشخصية طالباً عفوه، ثم مضى لا يدرى إلى أين يمكن أن يذهب؟! أحس قشعريرة أشد برودة من ليالى الشتاء. حين توهم أن عينى الشرطى لاتزالان تتعقبانه، أسرع فى الحوارى والأزقة.. حتى وصل إلى شارع المعز. الشارع متعرج مثل أفعى رقطاء. الهدوء الموحش يظلل المكان. لا صوت.. لا حركة.. لا أحد يمشى فى هذا الليل البارد سواه. سوّلت له نفسه أن يعود إلى المقهى.. لكن ماذا يفعل هناك ولم يعد معه قرش

واحد. أفضل شيء هو أن يذهب إلى البيت لينام، حتى يذهب إلى المدرسة فى الموعد، ولو مرة واحدة. الناظر استخدم معه كل أساليب الزجر والعقاب بلا جدوى. أخيراً كتب عنه فى ملف الخدمة «لا يُنقل ولا يُرقى ولا يُفصل ولا يأخذ علاوة».. يعنى موظف مع إيقاف التنفيذ. تحسر على ما آل إليه حاله، وقرر أن يبدأ من جديد بداية صحيحة. يجب أن يرضى بالقضاء والقدر، وأن يؤدى واجبه كما ينبغى.. وأن ينسى كل الأحلام أو الأوهام التى أفسدت حياته!!

وصل أخيراً إلى البيت. تلمس طريقه بحذر على السلم المظلم والسور الحديدى المتآكل. أخذ يصعد درجة درجة، وأصداء صخب المقهى ومطاردة الشرطى وبرودة الليل تزيد من آلامه ومخاوفه. حاول أن يفتح الباب – باب غرفته – بهدوء، حتى لا يوقظ النائمين، لأنه يشغل غرفة فى شقة مشتركة، توجد بها ثلاث غرف أخرى، فيها ثلاث عائلات. شعر بقدر من الراحة، حين سمع فى الظلام حركة المفتاح تؤذن بفتح الباب المغلق. ظلام الحجرة أشد من ظلام السلم. صاحب البيت قطع عنه النور، لأنه غير مواظب على دفع الأجرة. لعن الظلام.. وصاحب البيت.. وناظر المدرسة.. وجرسون المقهى.. وشرطى البوليس، وارتمى متهالكا على الحصيرة. لدغه البرد بشدَّة. رغم برد الحصيرة وظلام الحجرة.. استلقى على ظهره، وتطاول بملابسه وحذائه البالى الأجرب، جذب البطانية المتآكلة وغطى جسده المتعب من القدم إلى الرأس. أحس أنه لم يسترح لحظة فى حياته. حاول أن يطرد أشباح الخوف والبرد.

قليلاً قليلاً بدأ يحس بعض الدفء. أخذ النوم يداعب جفونه. فيما هو بين اليقظة والمنام رأى طيف أبيه يقول له :

«كن شجاعاً يا أحمد.. حاول أن تبدأ منذ الآن بداية جادة.. بلا خوف ولا وهم!!»

[من مجموعة «دائرة اللهب»]